

السيرة النبوية المباركة



دار المعارك الإسلامية الثقافية

السيرة والشايع

سلسلة المعارف التعليمية

سلسلة المعارف التعليمية

السيرة النبوية المباركة



دار المعارف الإسلامية الثقافية

الكتاب: السيرة النبوية المباركة

إعداد: مركز المعارف للتأليف والتحقيق

إصدار: دار المعارف الإسلامية الثقافية

تصميم وطباعة: DB UH
009613336218

الطبعة الأولى - 2018م

ISBN 978-614-467-046-0

books@almaaref.org.lb

00961 01 467 547

00961 76 960 347

سلسلة المعارف التعليمية

السيرة النبوية المباركة



دار المقارن الإسلامية الثقافية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الفهرس

13.....المقدمة

15.....الدرس الأول: شبه الجزيرة العربية الجغرافيا والتاريخ

17.....تمهيد

17.....جغرافية شبه جزيرة العرب

18.....حياة العرب في شبه الجزيرة العربية

25.....الدرس الثاني: قبيلة قريش النشأة والهوية

27.....تمهيد

27.....أقسام العرب

29.....ظهور قبيلة قريش

30.....مكانة قريش بين العرب

31.....أعمال قصي في مكة

32.....زعامة قريش بعد قصي بن كلاب

33.....حكم عبد المطلب بن هاشم في مكة

34.....مصير الرفاة والسقاية بعد عبد المطلب

34.....حملة أبرهة

39.....الدرس الثالث: النبي محمد بن عبد الله ﷺ (الولادة والنشأة)

41.....تمهيد

41.....النسب الشريف

42.....ولادته ﷺ

43.....رضاعه ﷺ

44.....كفالة أبي طالب للنبي ﷺ

44.....فترة شبابه

47.....زواج خاتم النبيين ﷺ

51.....الدرس الرابع: البعثة النبوية (1) نزول جبرائيل - الدعوة السرية

53.....تمهيد

53.....الإعداد الإلهي للنبي ﷺ قبل البعثة

54.....ظهور جبرائيل على النبي ﷺ وأول صلاة

55.....البعثة النبوية

- 56..... الدعوة السريّة إلى الإسلام
- 57..... النواة الأولى للمسلمين

الدرس الخامس: البعثة النبويّة (2) نزول القرآن - الدعوة العلنية.....63

- 65..... تمهيد
- 65..... البعثة النبويّة ونزول القرآن
- 67..... بداية نزول القرآن الكريم
- 68..... إعلان الدعوة الإسلاميّة
- 70..... موقف قريش من الدعوة العلنية
- 70..... الإسراء والمعراج

الدرس السادس: قريش ومواجهة الدعوة النبويّة (1).....75

- 77..... تمهيد
- 77..... الصّدّ عن الدعوة النبويّة
- 78..... البيان العامّ الثالث بعد هلاك المستهزئين
- 79..... الصّدّ عن الدعوة في موسم الحج
- 79..... ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين
- 80..... تحليل عامّ للموقف بعد إعلان الدعوة
- 82..... قريش توسّط أبا طالب
- 85..... الهجرة إلى الحبشة وتصعيد المواجهة مع الشرك

الدرس السابع: قريش ومواجهة الدعوة النبويّة (2).....89

- 91..... تمهيد
- 91..... إسلام حمزة بن عبد المطلب
- 93..... الحصار في شعب أبي طالب
- 95..... وأنذر عشيرتك الأقربين
- 98..... عام الحزن
- 99..... هجرة النبيّ ﷺ إلى الطائف

الدرس الثامن: يثرب قاعدة تأسيس الدولة الإسلاميّة.....103

- 105..... تمهيد
- 105..... التعريف بمدينة يثرب
- 106..... أسباب الهجرة إلى يثرب
- 107..... لماذا اختار رسول الله ﷺ المدينة المنورة؟
- 108..... بداية دخول الإسلام إلى يثرب

110..... اللقاء الأول للخزرج بالنبي ﷺ في موسم العمرة

111..... البيعة والقاعدة الشعبية المناصرة

115.....**الدرس التاسع: الهجرة إلى يثرب**

117..... تمهيد

117..... هجرة المسلمين إلى يثرب

119..... المؤامرة على حياة النبي ﷺ

119..... التحضير للهجرة النبوية وإيثار الإمام عليّ ﷺ

121..... فشل المؤامرة القرشية

122..... الهجرة النبوية

124..... هجرة عليّ بن أبي طالب ﷺ

125..... المسجد الأول في الإسلام: «قباء»

126..... رسول الله ﷺ في يثرب

129.....**الدرس العاشر: التنظيمات الأولى للدولة الإسلامية**

131..... تمهيد

131..... المسجد النبويّ مركز قيادة الدولة

132..... معالجة أسس البناء الاجتماعي الداخلي

136..... إرساء أسس النظام السياسي للدولة

137..... إرساء أسس بناء القوة العسكرية للدولة

143.....**الدرس الحادي عشر: معركة بدر (1)**

145..... تمهيد

145..... موقع بدر: الهوية والجغرافيا

146..... الأسباب المؤدية إلى وقوع معركة بدر

147..... تحرّك جيش المسلمين نحو بدر

148..... إجراءات أبي سفيان لحماية القافلة

150..... النبي ﷺ يتحرّى أخبار قافلة قريش

150..... خيارات النبي ﷺ بعد إفلات القافلة

151..... إجراءات النبي ﷺ الداخلية استعداداً للمعركة

152..... أهداف استشارة النبي ﷺ أصحابه

152..... إجراءات النبي ﷺ المعنوية والعسكرية يوم اللقاء في بدر

157.....**الدرس الثاني عشر: معركة بدر (2)**

159	تمهيد
159	رسول الله ﷺ ومحاولة التهذئة
161	القتال والاشتباك
163	هزيمة المشركين في بدر
163	إجراءات النبي ﷺ بعد معركة بدر
165	نتائج معركة بدر وآثارها
166	عوامل النصر في معركة بدر

الدرس الثالث عشر: اليهود والإخلال بنظام الدولة الإسلامية (بنو القينقاع - بنو النضير)..... 171

173	تمهيد
173	بروز وخفاء ظاهرة النفاق
174	نجاح سياسة النبي ﷺ في مواجهة المنافقين
175	محور اليهود
176	أسباب إخراج النبي ﷺ اليهود من المدينة
180	حصار بني النضير
182	نتائج المعركة

الدرس الرابع عشر: معركة أحد (1) (اختبار الطاعة والولاء)..... 185

187	تمهيد
187	تعريف عامّ بالمعركة
188	استعدادات قريش للمعركة
189	جيش المشركين إلى أحد
189	استعدادات المسلمين للمعركة
192	المواجهة بين المسلمين والمشركين
196	محاولة أبي سفيان في اكتساب النصر
197	الحفاظ على المدينة

الدرس الخامس عشر: معركة أحد (2) (النتائج والآثار، غزوة دومة الجندل)..... 199

201	تمهيد
201	نتائج معركة أحد وآثارها
205	غزوة دومة الجندل
206	الخروج إلى دومة الجندل
207	رسول الله ﷺ في دومة الجندل

الدرس السادس عشر: معركة الخندق (1)..... 209

211	تمهيد
211	تعريف بالمعركة
212	تحالف قوى الشرك ضد المسلمين
213	التخطيط النبوي لمواجهة الأحزاب
218	جيش الأحزاب والمفاجأة الكبرى
218	تحليل الموقف العام للمعركة
220	النبى ينتزع زمام المبادرة

الدرس السابع عشر: معركة الخندق (2) (الهيمنة النهائية لقوى الشرك)..... 223

225	تمهيد
225	يهود بني قريظة والخطر الداخلي
227	خريطة الدفاع النبوية
229	الاشتباك والقتال
230	رسول الله وتفتيت معسكر الأعداء
231	نهاية جيش الأحزاب

الدرس الثامن عشر: حماية المدينة وتفتيت جبهة قريش (يهود بني قريظة)..... 237

239	تمهيد
239	الاستراتيجية النبوية في قلب موازين القوى في المنطقة
246	نتائج الحرب
247	الدروس المستفادة من غزوة بني قريظة

الدرس التاسع عشر: حماية المدينة وتفتيت جبهة قريش وقوة اليهود 251

253	تمهيد
253	غزوة بني المصطلق
255	القضاء على قوى اليهود الأخرى
257	ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة

الدرس العشرون: استدراج قريش نحو صلح الحديبية (موازين القوى بين رسول الله ﷺ وقريش) . 261

263	تمهيد
263	إعلان التوجه إلى العمرة
264	استعداد قريش للحرب
265	المفاوضات وتبادل الرسل
266	خطة عمل النبي ﷺ
267	قريش تفجر الموقف

- 268..... قبول قريش بأصل التفاوض
- 268..... كتابة معاهدة صلح الحديبية
- 270..... نتائج صلح الحديبية
- 270..... بيعة الرضوان (تجديد الولاء والعهد)

الدرس الواحد والعشرون: استثمار صلح الحديبية باتجاه قلب موازين القوى 273

- 275..... تمهيد
- 275..... فتح خيبر
- 280..... أسباب انتصار المسلمين في خيبر
- 281..... آثار ونتائج فتح خيبر
- 281..... يهود فدك ووادي القرى وتيماء

الدرس الثاني والعشرون: الدعوة الإسلامية خارج المدينة المنورة وعمرة القضاء 285

- 287..... تمهيد
- 287..... انتشار الإسلام في البلدان والقبائل العربية
- 288..... غطفان وخزاعة والدخول في الإسلام
- 289..... دعوة شعوب العالم إلى الإسلام
- 292..... عمرة القضاء والعودة إلى مكة

الدرس الثالث والعشرون: الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، معركة مؤتة 297

- 299..... تمهيد
- 299..... محاولة التمدد ناحية الشمال
- 300..... أهداف غزوة مؤتة
- 302..... تجهيز الجيش الإسلامي
- 303..... مجريات المعركة
- 305..... الهزيمة والعودة إلى المدينة
- 305..... نتائج معركة مؤتة

الدرس الرابع والعشرون: قريش تنهي حركة الصراع مع النبي ﷺ (نقض صلح الحديبية) ... 309

- 311..... تمهيد
- 311..... قريش تنقض صلح الحديبية
- 315..... خزاعة تستنصر رسول الله ﷺ
- 315..... خطة تحرك النبي ﷺ لفتح مكة

- 319..... رحمة النبي ﷺ وعضوه
- 321..... الدرس الخامس والعشرون: الفتح المبين (فتح مكة)**
- 323..... تمهيد
- 323..... السياسة النبوية في فتح مكة
- 324..... أحداث فتح مكة
- 328..... الدخول إلى مكة
- 328..... النبي يدخل المسجد الحرام
- 329..... نتائج فتح مكة
- 333..... الدرس السادس والعشرون: معركة حنين (1)**
- 335..... تمهيد
- 335..... سرايا إنهاء مظاهر الشرك
- 338..... معركة حنين
- 340..... المعركة والقتال
- 345..... الدرس السابع والعشرون: معركة حنين (2) حصار الطائف وثقيف**
- 347..... تمهيد
- 347..... حصار الطائف
- 348..... الخطط العسكرية في تشديد الحصار على الطائف
- 350..... أهل الطائف يعلنون إسلامهم
- 351..... قضية السبايا والأسرى
- 352..... تقسيم الغنائم والأموال
- 354..... دروس وعبر من معركة حنين
- 355..... العودة إلى المدينة
- 357..... الدرس الثامن والعشرون: غزوة تبوك (سرايا الدعوة والتبليغ والردع)**
- 359..... تمهيد
- 359..... سرايا الدعوة والتبليغ والردع
- 360..... رسائل النبي ﷺ إلى اليمن
- 362..... غزوة تبوك
- 363..... العقبات التي سبقت غزوة تبوك
- 364..... خطوات النبي في الحفاظ على المدينة

- 365.....خطوات النبي ﷺ وأعماله في تبوك
- 367.....النتائج العامة لغزوة تبوك
- 367.....محاولة اغتيال النبي ﷺ
- 368.....تهديم مسجد الضرار

الدرس التاسع والعشرون: عام الوفود وتصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة..... 371

- 373.....تمهيد
- 373.....السياسة العامة لرسول الله ﷺ مع الوفود
- 375.....بعثة الإمام عليّ ﷺ إلى اليمن
- 376.....مصالحة أهل نجران
- 378.....إعلان البراءة من المشركين

الدرس الثلاثون: رسول الله ﷺ ومستقبل الدولة الإسلامية..... 383

- 385.....تمهيد
- 385.....حجّة الوداع: الأسباب الدينيّة والهدف التاريخي
- 387.....رسول الله ﷺ في مكّة
- 389.....غدير خم والبيعة للإمام عليّ ﷺ

الدرس الواحد والثلاثون: رحيل المصطفى ﷺ..... 395

- 397.....تمهيد
- 397.....جيش أسامة وخلافة الإمام عليّ ﷺ
- 400.....ملابسات كتابة وصيّة رسول الله ﷺ
- 402.....رسول الله ﷺ في جوار الله
- 403.....الإمام عليّ ﷺ واستكمال إجراءات الدفن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين،

وبعد...

لقد بعث رسول الله ﷺ، والناس في ضلالة عمياء، وجاهليّة جهلاء، والعالم يموج بألوان مختلفة من الشرك والظلم والتخلف والانحدار، وفي صدارة العالم دولتان، هما: دولة الفرس، ودولة الروم، ومن وراء هؤلاء يهود غضب الله عليهم لضياح الدين بينهم، واتّخاذهم أحبارهم أرباباً من دون الله. ولم يكن العرب أحسن حالاً من هذه الأمم والشعوب؛ فقد كانت أحوال القبائل داخل الجزيرة العربيّة مفككة الأوصال، تغلب عليها النزعة القبليّة والطبيعة العنصريّة. أمّا أحوال العرب الاجتماعيّة فقد كانت في الحضيض، يُغَيَّرُ بعضهم على بعض، فيقتلون ويسبون، ويخوضون الحروب لأتفه الأسباب، يئدون البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر والافتقار...

فقد كان فيهم من الدنيا والرذائل ما ينكره العقل والمنطق، لكنهم حافظوا على جملة من الأخلاق تميّزوا بها عن سائر الأمم حينئذٍ، كالوفاء بالعهد وعزّة النفس والشجاعة والكرم...

ولهذا، عندما نتأمّل أهداف البعثة النبويّة، نجد أنّ نبيّ الإسلام محمداً ﷺ قد عمل على تربية الفرد والمجتمع على الإيمان بالإله الواحد على مستوى العقيدة والفكر، والالتزام العمليّ في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة على مستوى الشريعة والفقه، إضافةً إلى تعميم مكارم الأخلاق، فقد روي عنه ﷺ، في حديث مشهور، أنّه قال: «إنّما بُعثتُ

لأتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁾؛ فإنَّ البعثة قد وُجدت في هذا العالم لأجل هذا الهدف، من أجل تعميم المكارم الأخلاقية، والفضائل الروحية وتكميلها عند الناس. ولهذا، فإنَّ الله سبحانه يُخاطب النبي ﷺ في أوائل البعثة قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽²⁾؛ أي إنَّ الرسول ﷺ كان على درجة من الاستعداد تجعله قادراً على تلقي الوحي الإلهي، وهذا الأمر يعود إلى ما قبل البعثة.

وإنَّ سيرة النبي الأكرم ﷺ، في مرحلة السنوات العشر لحاكمية الإسلام في المدينة، تُعدُّ من ألمع عهود الحكم طيلة التاريخ البشري، ولا نقول ذلك جزافاً، وإنما يجب التعرف إلى هذا العهد القصير والمليء بالنشاط، والذي له تأثيرٌ خارقٌ على تاريخ البشرية. وإنَّ المرحلة المدنية هي الفصل الثاني من عصر رسالة النبي، فهي تُمثل سني إرساء قواعد النظام الإسلامي وبناء نموذج الحكم الإسلامي لجميع أبناء البشرية على مرَّ التاريخ الإنساني في مختلف الأعصار والأعمار. وهذا النموذج الكامل، لا نجد له نظيراً في أي حقبة أخرى. وبمقدورنا، من خلال إلقاء نظرة على هذا النموذج الكامل، تحديد المعالم التي ينبغي للبشر والمسلمين الحكم على الأنظمة والناس من خلالها.

هذا الكتاب، «السيرة النبوية المباركة»، سلسلة دروس تحليلية في السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام، تقدّمه للأساتذة والطلاب الأعزاء وفق منهجية تراعي حاجات المتعلمين، وتقدّم مادة علمية غنية للمعلمين، وقد استندنا في إعداد الكتاب وتحقيق موارد الاختلاف فيه إلى المصادر التاريخية المشهورة عندنا؛ لحسم المورد وإعطاء الرأي الصحيح فيه وفق هذه المصادر.

والحمد لله رب العالمين

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج10، ص 86.

(2) سورة القلم، الآية 4.

الدرس الأوّل

شبه الجزيرة العربيّة الجغرافيا والتاريخ

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف جغرافيا شبه الجزيرة العربية.
2. يشرح ملامح النظام الاجتماعي والسياسي في شبه الجزيرة العربية.
3. يتعرّف على الحياة الدينية عند العرب في شبه الجزيرة العربية.

تمهيد

إن قراءة التاريخ لمجتمع ما تتطلب أن يتم التعرف إلى البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ذلك المجتمع؛ لأن كثيراً من الأحداث التاريخية التي تتعلق بذاك المجتمع، تتعلق بالطبيعة الجغرافية التي يعيش فيها، من جبال وسهول ووديان ومناطق أخرى. إضافة إلى ذلك، لا بد من الاطلاع على الحياة السياسية والاجتماعية والدينية التي كان يعيشها ذاك المجتمع؛ لأن كثيراً من العادات والتقاليد والأعراف مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل تلك الحياة التي ينطوي عليها المجتمع، فتؤثر فيه وفي أبنائه، وهذا ما يشمل عملياً معتقداته، وأفكاره الدينية، والسياسية، والاجتماعية والنفسيّة. وهنا، في معرض تعرّفنا إلى تاريخ العرب في شبه الجزيرة العربية، لا بدّ من إطلالة على جغرافية شبه الجزيرة العربية، ومعتقدات العرب، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية.

جغرافية شبه جزيرة العرب

تقع في الجنوب الغربيّ من آسيا، على مساحة تبلغ ثلاثة ملايين كيلومترٍ مربعٍ تقريباً، تحيطها المياه من الجهات الثلاث، فهي شبه جزيرة. يحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب المحيط الهنديّ وخليج عُمان، ومن الشرق الخليج الفارسيّ، وتترامى أطرافها من جهة الشمال حتّى تتصلّ بالفرات، وبادية الشام، وبادية السماوة⁽¹⁾. وتنقسم شبه الجزيرة إلى أقاليم ومناطق جغرافية مختلفة، وهي:

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة النهضة، بغداد، 2001، ط1، ج1، ص140-143.

1. تهامة على طول الساحل الممتد من العقبة إلى حدود اليمن، المحاذي للبحر الأحمر.
2. الحجاز أو جبال السراة، وهي المنطقة الوسطى، شرقي تهامة، وتمتد من الشمال إلى الجنوب.
3. هضبة نجد، حيث ينبسط الحجاز شرقاً، وتنحدر الهضبة تدريجياً، حتى تصل إلى الشواطئ الشرقية المعروفة بالعروض، وهي بلاد اليمامة والبحرين. وتمتد من البصرة إلى عُمان، وتشمل الآن الكويت، والإحساء، وجزر البحرين وقطر.
4. اليمن وحضرموت ومهرة.
5. الربع الخالي: ثاني أكبر صحراء في العالم، وتحتل الثلث الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة. ويتجزأ الربع الخالي حالياً بين أربع دول، هي: السعودية، واليمن، وعُمان والإمارات.

حياة العرب في شبه الجزيرة العربية

مرت شبه الجزيرة العربية بفترة زمنية قاتمة من الناحية الفكرية والثقافية والاجتماعية، عبر عنها القرآن الكريم بـ«الجاهلية». وقد استُخدمَ هذا المصطلح في الإسلام، فعُرفت تلك الفترة بـ«العصر الجاهلي».

«الجاهلية» اصطلاحٌ مستحدثٌ ظهر بظهور الإسلام، وقد أُطلق على حال ما قبل الإسلام تمييزاً وتفريقاً عن الحال الذي صار عليه العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم، من إطلاقٍ لتسمياتٍ جديدةٍ للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداثٍ تزلزلها، وتتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي تسميها أيضاً بتسمياتٍ جديدة. ونجد في التسميات التي تطلق على العهود السابقة ما يدلّ ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان⁽¹⁾.

وقد استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح في إشارة إلى الجاهلية من نواحٍ عدّة فكرية، وثقافية، واجتماعية وغيرها، وهي:

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ج1، ص37.

قال تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿أَفْحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾⁽³⁾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾⁽⁴⁾.

وقد أطلق القرآن الكريم هذا المصطلح على حياة العرب قبل الإسلام؛ ليشخص طبيعة هذه المرحلة الحضارية والعقائدية، وليضعها في صف أخواتها من جاهليّات الأمم والشعوب الأخرى. ولم يطلق هذا المصطلح نتيجةً لجهلهم بالعلوم والمعارف، لأنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولا لأنهم كانوا أمة متخلّفة في الحياة المدنيّة، أو لأنهم كانوا يتّصفون بالمفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب، وغير ذلك من خلال التي كانوا يتّصفون بها، بل أسماهم جاهليين لصدق انطباق المفهوم الجاهليّ في عُرف الإسلام عليهم. وحقيقة هذا المصطلح هي عبارة عن مرض حضاريّ، وحالة فكريّة ونفسية، تعترى الأفراد والشعوب والأمم في كلّ عصر وجيل، وإنّ مظاهر الحياة الجاهليّة مشابهة لغيرها من العصور تماماً رغم فواصل الزمان والمكان⁽⁵⁾.

أولاً: الحياة الاجتماعيّة

1. النظام القبليّ:

القبيلة هي وحدة اجتماعية سياسية اقتصادية أساسية قائمة بذاتها، لها جيشها، ولواؤها، ورئيسها ومناطق تحركها، وعيشها، وإعلامها الذي هو شاعرها. ويدعي أفرادها انحدرهم من أب واحد حتّى لو كان هذا الأب بعيداً جداً، ويعيشون حياة مشتركة هي عبارة عن امتلاك مرعى ومرتع مشترك.

(1) سورة آل عمران، الآية 154.

(2) سورة المائدة، الآية 50.

(3) سورة الأحزاب، الآية 33.

(4) سورة الفتح، الآية 26.

(5) الشيخ عدنان فرحان آل قاسم، دروس في السيرة النبويّة، دار السلام، بيروت، لبنان، 2011م، لا. ط، ج1، ص128.

وتعدّ المسؤوليةّ مشتركة بين أفراد القبيلة في الدفاع عنها. وقد أورثت هذه المسؤوليةّ المشتركة لأفراد القبيلة في الحروب الدفاعيّة والهجومية حالة من الشجاعة والإقدام والجَلَد عند أفراد القبائل لا يملكها أهل المدن بصورة عامّة.

2. التعصّب:

كان الإحساس المشترك بالدفاع عن المصالح الحيويّة هو المسؤول عن بروز سمة التعصّب في المجتمع الجاهليّ، وهو حالة من التضامن الوثيق بين أفراد القبيلة الواحدة، في الأمور الاقتصاديّة والمعيشيّة، ما لبثت أن تحوّلت إلى أمر معنويّ روحيّ؛ كالشعور بالاعتزاز والفخر، والشرف بالانتماء إلى القبيلة.

3. التحالفات:

كانت الإجارة وعقد التحالفات من الأمور الشائعة بين العرب. وقد عُرف من التحالفات المشهورة «حلف الفضول» الذي حضره النبي ﷺ، و«حلف المطيّبين» ضدّ «حلف لعقة الدم»⁽¹⁾، و«حلف خزاعة» مع عبد المطلب. ولعلّ سبب هذا الحلف يعود إلى أنّ بني أمية قد ناصبوا هاشمًا وأبناءه العدا في حياة هاشم نفسه، فتأسّس حلف بني هاشم وبني المطلب وخزاعة ضدّ بني نوفل وبني عبد شمس⁽²⁾. وقليلة هي القبائل التي لم تدخل في أحلاف، ولذلك سمّيت باسم «جمرات العرب».

ثانيًا: الحياة الدينيّة

1. عبادة العرب للأصنام والكواكب:

شاعت بين العرب في الجاهليّة عبادة الأصنام والجنّ والكواكب، لكن ذلك لم يقض على الاعتقاد بالصانع الذي خلق الكون والحياة. فعلى الرغم من أنّ كثيرًا من العرب لا يعتقدون بالمعاد، والحياة بعد الموت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

(1) البغدادي، محمد بن حبيب، المنق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق، لان، لام، لات، لاط، ص190.

(2) الرمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، الناشر: مؤسسة الأعلمي، 1992م، ط1، ج1، ص155.

يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلَّ مُرْقٍ إِنَّكُمْ لِنِي خَلَقٍ جَدِيدٍ ﴿١٠﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١١﴾⁽¹⁾، إلا أنهم كانوا يعتقدون بوجود الله وخالقيته، لكنهم كانوا يعتقدون أن عبادتهم للأصنام تقربهم إلى الله زلفى وهو الشرك⁽²⁾.

2. عبادة اليهود والنصارى:

لقد قدمت القبائل اليهودية إلى شبه الجزيرة العربية، واستقرت في المدينة المنورة، وذلك عندما هربت من الاضطهاد الروماني⁽³⁾.

وتركز اليهود في شمال الجزيرة العربية، في منطقة واسعة أطلق عليها «وادي القرى»، مركزها «يثرب» التي كانت محطة مهمة على طريق التجارة الكبير الممتد من الشام إلى اليمن عبر صحراء الحجاز. وكان بنو قريظة وبنو القينقاع وبنو النضير من أكبر قبائلهم، وخيبر من أعظم حصونهم. وعمل اليهود على نشر تعاليم التوراة في المناطق التي سكنوا فيها، فانتشرت اليهودية في جنوبي الجزيرة العربية، حيث اعتنقها الكثير من القبائل في اليمن، إضافة إلى المتهودين في الحجاز، مثل: بني عكرمة، وبني عمر، وبني عوف... وغيرهم.

وكانت النصرانية شبه معدومة في الحجاز، لولا وجود قليل في نجران استمر إلى ما بعد ظهور الإسلام، ولكنه لم يلعب دوراً مهماً في حقبة ظهور الإسلام.

(1) سورة سبأ، الآيتان 7 و 8.

(2) غالباً ما يكون الصنم والوثن على صورة إنسان، ويُعمل عادة من حجارة أو من خشب، أو ذهب أو فضة. ويروى في أخبار العرب أيام الجاهلية أن عمرو بن لحي، كبير خزاعة، عندما كان يتولى أمر البيت، سافر إلى الشام، وحمل معه منها الصنم (هيل) ووضعه على الكعبة. وكان أول صنم وضع عليها، ثم أتبعه بغيره. ولقد حفظ لنا تاريخ العرب في الجاهلية عدداً كبيراً من أسماء هذه الأصنام كما ورد ذكر بعض منها في القرآن الكريم: ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ أَلَدَّتْ وَالْعُرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَنْوَةَ الْقَالِقَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ (سورة النجم، الآيتان 19 و 20). وكانت قريش تعتبر اللات والعزى ومنات بنات الله ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ (سورة النجم، الآية 21). راجع: هاشم بن السائب الكلبي، كتاب الأصنام، نشر مكتبة كتيبة، إيران، 1364 هـ. لاط، ص 29، البعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ البعقوبي، دار صادر، بيروت، 1960 م، لاط، ج 1، ص 100.

(3) راجع: البستاني، المعلم بطريرس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ج 11، ص 659.

ثالثاً: العلوم والحياة الثقافية:

كانت علومهم مبنية على الحدس والتخمين، متوارثة عن مشايخ الحيّ وعجائزه. ولقد أوضح الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام مستواهم العلمي والثقافي، وأنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل، والحيرة، والضياع. قال عليه السلام: «بعثه والناس ضلال في حيرة، وخاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل»⁽¹⁾. وكانوا في أغليبتهم الساحقة أميين، لا يعرفون القراءة والكتابة أصلاً، إلا من شدّ منهم.

رابعاً: الحياة السياسية⁽²⁾:

لقد ولد في قلب الصحراء المئات من الأفخاذ والبطون والقبائل المتقاتلة المتناحرة، فنشأ بينها ما يُسمّى في مصطلحات اليوم «توازن في القوة»، فسيطر على شبه الجزيرة جوٌّ من توازن الرعب، فلا تستطيع قبيلة أن تحسم الأمر لمصلحتها وتنشئ سلطةً أمينةً مركزيةً، ولم تكن هناك سلطة مركزية حاكمة من خارج الإطار القبلي، بل انعدمت إمكانية ذلك في هكذا بيئة اجتماعية، وانعدمت بالتالي إمكانية قيام وحدة عسكرية سياسية تفرض نفسها على كل جزيرة العرب.

ويعتبر هذا من أعظم العناصر التاريخية التي أزالَت المانع أمام انتشار رسالة الإسلام. وقد رافق عدم قيام سلطة مركزية في جزيرة العرب قيام سلطتين مركزيتين من أكبر السلطات في التاريخ، ألا وهما: فارس وبيزنطة، اللتان وقفتا عند تخوم جزيرة العرب، فلم تدخل تحت هيمنتها، إذ كانت الصحراء عنصراً دفاعياً طبيعياً يقف مانعاً في وجه أي محاولة لاقتحام الجزيرة. كل ذلك جعل هذه المنطقة الصحراوية مستقلةً وبعيدة عن التأثير السياسي للدول الكبرى.

(1) عبده، الشيخ محمد، شرح نهج البلاغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1412هـ ط1، الخطبة 91. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، مطبعة أمير، قم، 1413هـ ط1، ج1، ص154، مرتضى العامل، السيد جعفر، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، قم، إيران، دار الحديث، 1426هـ ط1، ج2، ص24.

(2) سيأتي في الدرس اللاحق بعض ملامح الحياة السياسية لقريش في عهد قصي بن كلاب وعبد المطلب.

خامساً: الحياة الاقتصاديّة:

كان أولاد عبد مناف أوّل من عقد لقريش صفقات تجاريّة مع الدول المجاورة. فقد أبرم هاشم اتّفاقاً مع بيزانس إمبراطور الروم في الشام، وأخذ عهداً من ملك الغساسنة للمتاجرة مع الشام، بينما عقد عبد شمس (الابن الآخر لعبد مناف) اتّفاقاً مشابهاً مع النجاشيّ الأكبر ملك الحبشة، ومضى نوفل (الابن الثالث لعبد مناف) إلى بلاد فارس، فوقع مع خسروان إمبراطور الفرس عقداً تجاريّاً، في الوقت الذي اختار فيه مُطلب (وهو الابن الرابع لعبد مناف) الدولة الحميريّة بصفقتها طرفاً تجاريّاً يتعامل معه، فأبرم مع ملكها «أبرهة» معاهدة تجاريّة مماثلة للمعاهدات التي عقدها إخوته الثلاثة؛ وتتضمّن رواية الطبري لهذه القصة نقطة مهمّة؛ حيث قال: «فانتشروا من الحرم»؛ أي خرجوا من مكّة وانطلقوا منها إلى الخارج. وهكذا ساهمت زعامة بني عبد مناف الأربعة⁽¹⁾ في ظهور نظام «الإيلاف»، محور الحياة السياسيّة والاقتصاديّة في مكّة⁽²⁾.

(1) وهم: هاشم، عبد شمس، نوفل، المطلب. راجع: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلّاء، دار الأعلمي، بيروت، لبنان، 1983، ط 4، ج 2، ص 12.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 180. المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب، نشر دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1965، ط 1، ج 1، ص 193، وج 2، ص 33. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1974م، ط 1، ج 1، ص 26 و 38 و 59.

المفاهيم الرئيسية

- يقع شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قارة آسيا، وينقسم إلى أقاليم ومناطق جغرافية مختلفة، من أبرزها: سهل تهامة، الحجاز، هضبة نجد، اليمن، صحراء الربع الخالي.
- الجاهلية اسم مستحدث ظهر بظهور الإسلام، ويطلق على حال العرب قبل الإسلام؛ تمييزاً وتفريقاً عن الحال التي صار عليها العرب بظهور الإسلام، وقد استخدمه القرآن في آيات عدة.
- لقد تنوعت الحياة الاجتماعية عند العرب، وكان من أبرزها: النظام القبلي الذي كان يحكم كل النظام العائلي والسياسي والاجتماعي عند العرب، وبرزت لديهم حالة التعصب، وإنشاء التحالفات.
- شاعت بين العرب عبادة الأصنام والجن والكواكب على نحو الشرك، ولم يقض ذلك على الاعتقاد بالصانع والخالق، فكانوا يعبدونها بنحو تقربهم إلى الله زلفى.
- كان في شبه الجزيرة العربية بعض الأديان السماوية الأخرى؛ كاليهودية التي كانت متمركزة في يثرب، والنصرانية التي سكنت في بلاد نجران.
- كانت علومهم مبنية على الحدس والتخمين، وكانوا يعيشون حالة الجهل والضياع.
- لم يكن في وسط شبه الجزيرة العربية سلطة مركزية تتحكم في مقاليد بلاد الحجاز، بل إن النظام القبلي السائد ساعد كثيراً على تحكم النظام القبلي بمقاليد الحكم السياسي في المنطقة.
- لقد كانت قريش تتمتع بقدرة اقتصادية قوية؛ فقد عقد أبناء عبد مناف صفقات تجارية مع القبائل والدول المجاورة، من خلال تأمين طرق التجارة، ونقل البضائع شمالاً وجنوباً، حتى بات لهم تجارة تُعرف برحلة الشتاء والصيف.

الدرس الثاني

قبيلة قريش الندشاة والهوية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعدّد أقسام العرب.
2. يعرف مكانة قبيلة قريش وظروف ظهورها.
3. يشرح أعمال قصي في مكة.
4. يتعرّف إلى أسباب ونتائج حملة أبرهة على مكة.

تمهيد

نشأت قريش في وسط شبه الجزيرة العربيّة، وكانت من أشهر القبائل العربيّة وأعلاها منزلة. وترجع هذه القبيلة في نسبها إلى عرب الشمال إلى نبيّ الله إسماعيل عليه السلام عن طريق حفيده عدنان، ويتحدّر النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله من هذه القبيلة العربيّة. بعد أن تأسست هذه القبيلة شكّلت لنفسها كياناً سياسياً استمرّ حتّى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد لعبت قريش دوراً محورياً في الحياة السياسيّة والدينيّة في مكّة المكرّمة، وممّا أعطاهما هذه الميّزة سكنها بجوار البيت العتيق، إذ إنّ العرب كانوا يعظّمون البيت، ويحترمون جيرانه وخدامه. وقد امتازت بذلك قريش عن غيرها من سائر العرب؛ لأنّها تحصّنت بجواره.

أقسام العرب

1. العرب الجنوبيّون أو القحطانيّون:

هم الذين سكنوا اليمن وحضرموت، فأسسوا المدن والحضارات. ويطلق عليهم مصطلح «العرب العاربة»، وهم العرب الأصليّون، أولاد يعرب بن قحطان. والقبائل القحطانيّة، هي ما عُرفت في التاريخ بالقبائل اليمنيّة التي هاجرت من اليمن إلى الشمال، وأشهرها وأكبرها قبيلة قضاة⁽¹⁾ وبطونها⁽²⁾.

(1) يرى بعض المؤرّخين أنّها تنسب إلى حمير بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد، راجع: يعقوبي، تاريخ يعقوبيّ، ج2، ص201.

(2) نهد، جهينة، عذرة، سليح، كلب، القين، تنوخ، راجع: يعقوبي، تاريخ يعقوبيّ، ج1، ص202، 203، القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1407هـ، ط1، ج1، ص316.

2. العرب الشماليون أو العدنانيون:

أي العرب المستعربة، وهم من غير الأصل العربي، بل استعربوا، وجدّهم هو إسماعيل ابن النبي إبراهيم الذي سكن مكة مع أمه هاجر، ثم تزوج من قبيلة جرهم، ثم تناسلت ذريته إلى أفخاذ وقبائل وبطن سكنت كلها في شمال شبه الجزيرة العربية، في الحجاز ونجد.

وعدنان هو أحد أحفاد إسماعيل⁽¹⁾، ومن ثمّ يتصل بحفيد آخر هو نزار؛ حيث تفرّعت منهما مجموعتان كبيرتان، هما:

المجموعة الأولى: تنتسب إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهذه المجموعة من أكبر القبائل العدنانية، وتتصدرها كنانة⁽²⁾ التي نزلت في أطراف مكة، وإليها تنتسب قبيلة قريش؛ حيث ترجع إلى نضر بن كنانة⁽³⁾، وهو الجد الثاني عشر من أجداد النبي الأكرم ﷺ. وقد تجمّع وتظاهر وتشكّل جمعهم في زمان فهر بن مالك بن النضر، وهو الجد العاشر، ثم بعده حصل تفرّق القبائل في ما بينهم. ويرجع نسب الرسول ﷺ وأهل البيت ، وكذلك خلفاء بني أمية، وبني العباس، وأكثر زعماء المسلمين في صدر الإسلام، إلى بطون قبيلة قريش.

المجموعة الثانية: ربيعة، وتنتسب إلى ربيعة بن نزار، وأشهر بطونها عنزة⁽⁴⁾، وعبد القيس⁽⁵⁾.

(1) يقول بعض النسابين إنّ عشرين أباً بين إسماعيل وحفيده عدنان. وآخر يجعلهم أربعين، راجع: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، ص222، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، لا، ط4، ج2، ص298.

(2) كنانة بن مدركة بن إلياس بن مضر، راجع: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص188.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص189.

(4) عنزة بن أسد بن ربيع، راجع: البلاذري، أنساب الأشراف ج1 ص20. الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1 ص482.

(5) عبد القيس بن قصي بن دعيمي بن جديلة بن أسد، راجع: ابن حزم، علي أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص278.

ظهور قبيلة قريش

كانت قبيلة جرهم قد جاءت إلى مكة مع قبيلة قطورا من اليمن، بعد أن تدرّجت مكة، وأصبحت مدينة كبيرة، وتكاثر أولاد إسماعيل. ويبدو أن أهل مكة لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالتجارة، ويبدو أن هؤلاء الزوّار الذين كانوا يتوافدون إلى مكة بهدف الزيارة وتأدية المراسم العبادية المتبعة، كانوا في الوقت نفسه يقدمون بعض الأموال والهدايا إلى الكعبة، فكانت هذه الأموال سبباً جوهرياً في وقوع النزاع بين هاتين القبيلتين، فكل واحدة تريد السيطرة والاستئثار بالمنافع، وحُسمت نتيجة الصراع لصالح جرهم⁽¹⁾. وبعد أن سيطرت جرهم على مكة، لم تبادر إلى طرد أبناء إسماعيل من هذه المنطقة، بل قامت بتوثيق العلاقات معهم، وإيجاد الصلات المختلفة التي من شأنها أن تشدّهم وتقارب في ما بينهم، وقد عمدوا إلى إبرام معاهدة صلح معهم، والتزم الفريقان بموجبها بحفظ حرمة المدينة.

في هذا الوقت، كانت حالة أولاد إسماعيل قد تدهورت، فتحولوا من حاكمين لهذه البلدة إلى محكومين فيها؛ حيث كانت جرهم تبدو أقلّ عدداً، وقد استأثرت بجميع الموارد لنفسها، وعاشت حياة مترفة دبّ فيها الفساد والتهمّك، وزيادة الإتاوات المالية المفروضة على الزوّار، وبيع بعض الحليّ والهدايا الثمينة التي كانت توضع في الكعبة⁽²⁾. ثمّ بدأت الاعتراضات تُثار عليها من قبيلة خزاعة⁽³⁾، فحشدت حولها المعارضين، وفي مقدّماتهم قبيلة بكر بن عبد مناة، وانضمّ إليها كذلك أولاد إسماعيل الذين ضاقوا ذرعاً بتصرفات «جرهم»، فاستطاعت خزاعة أن تهزم جرهم، وأن تحلّ محلّها، وأن تسيطر على الموارد الكبيرة التي كانت تأتيهم دونما عناء⁽⁴⁾.

(1) ابن هشام، الحميري، السيرة النبوية، محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر، 1963، لاط، ج1، ص73.

(2) ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1300هـ، ط2، ج6، ص286.

(3) إحدى القبائل اليمنية التي هاجرت إلى مكة وسكنت فيها.

(4) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص10.

كانت السلطة تنتقل في خزاعة بالوراثة إلى أن وصلت إلى آخر زعيم لهم، وهو حليل بن حبشية. ويبدو أن هذا الرجل لم يُنجب سوى الإناث، وكانت «حبي» إحدى بناته، قد تزوجها قصي بن كلاب⁽¹⁾، فجعل حليل سدانة البيت إلى أحد بني خزاعة، وكان سكيماً يقال له أبو غبشان، فاشتراها قصي منه بزق خمر، أو عبر وصية له من عمه⁽²⁾. وهكذا، بعد أن خضعت مكة بضعة قرون لنفوذ القبائل اليمينية المهاجرة، استأثر بنو إسماعيل بقيادة قصي، في أعقاب القضاء على سيطرة «خزاعة»، آخر هذه القبائل⁽³⁾.

مكانة قريش بين العرب

أكسبت سدانة قريش البيت العتيق شرفاً ومكانة. وكانت قريش من نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فمنحها اتصال نسبها بهما نفوذاً وخطراً عند العرب الذين يعتبرون الأنساب مصدر شرف وسؤدد؛ لأنهم يتعرضون للغارات والسبي، الأمر الذي جعل لديهم حساسية خاصة تجاه هذا الأمر. ولأن قريشاً كانت تحمي أداء شعائر الحج التي هي من بقايا الحنيفية، فقد أصبح الناس ينظرون إلى قريش نظرة فيها الكثير من الاحترام والتقدير والإكبار. كل ذلك جعل العرب يعتبرون مكة حرماً يأمن من لجأ إليه، حتى أن أحدهم قد يلتقي فيها بقاتل ولده، أو أبيه، فلا يؤذيه، ولا يستطيع أن يثار منه. وبعدها أصبحت السدانة للبيت بيد قريش، اكتسبت بذلك مكانة ونفوذاً واحتراماً وتقديساً وإكباراً في نفوس العرب. كما اكتسبت قوة في الاقتصاد والتجارة. فوفر وجود الكعبة بكل قداساتها لدى القبائل العربية في شبه الجزيرة لقريش زعامة روحية واحتراماً بين قبائل العرب قاطبة. ثم جاءت واقعة الفيل وفشل الهجوم العسكري الذي شنه أبرهة على مكة من أجل هدم الكعبة، فعززت هذه الواقعة من مكانة قريش وزعامتها الروحية، خاصة وأن مفاتيح الكعبة وسدانة البيت كانا بيد قبيلة قريش، والتي حصلت على ألقاب

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج2، 175.

(2) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ج1، ص239، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص205.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج1، ص49.

عديدة تنطوي على بعض القداسة من قبيل: «آل الله»، «جيران الله» و«سگان حرم الله. وهكذا وجدت قريش نفسها في موقع فريد بين القبائل العربية⁽¹⁾. وبسبب هذا الموقع الفريد لقريش، فقد سعت إلى تعزيز نفوذها وفرض سيطرتها على القبائل الأخرى⁽²⁾.

وبسبب تجارتها إلى الشام وإلى اليمن وإلى الخليج الفارسي، اكتسبت قريش علاقة خاصة بالزعامات السياسيّة المسيطرة على هذه البلدان؛ كالقيصرة والأكاسرة، فنجد أنّ هاشم بن عبد مناف ينادم قيصر، وأنّ أبا سفيان يقابل قيصر، وعلى علاقة خاصّة بأخيه ثيودوروس. وهكذا، تضافرت الأسباب والعوامل المساعدة، النسيبيّة والدينيّة، والسياسيّة والاقتصاديّة؛ لتجعل قريشاً سيّدة العرب بلا منازع، حتّى أنّ رسول الله ﷺ قال: «الناس تبع لقريش، برّهم تبع لبرّها، وفاجرهم تبع لفاجرها»⁽³⁾.

أعمال قصي في مكة

1. جمع ذرية إسماعيل، وإسكانهم حول الكعبة ونشوء قبيلة قريش:

لم تكن حول الكعبة المعظمة دُورٌ مشيّد، أو جدرٌ محيطة بالمسجد الحرام. فلمّا آل الأمر إلى قصي وأصبح هو سيّد مكة، ويده مفتاح الكعبة، جمع قومه من ذرية إسماعيل وأمرهم أن يبنوا في حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربع، وشكّلت إعادة تجمّعهم حدثاً تاريخياً، فسّموا هذا التجمع «تقرُّشاً».

(1) بيشواي، مهدي، تاريخ الإسلام، تعريب: خليل العصامي، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، قم، إيران، 2007م، ط1، ص52.

(2) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج1، ص72.

(3) ابن حزم، أبو محمد علي أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1403هـ ج7، ص988، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: لجنة من الأدباء، مطابع معتوق إخوان، بيروت، لبنان، لات، لاط، ص101.

2. تأسيس دار الندوة:

دار الندوة هي عبارة عن مكانٍ لاجتماع القوم، وقد أسَّسها قصيٌّ، وانتهى قريشاً للاجتماع فيها، فعرفت بـ «دار الندوة». وتعتبر أول نظام شبه تعاوني بين الفعاليات الأكثر نفوذاً في قريش، وفيها كانت تجتمع قريش للحكومة، والقضاء، والشورى، وتتخذ القرارات وتحدد المواقف، وتقضي أمورها، بما يعبر عن المصلحة المشتركة، إضافة إلى مسؤوليات أخرى، مما جعلها أداة منظمة للشؤون الحياتية المختلفة في مكة⁽¹⁾.

3. وضع الضرائب:

فرض قصيٌّ ضرائب مالية على الداخلين إلى مكة من غير أهلها، وكان يعشر من دخل إلى مكة سوى أهلها⁽²⁾.

4. مناصب الحج:

جعل قصيٌّ حراسة الكعبة وخدمتها والسهر عليها والوقوف على أبوابها مسؤوليته مستقلة، أسماها «الحجابه»، ثم أمر جماعة آخرين بالقيام بشؤون سقاية الحاج.

زعامة قريش بعد قصي بن كلاب

شاء قصيٌّ استمرار صيغة الحكم الوراثي في مكة مع أبنائه، مهيناً ابنه البكر «عبد الدار» زعيماً لمكة من بعده، فأسند إليه جميع هذه المناصب⁽³⁾، على الرغم مما كان يشار إليه من ضعف شخصيته، وتفوق إخوته عليه، لا سيما «عبد مناف» الذي اشتهر في حياة أبيه، وبدا أكثر جدارة بالزعامة من بعده⁽⁴⁾.

كان هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب جميعاً أبناء عبد مناف، وقد سيطروا على التجارة الخارجية. ولم يطل الوقت حتى قام هؤلاء الذين ورثوا نفوذ أبيهم وطموحه،

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج2، ص184، الأزرقى، محمد بن عبدالله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، نشر: انتشارات الشريف الرضي، قم، إيران، 1411 هـ، ط1، ج1، ص19.

(2) الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج1، ص82.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص136 - 137.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص184، البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج1، ص53.

بانقلابهم ضد بني عبد الدار، وانتزعوا منهم السلطة الفعلية، وذلك بزعامة كبيرهم عبد شمس؛ حيث تحوّلت الرفاة والسقاية في الحج إلى هاشم، ثم إلى ابنه عبد المطلب⁽¹⁾.

حكم عبد المطلب بن هاشم في مكة

اسمه شيبه بن هاشم، وكان حجّة، ومن أوصياء إبراهيم عليه السلام⁽²⁾. رفض عبد المطلب عبادة الأصنام⁽³⁾، ووحد الله تعالى⁽⁴⁾.

وقد بلغ عبد المطلب الحدّ الإيمانيّ الأعلى بعد ولادة حفيده محمد صلى الله عليه وآله؛ حيث سمع ورأى الكثير من العلامات الدالة على نبوته صلى الله عليه وآله بأمر عينيه، وشهد وعين الكثير من الكرامات والدلالات القطعية فيه.

وكانت قريش تستسقي بعبد المطلب، وكان يسمّى سيّد قريش⁽⁵⁾، وإبراهيم الثاني لإيمانه وأخلاقه، والتوفيق الإلهيّ له. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّ الله يبعث جدّي عبد المطلب أمة واحدة وعليه سيماء أو هيئة الأنبياء وزيّ أو هيئة الملوك»، «وأبّهة الأشراف»⁽⁶⁾.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج2، ص180.

(2) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الاعتقادات في دين الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص110، العلامة المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1983م، ط3، ج15، ص117، وج17، ص142، وج35، ص138.

(3) الحلبي، علي بن برهان، السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، لا.ط، ج1، ص7، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص41.

(4) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، لا.ط، ص313. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص10.

(5) السيرة النبوية والآثار المحمّدية، دحلان، ج1، ص23، تاريخ ابن الوردي، ج1، ص92.

(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص14، الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، 1363هـ ش، ط5، ج1، ص447، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن محمد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربية، 1959ط1، ج14، ص68.

مصير الرفاذة والسقاية بعد عبد المطلب

ولم يكن لعبد المطلب من الأولاد حينها سوى الحارث، فشرعا معاً في حفر البئر، ومثل هذا العمل لا يجد عادة التأييد المطلوب من الناس في مراحلهم الأولى، بسبب عدم اطمئنانهم إلى النتائج، ولم تشذ قريش عن هذه القاعدة، واكتفت تقريباً بموقف المتفرج. أما بعد أن عثر عبد المطلب على بعض النفائس التي كانت مخبأة هناك، فقد تغير ذلك الموقف تماماً، وأبدت قريش حماساً شديداً للمساهمة في مشروع الحفر. وبعد أن ادّعت شراكتها في تلك النفائس، وسّعت مطامعها، فطالبت بحصة خاصة لها في ماء البئر وفي موارده الأخرى، وقد ترك هذا الموقف آثاراً عكسية في نفس عبد المطلب، وأثار سخطه وامتعاضه.

وصارت الرفاذة بعد عبد المطلب لولده الزبير، ثم لـ «أبي طالب»⁽¹⁾، ولم يكن له مال، فاستدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم فأنفقها. فلما كان العام المقبل سألته أن يسلفه خمسة عشر ألف درهم، فقال له: «إنك لم تقض ما لي عليك، وأنا أعطيك ما سألت على أنك إن لم تُعد إليّ جميع مالي في قابل فأمر الرفاذة والسقاية إليّ دونك»، فأجابه إلى ذلك. فلما كان الموسم الثالث، ازداد أبو طالب عجزاً وضعفاً ولم يتمكن من النفقة، فصارت الرفاذة والسقاية إلى العباس، وأبرأ أبو طالب ممّا له عليه⁽²⁾.

حملة أبرهة

كانت الإمبراطورية الرومانية تسعى إلى فرض سيطرتها على سواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ لتأمين الطريق أمام القوافل التجارية العائدة إليها، وكانت تحاول ضمن هذا المسعى أن تجد لها موطئ قدم داخل شبه الجزيرة العربية. وقد شجعتها مسيحية ملك الحبشة على ذلك، ووجدت فيه فرصة مهمة لبسط النفوذ.

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 11.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج 1، ص 57.

استمرَّ حكم أبرهة لجنوب شبه الجزيرة العربيَّة مدَّة أربعين عامًّا تقريبًا. وكان أبرهة قد بلغ في حكمه لليمن من القوَّة والهيبة درجة جعلت أباطرة عصره يتسابقون لخطب ودّه والفوز برضاه، فكان سفراؤهم يتوافدون عليه الواحد بعد الآخر، وكان ذلك من الأمور التي سجَّلها أبرهة وتركها في تاريخه⁽¹⁾.

بعد أن استتبَّت الأمور لأبرهة في جنوب شبه الجزيرة العربيَّة، أخذ يفكِّر في غزو شمال شبه الجزيرة العربيَّة والحجاز لإخضاعها إلى سيطرته.

وكان أبرهة قد دأب منذ استيلائه على اليمن على نشر الديانة المسيحيَّة، فكان من أعماله بناء كنيسة في «صنعا» سمَّاها «القليس»، من أجل أن يحوَّل إليها أنظار سكاُن شبه الجزيرة العربيَّة جميعًا، ويجعلها كعبة جديدة لهم.

ولمَّا فرغ أبرهة من بنائها، أرسل إلى نجاشي الحبشة يقول: «إني قد بنيت لك أيَّها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتَّى أصرف إليها حاجَّ العرب»⁽²⁾. فلمَّا تحدَّث العرب بذلك كبر عليها، فأقدم رجلٌ من بني فقيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة على تدنيس القليس ببعض القاذورات، وبلغ أبرهة ذلك، فقال: «من صنع هذا؟»، ف قيل: «صنعه رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجَّ إليه العرب في مكَّة لما سمع من قولك: أصرف إليه حاجَّ العرب».

فغضب أبرهة غضبًا شديدًا، وأقسم ليسيرنَّ إلى البيت فيهدمه، وجَهَّز جيشه وأعدَّ نفسه إعدادًا جيّدًا للقيام بهذه الحملة، وسار أبرهة إلى مكَّة على رأس جيش كبير من الأحباش، تتقدَّمهم الفيلة.

ولمَّا اقترب أبرهة من مكَّة، كان جلُّ قريش قد خرجوا إلى الجبال، فاستولى أبرهة على أموال وممتلكات قريش، وأصاب مئتي بعير لعبد المطلب، فلمَّا أتاه عبد المطلب، عظَّمه أبرهة وهابه وأجلَّه وقال له: «سلني يا عبد المطلب»، فأبى أن يسأله إلاَّ إبلاَّ له،

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ج3، ص 483 فما بعد.
 (2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج1 ص550، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، كتاب الأصنام، ص47، الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1997م، لاط، ج4، ص449.

فأمر بردّها عليه، ثمّ قال أبرهة لترجمانه: «قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثمّ زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه؟! ألا تسألني الرجوع؟»، فقال عبد المطلب: «أنا ربّ هذه الإبل، وللبيت ربّ سيمنعه منك»⁽¹⁾.

ثمّ عاد عبد المطلب إلى مكّة، وأقام في الحرم، وقال: «والله لا أبرح من حرم الله، أبتغي العزّ في غيره، ولا أعوذ بغير الله». فجلس عند البيت قائلاً: «اللهم إنّ المرءَ يمنعُ رحلَهُ فامنع حلالك». وقال: «لا يصل إلى هدم البيت؛ لأنّ لهذا البيت ربّاً يحميه ويحفظه»⁽²⁾. ولما تهيأ أبرهة للهجوم على مكّة، وأمر جيشه بالهجوم لهدم البيت، برك الفيل في المغمس⁽³⁾، وضربوه فأبى، وكانوا كلما وجهوه إلى اليمن وإلى باقي الجهات يتوجّه، إلا أنّهم كلّما وجهوه نحو مكّة كان يبرك.

ثمّ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أمثال الخطاطيف، مع كلّ طير منها ثلاثة أحجار، فقدفتهم بها، لا تصيب أحداً منهم إلاّ هلك، وخرج من سلم مع أبرهة هارباً يتدرون الطريق الذي جاؤوا منه، وكانوا يتساقطون خلال خروجهم، وأصيب أبرهة في جسده، فقدموا به إلى صنعاء، فما مات حتّى انصدع صدره⁽⁴⁾.

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصدر سابق، ج1، ص220.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص33، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، ص253، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص554.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص188.

(4) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، 1966م، لا.ط، ج1، ص343، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1 ص77.

المفاهيم الرئيسية

- قسّم العلماء العرب إلى قسمين، الأول: العرب الجنوبيون؛ وهم الذين سكنوا بلاد اليمن، ويطلق عليهم العرب القحطانيون والعرب العاربة، وهم أبناء يعرب بن قحطان، والقسم الثاني العرب الشماليون؛ وهم العرب المستعربة؛ أي من غير الأصل العربي، وجدّهم هو نبي الله إسماعيل عليه السلام.
- من أهم فروع أبناء نبي الله إسماعيل عليه السلام حفيده عدنان، الذي يُنسب إليه العدنانيون، ثم يتصل بحفيد آخر هو نزار، والذي يتفرّع منه مضر، وهو من أكبر القبائل العربية، والذي يتحدّر منه كنانة الذي تنسب إليه قبيلة قريش، ويتفرّع منه مجموعة أخرى، وهي ربيعة وبطونها الأخرى.
- بعد مجيء قبيلة جرهم وقطورا من بلاد اليمن إلى مكة، سيطرت هذه القبيلة على مقاليد الحكم في مكة، ثم تحولت إلى عامل زعزعة لهذا الاستقرار، فانتقل الحكم إلى قبيلة خزاعة، والتي تناقلت إدارة مكة في ما بينها بعامل الوراثة.
- وصلت مقاليد الحكم إلى قصي بن كلاب، الذي استطاع أن يعيد مقاليد الحكم إلى أبناء إسماعيل عليه السلام، وأرجع الزعامة المفقودة منهم، وسيطر على إدارة مكة.
- بعد أن تسلّم قصي بن كلاب مقاليد الحكم قام بأعمال عدّة، وهي أنه: جمع ذرية إسماعيل عليه السلام، أسّس دار الندوة، وضع الضرائب، استحدث مناصب الحجّ.
- استمرّت الولاية على مكة المكرّمة بعد قصي في أبنائه، وذلك عبر الوصية بالحكم، حيث أوصى إلى ابنه عبد الدار، ثم انتقلت الزعامة إلى أبناء أخيه عبد مناف، الذين سيطروا على مقاليد الحكم.
- بعد انتقال الزعامة السياسية إلى أبناء عبد مناف استمرّت الرفادة والسقاية في أبنائه: هاشم ثم عبد المطلب، ثم حفيده أبو طالب.
- تعرّضت الكعبة لمحاولة هدم من قبل أبرهة، الذي فشل في محاولته، بقدرة الله سبحانه وتعالى، عندما أرسل تعالى على جيشه طيورا أبابيل.

الدرس الثالث

النبي محمد بن عبد الله (الولادة والنشأة)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف تاريخ وظروف ولادة النبي ﷺ ومراحل طفولته.
2. يشرح نشاط النبي ﷺ ودوره في فترة شبابه.
3. يتعرف إلى زواج النبي ﷺ من خديجة عاتكة بنت أبي لهب.

تمهيد

تعتبر الشخصية النبوية من أهم الشخصيات التي مرت على التاريخ البشري، وذلك نظراً لخصوصيات عدة امتازت بها هذه الشخصية الكريمة، بدءاً من النسب الكريم، مروراً بحياته قبل نبوته، حتى وصوله إلى مرحلة النبوة الخالدة.

وقد نشأ رسول الله ﷺ في مجتمع جاهلي على كل المستويات. وعلى الرغم من ذلك، كانت شخصيته متميزة وبارزة، وقد خالفت كل أنماط الحياة في ذاك المجتمع الجاهلي، واتسمت شخصيته المباركة في مكة المكرمة برجاحة العقل، وحسن السيرة، وعلو الأخلاق الفاضلة، حتى لقب بـ«الصادق الأمين».

وكان رسول الله ﷺ شخصية فاعلة على المستوى الاجتماعي؛ فقد عمل في التجارة، ثم انتقل إلى الحياة الزوجية وكون أسرة كريمة، والتي تعتبر منارة للأسر الإسلامية.

النسب الشريف

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، شيبه الحمد، ابن هاشم، والذي ينتهي نسبه الشريف إلى نبي الله إسماعيل عليه السلام ابن نبي الله إبراهيم⁽¹⁾.

وقد كان جميع آبائه موحدين مؤمنين على دين الحنيفية الإبراهيمية، بل كان فيهم

(1) هو أبو القاسم محمد ﷺ، بن عبد الله، بن عبد المطلب، شيبه الحمد، ابن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن نضر، بن كنانة، بن خزيمه، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

الصدّيقون من أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين⁽¹⁾، وفقاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرْتَلِكُ حَيْثُ تَقُومُ ﴿٧٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾⁽²⁾، ووفقاً للرواية المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: «ما زال الله ينقله من نبيّ إلى نبيّ حتّى أخرجه من صلب أبيه عبد الله»⁽³⁾. وأمّا أمّه فهي آمنه بنت وهب بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب. وقد كانت مسلمة⁽⁴⁾.

ولادته عليه السلام

ولد خاتم النبيين عليه السلام بعد 571 عاماً على ميلاد عيسى ابن مريم عليها السلام، في عام الفيل. وكانت ولادته بعد هجوم جيش الفيل بخمسين ليلة، في مكة المكرمة، في منزل أبيه عبد الله بن عبد المطلب، في شعب بني هاشم أو شعب أبي طالب، قبل وفاة أبيه بشهرين، والمشهور أنّه ولد يوم الجمعة في السابع عشر من شهر ربيع الأول. صاحب ولادته حوادث مختلفة في السماء والأرض، وخاصّة في الشرق الذي كان مهد حضارة ذلك العصر، لتنبئ عن وليد جديد سوف يحطّم طواغيت عصره، ويقضي على كلّ تلك العادات والسنن البالية؛ ليقم على أنقاضها أسس التقدّم والرفق البشريّ. فاضطرب إيوان كسرى أنو شيروان في تلك الليلة؛ حيث سقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته، وكانت الأنظار مشدودة إلى ذلك الإيوان، وإلى صاحبه في ذلك الزمان، حيث كانت ترى فيه مثلاً أعلى للقدره والسلطان الذي لا يزول⁽⁵⁾.

(1) الشيخ المفيد، محمد بن محمد، أوائل المقالات، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص12، الشيخ الصدوق، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص67، الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث، العربي، لات، ط3، ج24، ص173، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج15، ص117، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص281.

(2) سورة الشعراء، الآيتان 218 - 219.

(3) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1403هـ لاط، ص483 الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، لات، لاط، ج2، ص23.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج15، ص117، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج2، ص75.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص440، الشيخ الصدوق، محمد بن علي، كمال الدين وتام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1405هـ لاط، ص192، الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة، قم، إيران، 1417هـ ط1، ص158، ص171، ص356، ص361، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج2، ص8، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج2، ص142.

رضاعه

كان أشرف مكة قد اعتادوا على تسليم أطفالهم إلى المراضع اللواتي كنَّ يسكنن البادية. وكانت أمه قد أرضعته أياماً قبل أن تأتي حليلة السعدية لأخذه، بعد أن اختارتها أمّنة عليها السلام على غيرها⁽¹⁾. ويبدو أنها تركت الكلمة الأخيرة والقرار في ذلك لجده عبد المطلب؛ لأنه يقوم مقام أبيه، فأحالتها عليه. دخلت عليه حليلة وهو جالس بالصفاء، وكان له سرير منصوب عند الكعبة يجلس عليه للقضاء بين الناس، فلما أتته قالت له: «نعمت صباحاً أيها السيد»، فقال لها: «من أين أنت أيّتها المرأة؟»، قالت: «من بني سعد. أتينا نطلب رضيعاً نتعيّش من أجرته، وقد أرشدت إليك». فقال: «نعم، عندي ولد لم تلد النساء مثله أبداً، غير أنّه يتيم من أبيه، وأنا جدّه أقوم مقام أبيه، فإن أردت أن ترضعيه دفعته إليك، وأعطيتك كفايتك»⁽²⁾، فسرت حليلة، وتسلمته من أمه، وانطلقت إلى ديارها⁽³⁾.

وفي تلك السنة، كان القحط قد أصاب بني سعد، ومسهم الضرّ والشقاء، ولكن ما إن وصل محمد عليه السلام إلى تلك الديار حتّى بدأت البركة والخير يغمران منزل حليلة، فقد سمت أغنامها بعد الهزال، وزاد لبنها بعد النضوب⁽⁴⁾.

وحين أبصر نور مكة لم يبصر أباه عبد الله، ثمّ شاء الله سبحانه أن يعوّضه عن حنان الأمومة حنانه ورعايته الفريدة، وأن تتوفى أمّنة وهو لم يتجاوز السادسة من عمره الشريف عندما كان يصحبها في سفر إلى يثرب؛ لزيارة أخواله بني عديّ بن النجار ليتعرّف إليهم. فقد مرضت وتوفيت في طريق العودة إلى مكة في قرية تدعى «الأبواء»، فبقي رسول الله عليه السلام يتيماً لا أب له ولا أمّ، فاحتضنته أم أيمن، وسلّمته إلى جده عبد المطلب.

(1) جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب، طبع في حيدرآباد الدكن، الهند، نشر: دار الكتاب العربي، 1320، لا.ط، ج1، ص57، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج15، ص264.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج15، ص373، 385.

(3) ابن سعد الطبقات الكبرى، ج1، ص111، المقرئ، أحمد بن علي، إمتاع الأسماع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999م، ط1، ج4، ص88.

(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص10، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص573، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج2، ص147.

كفالة أبي طالب للنبي ﷺ

بقي هذا حاله حتى أدركت عبد المطلب الوفاة، ومحمد ﷺ عمره ثماني سنين، فبعث إلى أبي طالب، وقال له: «يا أبا طالب، انظر أن تكون حافظًا لهذا الوحيد...، يا أبا طالب، إن أدركت أيامه؛ فاعلم أنني كنت من أبصر الناس وأعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بلسانك ويدك ومالك؛ فإنه والله سيسودكم، ويملك ما لم يملك أحدٌ من بني آبائي...»، فكفله أبو طالب.

كان أبو طالب يضمّه إلى نفسه، لا يفارقه ساعة من ليل ولا نهار، وكان ينام معه حتى لا يأتّم عليه أحدًا⁽¹⁾. أضف إلى ذلك أن أبا طالب كان أنبل إخوته وأكرمهم، وأعظمهم مكانة في قريش. فنشأ النبي ﷺ عزيزًا مكرمًا في بيت عمّه أبي طالب، وكانت فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب (أمّ الإمام عليّ) تفيض عليه من حبّها وحنانها⁽²⁾.

فترة شبابه

1. رحلته إلى الشام:

وافق خاتم النبيّين عمّه أبا طالب في رحلة تجاريّة إلى الشام. وكان أبو طالب من أهل التجارة والثروة⁽³⁾، وقد بلغ آنذاك الثانية عشرة. ولدى وصول القافلة إلى مدينة بصرى، نزلوا قريبًا منها، فدعاهم إلى الطعام راهبٌ يدعى «بحيرى»، فرأى النبيّ ﷺ، وبعد أن دار حوار بينهما، أخبر الراهب عمّه أنه نبيّ هذه الأمة، وأصرّ عليه أن يرجعه إلى مكّة⁽⁴⁾.

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ص171، 172.

(2) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، تحقيق ونشر: مؤسسة البعثة، قم، إيران، 1417هـ ط1، ص391، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص241، البيهقي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص14، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج2، ص174.

(3) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ج1 ص33.

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص121، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج2، ص174.

2. النبي ﷺ في حلف الفضول:

لم يتردد النبي ﷺ وأبو طالب والهاشميون في الاستجابة إلى تجديد حلف المطيبين. فبعد منصرف قريش من حرب الفجار، دعا الزبير بن عبد المطلب إلى حلف الفضول، وعقد الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان، وغمسوا أيديهم في ماء زمزم، وتحالفوا وتعاهدوا على نصره المظلوم، والتأسي بالمعاش، والنهي عن المنكر، والمتحالفون على ذلك هم بطون هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة، وتيم⁽¹⁾. وقد كان من أهم دوافعه العامل الفطري والإنساني. ولذلك أثنى عليه خاتم النبيين ﷺ بعد نبوته، وأمضاه. وقد روي أنه ﷺ قال بعد أن استقرت دولته في المدينة، وأصبحت عزيزة الجانب: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت»⁽²⁾.

3. خاتم النبيين ووضع الحجر الأسود:

بعد غزوة أبرهة في عام الفيل بخمس وثلاثين سنة، جاء الكعبة سيل جارف تجاوز الردم، والذي كان قد وضع ليمنع من مثل ذلك، فدخلها وصدع جدرانها. فاتفقت قريش على هدمها، وإعادة بنائها، وأعدوا لذلك نفقة طيبة، ليس فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة مما أخذوه غصبا، أو قطعوا فيه رحما، أو انتهكوا فيه حرمة، أو ذمة⁽³⁾. وبدأت كل قبيلة تجمع الحجارة على حدة، ويقولون إن النبي ﷺ قد شارك في جمع الحجارة. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، وقع بينهم الخصام، فإذا كل بطن يريد أن ينال شرف رفعه إلى موضعه، وكاد أن يؤدي الأمر بهم إلى السيف، حتى تواعدوا بالقتال⁽⁴⁾.

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص129، مصعب بن عبيد الله الزبيري، نسب قريش، دار المعارف، مصر، 1953م، ص383، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص293.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1 ص142، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص291-293، دحلان، أحمد زيني، السيرة النبوية والآثار المحمدية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط، ج1، ص53، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، دار إحياء التراث، لا، لا، ج16، ص66.

(3) المصدر نفسه، ج1، ص206، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص301.

(4) المصدر نفسه، ج1، ص209، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص129.

ثم اجتمعوا في المسجد، فتشاوروا واتَّفَقوا على أن يكون أول داخل على الاجتماع هو الحكم بينهم. وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون النبي أول داخل. فلما رأوه قالوا: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمد». وقد كانوا يتحاكمون إليه ﷺ في الجاهلية؛ لأنه كان لا يداري، ولا يماري⁽¹⁾.

فلما أخبروه بالأمر طلب ثوباً، أو بسط إزاره، ثم أخذ الحجر، وضعه فيه بيده، ثم طلب منهم أن يأخذ كلٌّ منهم بناحية من الثوب، ثم رفعوه جميعاً، ففعلوا، فلما حاذوا موضعه أخذه رسول الله ﷺ بيده، فوضعه مكانه⁽²⁾.

4. تجارته مع السيدة خديجة بنت خويلد:

أصبح محمد ﷺ شاباً، وأخذ اسمه يحتلّ مكاناً مرموقاً في أوساط قريش، فعُرف بصدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق. وفي السنة الخامسة والعشرين، كانت قافلة قريش التجارية تتهيأ للسفر إلى الشام، فاتّصلت خديجة بنت خويلد برسول الله ﷺ، وعرضت عليه أن يضاربها في تجارتها، فقبل. فاستدعت غلامها ميسرة، وأمرته أن يلازم محمدًا ﷺ، ويقوم على خدمته.

ثم إنَّ هذه الرحلة كانت عميمة الخير والبركة من جوانب عديدة، فهي قد درّت ربحاً وفيراً على النبي ﷺ وخديجة، وأظهرت شخصيته بصورة أجلى عند زملاء السفر من قريش⁽³⁾.

(1) الحلبي، السيرة الحلبية، مصدر سابق، ج1، ص145.

(2) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، الناشر: المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1956م، لا.ط، ج2، ص278، السيد ابن طاووس، علي بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قم، إيران، 1399هـ ط1، ص16، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص204.

(3) الطبراني، سليمان بن أحمد، كتاب الأوائل، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، لبنان، 1403هـ ط1، ج1، ص161، وقيل في السنة السابعة والثلاثين، راجع: الهيتمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، دار الكتاب، بيروت، لبنان، 1967، ط1، ج9، ص219.

زواج خاتم النبيين ﷺ

لقد كانت رحلة النبي ﷺ في تجارته مع خديجة إحدى مقدمات الزواج الميمون، ولكن لم يكن من السهل على خديجة أن تصارح النبي ﷺ بذلك، مع ما هي عليه من الشخصية المتينة، والمكانة المحترمة بين نساء قريش. فبعثت صديقتها وصاحبة سرها نفيسة بنت منية إليه؛ لتبحث معه حول موضوع الزواج، وتنظر رأيه في ذلك. فأجابها محمد ﷺ: «ليس عندي ما أتزوج به». قالت: «فإن كُفيت ذلك...، ألا تجيب؟». فأشارت عليه بخديجة بنت خويلد التي أرسلت معها أن تقول له: «إنِّي قد رغبت فيك لقرابتك، وشرفك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك وصدق حديثك». وكانت خديجة يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل شخص من قومها كان حريصاً على خطبتها لو قدر على ذلك⁽¹⁾.

وقد تقدّم رسول الله للزواج منها، فخرج معه عمّه أبو طالب ﷺ من أهل بيته ونفر من قريش، إلى عمّها عمرو بن أسد؛ لأنّ أباه خويلد بن أسد كان قد قُتل في حرب الفجار، وقيل إنّّه كان حيّاً، وإنّ أبا طالب دخل عليه؛ فخطب ابنته لابن أخيه، فوافق الأب، وتمّ الزواج المبارك.

وقد خطب أبو طالب، فقال: «الحمد لله ربّ هذا البيت الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معدّ⁽²⁾، وجعلنا حفظة بيته وسؤاس حرّمه⁽³⁾، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه، ثمّ إنّ ابن أخي هذا محمّداً بن عبد الله لا يوزن به رجل من قريش إلّا رجّح به، ولا يقاس به رجل إلّا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان في المال قلّ؛ فإنّ المال رفدٌ جارٍ، وظلٌّ زائل، وأمّرٌ حائل، ومحمّد من عرفتم قرابته، قد خطب خديجة بنت خويلد، والمهر عليّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله، وهو، والله، بعد هذا

(1) هارون، عبد السلام، تهذيب سيرة ابن هشام، ص37.

(2) أي معدنه، وأصله.

(3) أي القائمين بخدمته.

له نبأ عظيم، ودين شائع، ورأي كامل، وخطر جليل جسيم»⁽¹⁾.
ولكنّ خديجة عادت، فضمنت المهر في مالها، فقال بعض الناس: «يا عجباً! المهر على النساء للرجال؟!». فغضب أبو طالب، وقال: «إذا كانوا مثل ابن أخي هذا، طُلبت الرجال بأغلى الأثمان، وأعظم المهر، وإن كانوا أمثالكم لم يزوّجوا إلا بالمهر الغالي»⁽²⁾.
وقيل إنّ رسول الله ﷺ نفسه قد أمهرها عشرين بكرة⁽³⁾، ولعلّ ذلك كان بواسطة أبي طالب.

وكان عمر السيدة خديجة عَلَيْهَا السَّلَامُ خمسة وعشرين سنة، وكانت لا تزال بكرًا، ولعلّها بقيت كذلك لسؤددها وشرفها؛ ولأنّها لم تجد كفؤًا لها في قريش حتى عرفت النبيّ ﷺ. ولو قارنا هذا الموقف للسيدة خديجة بنت خويلد بموقف أبناء جحش، لوجدنا زينب وحمنة وأخاها، يغضبون حين عرض عليهم النبيّ ﷺ تزويج زينب بن يزيد بن حارثة، معتبرين أنّ ذلك يحطّ من شأنهم، وسُمعت زينب بنت جحش، وهي تقول: «أنا سيّدة أبناء عبد شمس»⁽⁴⁾. وفي بعض الروايات، أنّها قالت لرسول الله ﷺ عن زيد: «لا أرضاه، وأنا أيم قريش»⁽⁵⁾.

وزينت بنت جحش هي قرشيّة عاديّة من بطون قريش ومع هذا رفضت أن تتزوّج من أعرابي، وهذا ما يؤكّد الاستغراب ممّا يزعمونه من أنّ خديجة كانت متزوّجة قبل رسول الله ﷺ برجلين من أعراب بني تميم، مع أنّها كانت أعظم قدرًا وأشرف نسبًا، وأجلّ موقعًا من زينب بنت جحش. فكيف رضيت هذه المرأة الشريفة العاقلة، والتي

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج5، ص374، الشيخ الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم، إيران، لات، ط2، ص413، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص20.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج5، ص375.

(3) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج1، ص201، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، السيرة النبويّة، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1976م، لاط، ج1، ص263، دحلان، السيرة النبويّة والآثار المحمّديّة، ج1، ص107.

(4) محب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله، السمط الثمين، حلب، سوريا، ت، وط، ص129.

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ج8، ص101.

كان كلُّ أشرف وأمرء قريش حريصين على الزواج منها⁽¹⁾، بأن تتركهم جميعاً، ثم تختار أعرابياً مجهولاً من بني تميم، ليكون زوجاً لها، وأباً لأولادها؟! ورزق رسول الله من هذا الزواج ثلاثة أولاد؛ ابنان هما القاسم والطاهر اللذان ماتا في مكة قبل البعثة، وهما طفلان، وابنة واحدة هي فاطمة عليها السلام، وأمّا زينب ورقية وأمّ كلثوم فلم يكنّ بناته عليهن السلام، بل كنّ ربيباته⁽²⁾.

(1) أبو القاسم الكوفي، علي بن أحمد بن موسى بن الإمام الجواد عليه السلام، الاستغاثة، لاد، لات، لاط، ج1، ص68، الصالحي الشامي، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود - الشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م، ط1، ج1، ص9، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص358.
(2) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص138، ولمزيد من الاستفادة في هذا الموضوع راجع: السيد جعفر مرتضى، بنات النبي أم ربائبه، والصحيح من السيرة، ج2، ص129، وج6، ص24.

المفاهيم الرئيسية

- ينتهي نسب النبي محمد ﷺ إلى نبي الله إسماعيل عليه السلام . وقد كان أباه جميعاً طاهرين، فيهم الصديقون من أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين.
- ولد رسول الله ﷺ في 17 من شهر ربيع الأول في سنة 571م في عام الفيل.
- ارتضع رسول الله ﷺ من أمه آمنة بنت وهب أياماً، ثم انتقل إلى البادية كعادة العرب في نقل أبنائهم إليها، فارتضع رسول الله ﷺ من حليلة السعدية، وبعد فترة ظهر في تلك القبيلة الخير الكثير والوفير بوجود رسول الله ﷺ.
- أبصر رسول الله ﷺ النور، وكان والده قد توفي، فعاش في كفالة جده عبد المطلب، وبعد مرور ثماني سنوات توفي جده، فانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب، فكفل رسول الله ﷺ حتى توفي في السنة العاشرة للبعثة.
- حفلت حياة النبي محمد ﷺ في فترة الشباب بالعديد من الحوادث المهمة؛ فقد شارك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب في رحلة تجارية إلى بلاد الشام، وفي فترة الشباب أيضاً شارك رسول الله ﷺ في حلف الفضول الذي دعا إليه حلف المطيبين. وهذا الحلف كان يسعى لرفع الظلم عن الناس.
- عُرف رسول الله ﷺ في قريش بالصادق الأمين، وأنه لا يماري ولا يداري أحداً. وانطلاقاً من ذلك، فقد حُكِّم رسول الله ﷺ في قضية وضع الحجر الأسود مكانه، بعدما اختلفت قبائل قريش في ذلك، فعمل رسول الله ﷺ على حل هذا النزاع بوضع رداء، وحمل الحجر الأسود من قبل كل قبيلة.
- بعدما ذاع صيت النبي ﷺ في قريش، دعتة السيدة خديجة عليها السلام لمضاربتها في تجارتها إلى بلاد الشام، وقد ربحت تلك التجارة ربحاً وفيراً، ففرحت السيدة خديجة عليها السلام بذلك، وكان ذلك من مقدمات الزواج بينهما.
- تزوج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة عليها السلام، وأنجب منها ولدين والسيدة الزهراء عليها السلام .

الدرس الرابع

البعثة النبويّة (1)

نزول جبرائيل - الدعوة السرية

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف ظهور جبرائيل على النبيّ ﷺ وبعثته المباركة.
2. يشرح خطوات ومراحل الدعوة السرية.
3. يحلّل دور إسلام النخبة الأولى من المسلمين وثبات موقف أبي ذرّ.

تمهيد

إنَّ الله سبحانه وتعالى إنما يصطفي من عباده من يتمتّع بخصائص فذة، تجعله قادراً على أداء المهام الكبرى الموكلة إليه، وتحقيقها بالنحو الأكمل. والأنبياء العظام ﷺ هم المصداق الأبرز لهذا الاصطفاء الإلهي الرباني. فلا بد أن يكون المرسل من قبله تعالى مستوعباً للرسالة وأهدافها، وقادراً على أداء الدور المطلوب منه على مستوى تلقّي الوحي، وتبليغه وتبيينه وتطبيقه، وصيانتها والدفاع عنه، وهذا ما يتطلّب العلم والبصيرة والمعرفة، وسلامة النفس، والصبر والاستقامة، والشجاعة، بل والقدرة على إدارة شؤون الأمة التي ينطلق منها، وينشر دعوته في أصقاع الأرض.

وقد تجسّدت تلك الصفات الربانية والقيادية في شخصيّة خاتم الأنبياء محمد ﷺ. فكانت سيرته قبل النبوة مليئة بالمواقف التي تكشف عن سرّ تلك الشخصيّة العظيمة، حتّى صدع بالنبوة والرسالة، وابتدأ تأسيس دولته في شبه الجزيرة العربيّة.

الإعداد الإلهي للنبي ﷺ قبل البعثة

كان النبي ﷺ منذ بدء أمره محدثاً مسدداً مؤمناً موحّداً، يعبد الله، وكان أفضل الخلق وأكملهم خلقاً وخلقاً وعقلاً. فعن الإمام عليّ ﷺ في وصف الرسول ﷺ: «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»⁽¹⁾. وروي أن بعض أصحاب الإمام محمد الباقر ﷺ سأله عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا

(1) الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار النهضة، الناشر: دار الذخائر، قم، إيران، 1412 هـ ط 1، الخطبة القاصعة رقم 192، ص 137.

مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٧٨﴾⁽¹⁾.

فقال ﷺ: «يوكل الله تعالى بأبنيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليه تبليغهم الرسالة، ووكل بمحمد ﷺ ملكًا عظيمًا منذ فصل عن الرضاع، يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: «السلام عليك يا محمد، يا رسول الله ﷺ»، وهو شابٌ لم يبلغ درجة الرسالة بعد»⁽²⁾.

ظهور جبرائيل على النبي ﷺ وأول صلاة

كان رسول الله ﷺ يغدو كل يوم إلى غار حراء؛ يصعده وينظر من قلله إلى آثار رحمة الله، وإلى أنواع عجائب رحمته، وبدائع حكمته، وينظر إلى أكناف السماء، وأقطار الأرض والبحار، والمفاوز والفيافي، فيعتبر بها. ولما أتى عليه ﷺ سبعٌ وثلاثون سنة، نظر إلى شخص يقول له: «يا رسول الله!»، فقال له: «من أنت؟»، قال: «أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً...»⁽³⁾.

وكان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يألف رسول الله ﷺ، ويكون معه في مجيئه وذهابه لا يفارقه، وكان عمره آنذاك سبع سنين. فدخل عليه وهو يصلي، فقال: «يا أبا القاسم ما هذا؟»، قال: «هذه الصلاة التي أمرني الله بها». فعلمه رسول الله ﷺ الوضوء والصلاة، فكان ثاني من صلى، وسبق الناس كلهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، وإلى الصلاة بسبع سنين، وكان يسمع الصوت ويبصر الضوء سنين سبعا⁽⁴⁾.

وكذلك، فإن رسول الله ﷺ عندما جاء أهله مبشراً بالرسالة، آمنت به السيدة خديجة ﷺ، فكان لا يصلي، قبل البعثة، إلا رسول الله، وعليّ وخديجة، وكانت أول صلاة صلاها عليّ ﷺ مع رسول الله ﷺ الظهر ركعتين⁽⁵⁾.

(1) سورة الجن، الآيات 26 - 28.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج13، ص207.

(3) الشيخ الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الوري، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إيران، 1417هـ ط1، ص36.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج1، ص15.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص279.

وكان النبي إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شباب مكة، مستخفياً من قومه، ويخرج معه عليّ فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا⁽¹⁾.
وروي عن الإمام الباقر عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّكْعِينَ﴾⁽²⁾، قال: «نزلت في رسول الله وعلي بن أبي طالب وهما أول من صلى وركع»⁽³⁾. وعن الإمام عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: نزلت عليّ النبوة يوم الاثنين، وصلى عليّ معي يوم الثلاثاء»⁽⁴⁾.

البعثة النبوية

بعد أن أعدّ الله نبيه محمداً ﷺ وهيأه لحمل الرسالة، وأداء الأمانة الكبرى، وإنقاذ البشرية، اختاره الله سبحانه نبياً ورسولاً للبشرية جمعاء، وأنزلت النبوة عليه، وبعثه الله إلى خلقه رحمةً للعالمين⁽⁵⁾.
أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، في السابع والعشرين من شهر رجب. فقد روي عن الحسن بن راشد، قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «ولا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنه اليوم الذي أنزلت فيه النبوة على محمد ﷺ»⁽⁶⁾.
وبعد تلقيه ذلك البيان الإلهي، عاد إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله به، مطمئناً إلى المهمة التي أوكلت إليه.
ولقد أحاطت بالبعثة النبوية روايات وأساطير وخرافات، فلم يكن رسول الله ضعيفاً

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص 263.

(2) سورة البقرة، الآية 43.

(3) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج1، ص296.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج38، ص246.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص149، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخراساني، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، 1364 هـ-ش، ط3، ج1، ص438.

(6) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص149، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج2، ص90، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج1، ص438، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: مؤسسة البعثة، الناشر: دار الثقافة، قم، إيران، 1414 هـ، ط1، ص28.

ومهزوزاً إلى الدرجة التي يظن فيها نفسه مجنوناً، وأراد أن يرمي بنفسه عن شاهق، وأن خديجة هي التي هدّأته! فكانت أعقل منه، وحاشا لرسالة السماء أن تحتاج أيضاً إلى مثل ورقة بن نوفل لكي يقنع النبيّ بأنّه رسول هذه الأمة!!

بل من الثابت أنّ البيئة والظروف المحيطة بالنبيّ ﷺ حين البعثة هيّأتها للمهمّة الكبرى، ولرؤيته ﷺ لجبرائيل وتلقّي الوحي، فقد روي عن زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله ﷺ: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك ممّا ينزغ به الشيطان؟، فقال ﷺ: «إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عزّ وجلّ مثل الذي يراه بعينه»⁽¹⁾.

الدعوة السريّة إلى الإسلام

مكث رسول الله ﷺ، بعد أن بعث نبياً، في مكة ثلاث سنين، متخفياً خائفاً على الدعوة من قريش وجبروتها وطغيانها يترقب، ولا يظهر أمره علناً إلى الناس⁽²⁾.

وعلى ما يبدو، فإنّ النبيّ ﷺ، على الرغم من أنّ دعوته للناس بقيت سرية، فقد أظهر حقيقة الأمر، وأعلن أنّه نبيّ مرسل من الله تعالى، ولم يخف ذلك، ولم تكن ردّة فعل المشركين خلال الدعوة السريّة على إعلانه أنّه نبيّ مرسل ذات بال، فلم يهتمّ المشركون كثيراً لذلك، بل عدّوه تطرفاً من بني هاشم، وادّعاء للنبوّة منهم. ولكنّ قريشاً بقيت تستطلع الأخبار التي أصبحت حديث الساعة في مجالسها؛ فاستمرت تلك المرحلة الأولى من الدعوة السريّة ثلاث سنوات بأمن وأمان، حتّى كثر المسلمون، واضطروا للخروج إلى الشعاب والجبال لأداء الصلاة؛ فارتفعت إمكانيّة الصدام مع قريش، وحصلت بعض الاحتكاكات الطفيفة بين الطرفين.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج 18 ص 262، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج 2، ص 289.

(2) الشيخ الصدوق، إكمال الدين، مصدر سابق، ص 189 و 197.

وفي أواخر الدعوة السريّة، تعمّد النبي ﷺ الصلاة علناً في المسجد الحرام، قرب الكعبة، ربّما لأجل أن يستدرج من يريد أن يعرف الحقيقة، فقد ظهر هو وعليّ ﷺ وخديجة على الملأ، في صلاة جماعة علنيّة في المسجد الحرام⁽¹⁾.

النواة الأولى للمسلمين

1. تشكيل المجموعات الأولى:

اكتتم النبي ﷺ في أوّل البعثة ثلاث سنين، لا يعلن دعوته، لاشتداد الأمر عليه. ولهذا، كانت الخطوة الأولى له هي إيجاد نخبة مسلمة مؤمنة من القبائل والبطون المختلفة بصمت وهدوء؛ بحيث يستطيع تربيتها وإعدادها وتأهيلها لكي تصمد في معركة الدفاع عن العقيدة. فكان لا يدعو إلاّ أحاداً ممن يرجو منهم الإيمان، فيدعوهم خفية، ويسرّ إليهم الدعوة، أو يترك لكلّ من يحتكّ به ويسأله حريّة الانضمام الطوعي والاختياريّ. وكان عليّ بن أبي طالب ﷺ، وخديجة أوّل من أجاب⁽²⁾، ثمّ أسلم زيد بن حارثة، ثمّ أسلم جعفر بن أبي طالب، وزوجته أسماء بنت عميس، وعقيل⁽³⁾ وعبيدة ابنا الحارث⁽⁴⁾، ومصعب بن عمير⁽⁵⁾ وبلال، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد⁽⁶⁾، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود⁽⁷⁾، وعتبة بن

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، 38، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد، تحقيق: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، الناشر: دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993هـ ط2، ص30. أبو جعفر الإسكافيّ، محمد بن عبد الله، المعيار والموازنة، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، لاد، لان، 1981م، ط1، ص66، القاضي النعمان، النعمان بن محمد، شرح الأخبار، تحقيق: السيد محمد حسين الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، قم، إيران، 1414هـ ط2، ج1، ص179.

(2) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص189، الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج3، ص136، الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م، ط1، ج2، ص81، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص43.

(3) ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله، عيون الأثر، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، 1986م، لاط، ج1، ص124، 128.

(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبيّ، مصدر سابق، ج2، ص27.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص232.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج2، ص60.

(7) ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ج1، ص129.

غزوان⁽¹⁾، وعبيدة بن الحارث بن المطلب⁽²⁾.

وبعد أن أسلم ثلاثة عشر رجلاً، انطلق عثمان بن مظعون، هو وجماعة حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وأنبأهم بشرائعه، فأسلموا جميعاً، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم⁽³⁾.

كذلك أسلم خباب بن الأرت، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعبد الله بن مسعود، وخنيس بن حذافة بن قيس، وعمرو بن عبسة السلميّ، وعامر بن ربيعة العنزي، وحاطب بن الحرث بن معمر، وامراته فاطمة بنت المجمل، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهري بن عبد عوف وامراته رملة بنت أبي عوف بن صبيبة، وغيرهم⁽⁴⁾.

وبعد هذه المرحلة الدقيقة والحساسة، خشي رسول الله ﷺ وقوع الصدمات بين المسلمين وقريش، فاختر دار الأرقم ليصلي أصحابه فيها. وبعد شهر، أعلن الأمر، فلم يكن في دار الأرقم سرية بالمعنى الدقيق.

2. إسلام أبي ذر وثبات الموقف:

كان أبو ذرّ الغفاريّ رابع أو خامس من أسلم، وكان يتأله في الجاهلية، ويقول: «لا إله إلا الله، ولا يعبد الأصنام»⁽⁵⁾. سمع بمبعث النبي ﷺ، فأرسل أخاه ليستقصي له الخبر، فرجع إليه، ولم يشف له غليلاً. فذهب هو بنفسه إلى مكة، وكره أن يسأل عن النبي ﷺ علانية، ورآه عليّ عليه السلام مضطجاً في ناحية المسجد الحرام، فعرف أنه غريب، فاستضافه ثلاثة أيام لا يسأله عن شيء، ثمّ سأله أبو ذرّ عن النبي ﷺ، فأخذه

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص222.

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، مصدر سابق، ج1، ص144.

(3) ابن سعد، الطبقات، ج3، ص393، ابن الأثير، محمد بن محمد، أسد الغابة، نشر: انتشارات إسماعيليان، طهران، إيران، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج3 ص598، ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415هـ ط1، ج2 ص464.

(4) راجع: ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ج1، ص128، الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993، ط9، ج1، ص144.

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4، ص164، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص342، ابن حجر، والإصابة في تمييز الصحابة، ج4، ص63، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج5، ص186.

إليه بصورة سرّية، حتّى لا يلتفت المشركون إلى طبيعة تحركاته وأهدافه؛ حيث أمره أن يتبعه، فإن رأى ما يخاف منه عطف كأنه يريد أن يقضي حاجة، أو يصلح نعله.

لقد اعتمد أبو ذرّ على دعوة عليّ عليه السلام، واستجاب له ونزل ضيفاً عليه، فقد رأى فيه حكمة وروية. كان عليّ عليه السلام يريد المحافظة على سلامة أبي ذرّ، ولكنه كان حريصاً أيضاً على أن لا يلفت نظر المشركين إلى أنه كان يقوم بمهمة تعريف الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله من أجل إدخالهم في الإسلام. وهكذا اعتنق أبو ذرّ الدين الجديد، وكان أوّل من أحبّ عليّاً بن أبي طالب من المسلمين، وأوّل من عرف مقامه وشأنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ وكان من أوائل من عدّ من موالي عليّ عليه السلام وشيعته.

وبعد أن أسلم أبو ذرّ، قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن مكث في مكة قليلاً، وقرأ شيئاً من القرآن: «يا نبيّ الله، ما تأمرني؟»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «ترجع إلى قومك حتّى يبلغك أمري». فقال أبو ذرّ: «والذي نفسي بيده، لا أرجع حتّى أصرخ بالإسلام في المسجد».

وكان أصل أن يفعل ذلك كان مسموحاً، ولكنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يخاف على المسلمين الأوائل أن يقتلوا، فقال لأبي ذرّ: «إني أخاف عليك أن تقتل!»، فقال أبو ذرّ: «لا بدّ منه، وإن قتلت!». فخرج إلى المسجد الحرام، ونادى بأعلى صوته: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله». ولم تكن المواجهة بعد قد وقعت بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وآله، فرأت في تصرفه تحدياً لها، واعتداءً على شرفها وكبريائها، فقام إليه المشركون، وضربوه حتّى أضجعوه، فأتى العباس، وأكبّ عليه، وقال: «ويحك، أستم تعلمون أنّه من غفار، وأنّ طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟»، فتركوه، ولكنّه عاد في اليوم الثاني إلى مثل ذلك، فخلّصه العباس. ولكنّ أبا ذرّ بخطوته العلنية تلك قدّم درساً للجميع، وباكراً جداً، أنّه يمكن كسر حاجز الخوف، ومواجهة الأخطار، وتحديّ طغيان قريش وجبروتها.

ولمّا ضرب أبو ذرّ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله، أمّا قريش فلا أدعهم حتّى أثار منهم، ضربوني». فخرج حتّى أقام بعسفان، وكلّما أقبلت غير لقريش، يحملون الطعام، ينفر بهم على ثنية غزال، فتلقّي أحمالها، فجمعوا الحنط، ويقول أبو ذرّ لقومه: «لا يمَسّ

أحد حبة حتى تقولوا: لا إله إلا الله»، فيقولون: «لا إله إلا الله»، ويأخذون الغرائر. وحسب نص آخر، كان أبو ذر رجلاً شجاعاً، يتفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسه، أو على قدميه. فكان يعترض لعيرات قريش، فيقطعها، ويقول: «لا أردد إليكم منها شيئاً، حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله». فكان على ذلك حتى هاجر رسول الله، ومضى بدر، وأحد، ثم قدم فأقام في المدينة. وهكذا، لئن أبو ذر قريشاً درساً قاسياً، وعلمها أنها لا تستطيع أن تتعامل مع الآخرين كما يحلو لها وكما تشتهي؛ لأنهم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يضغطوا عليها، وأسلم على يده نصف قبيلته غفار⁽¹⁾.

(1) راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 4، ص 163، البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، 1981م، لا.ط، ج 2، ص 206، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 34، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 339، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 4، ص 63. حلية الأولياء، ج 1، ص 158 و 159، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992م، ط 1، ج 4، ص 63. للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 78.

المفاهيم الرئيسية

- أعدَّ الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ لتقبُّل أعباء النبوة وثقلها، فكان رسول الله ﷺ مسدداً مؤيداً مؤمناً، وكان أفضل الخلق وأكملهم، وقد قرن الله تعالى به منذ أن خلق ملكاً عظيماً يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق.
- بُشِّر رسول الله ﷺ بالنبوة وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً، وكان في تلك الفترة مبشراً غير مبعوث إلى الأمة، وبعد أن أكمل الأربعين سنة بعث للأمة رسولاً ونبياً.
- بعد أن بُشِّر رسول الله ﷺ بالنبوة أخبر الإمام علياً ﷺ بذلك، فأمن به وصدّقه، وكذلك أخبر زوجه خديجة؛ فأمنت به وصدّقته، فكان أول من صلّى في الإسلام رسول الله ﷺ والإمام عليّ ﷺ والسيدة خديجة ﷺ.
- بُعث رسول الله ﷺ رسولاً ونبياً بعد أن بلغ سن الأربعين، وقد تلقى البيان الإلهي، فعاد إلى أهله مستبشراً مسروراً بما أكرمه الله من الرسالة والنبوة.
- مرّت الدعوة الإسلامية بمرحلتين، الأولى: الدعوة السرية، والثانية: الدعوة العلنية، وهي مرحلة إشهار الدعوة بين جميع الناس.
- عمل رسول الله ﷺ على تشكيل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي في مكة المكرمة؛ فقد آمن به العديد من الناس كزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب وزوجه، وعقيل، وغيرهم الكثير، ثم انتقل رسول الله ﷺ بعد ذلك لدار الأرقم، بن أبي الأرقم وكان يجتمع بالمسلمين فيه.
- بعد أن شاع بين الناس ظهور نبيّ في قريش، وصلت الأخبار إلى قبيلة بني غفار، التي يرجع إليها أبو ذرّ الغفاريّ الذي كان يتأله في الجاهلية. وبعد انتشار الخبر أرسل أخاه لتقصّي الحقائق، ثم ذهب بنفسه إلى مكة، حتّى التقى بالإمام عليّ ﷺ الذي أوصله إلى النبيّ ﷺ، فأعلن إسلامه، وجهر به داخل مكة المكرمة.

الدرس الخامس

البعثة النبوية (2) نزل القرآن - الدعوة العلنية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف تاريخ نزول القرآن وكيفية.
2. يشرح مراحل الدعوة العلنية ودورها في انتشار دعوة الإسلام.
3. يفهم معنى الإسراء والمعراج وأثرهما على الدعوة.

تمهيد

لقد ربط الله سبحانه وتعالى بين بعثة أنبيائه العظام وبين الدليل الذي يقدمونه إلى الناس؛ ليكون الحجّة الدامغة على صدق دعواهم، وصحة مقالتهن. وقد كانت حجّة النبي ﷺ القرآن الكريم.

والقرآن الكريم، في كثير من آياته، يوثق حركة رسول الله ﷺ في نشره للدعوة الإسلاميّة. وقد كان بدء نزول القرآن الكريم حدثاً عظيماً، ما أدى إلى زعزعة استقرار قريش؛ لأنّه كشف كثيراً من الأحداث السابقة على رسول الله ﷺ، وجذب الكثيرين من أبنائها نحو الإسلام عندما كانوا يستمعون إلى تلاوات النبي ﷺ لآياته النيّرة. ثمّ إنّ البعثة النبويّة المباركة في مكّة المكرّمة أدّت إلى أن يحصل تغيير جذريّ في نظرة قريش إلى رسول الله ﷺ، واعتباره شخصاً يقوم بتهديد حلم قريش وجبروتها، ويمسّ مكانتها وعرشها في أعين العرب والناس جميعاً.

البعثة النبويّة ونزول القرآن

هناك علاقة نشأت بين البعثة النبويّة والقرآن الكريم. فالقرآن هو المعجزة الخالدة التي أتى بها رسول الله ﷺ، وكانت حجّته ودليله على صدق دعواه، إلا أن نشوء هذه العلاقة وقع الخلاف حول بدئه، فهل بدأت الدعوة النبويّة وبدأ نزول القرآن الكريم مباشرة، أم أن نزول القرآن الكريم قد تأخر عن بداية الدعوة، فانطلق رسول الله ﷺ بدعوته، ثمّ بعد فترة بدأ القرآن الكريم بالنزول، وبعدها بدأ رسول الله ﷺ يقرؤه ويتلوه على مسامح المسلمين، وعلى مسامح قريش؟

وقد تعدّدت الآراء في ذلك:

فقد ذهب المشهور إلى أن هنالك اقتراناً بين البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم. فقد بدأت البعثة النبوية وبدأ نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وكان أول ما نزل عليه من القرآن الكريم الآيات الخمس الأولى من سورة العلق⁽¹⁾.

وقد ورد من طرق أهل البيت ﷺ رواية واحدة تقرن البعثة بنزول القرآن، وتدل على أن الآيات الأولى هي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وأنها نزلت في بداية البعثة، في اليوم السابع والعشرين من رجب، وهي الرواية التي وردت في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري⁽²⁾.

والأصح أن البعثة النبوية لم تقترن بنزول القرآن الكريم، فلم ينزل عليه القرآن الكريم إلا بعد فترة ثلاث سنين، كان النبي ﷺ خلالها يكتُم أمره عن ملاء الناس، ويدعو الله بطريقة شبه سرية، فإن الأخبار التي وردت عن أئمة أهل البيت ﷺ في أول ما نزل من القرآن لا تقيده بداية البعثة. وقد ورد عن الإمام الباقر ﷺ في قوله سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾⁽³⁾، قال: «ذلك أن أول سورة نزلت كانت ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾⁽⁴⁾، ثم أبطأ جبرئيل عن رسول الله ﷺ، فقالت خديجة: 'لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك؟'، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾⁽⁵⁾. وعن الإمام الصادق ﷺ: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وآخر ما نزل عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾⁽⁶⁾»⁽⁷⁾.

(1) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج2، ص282.

(2) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري ﷺ، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي ﷺ، الناشر: مدرسة الإمام المهدي ﷺ، قم، إيران، 1409 هـ ط1، ص156، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص206.

(3) سورة الضحى، الآية 3.

(4) سورة العلق، الآية 1.

(5) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح وتعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، قم، إيران، 1404 هـ ط3، ج2، ص428.

(6) سورة النصر، الآية 1.

(7) الشيخ الكافي، ج2، ص628، الشيخ الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا ﷺ، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1984م، لا.ط، ج2، ص6.

ومن ثمَّ لم يكن المشركون يؤذونه، سوى بطعنات لسانية؛ حيث لا يرون من شأنه ما يُخشى على دينهم.

بداية نزول القرآن الكريم

بدأ نزول القرآن حينما بلغ رسول الله من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، في شهر رمضان المبارك، بعد بعثته ﷺ بثلاث سنوات في شهر رجب، أي بعد انتهاء الفترة السرية للدعوة⁽¹⁾.

ثم إنَّ الروايات الواردة عن أهل البيت، والقائلة إنَّه ﷺ قد بعث في شهر رجب تدلُّ على أنَّه صار نبياً في شهر رجب. وحينما سئل الإمام الصادق ع⁽²⁾ عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ كيف كان، وإنَّما أنزل القرآن في طول عشرين سنة؟ فقال: «إنَّه نزل جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمَّ نزل من البيت المعمور إلى النبيِّ في طول عشرين سنة»⁽³⁾. فهنا موافقة الإمام على أنَّه نزل خلال عشرين سنة، ويؤيده ما روي أيضاً من طرق أهل العامة من نزول الوحي على الرسول ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة⁽⁴⁾.

فبدء نزول القرآن الكريم كان متأخراً عن النبوة بثلاث سنين، فإذا كانت مدة نزول القرآن على النبيِّ عشرين عاماً، ومدة مكث النبيِّ بعد النبوة في مكة ثلاث عشرة سنة، فسوف يكون بدء نزول القرآن بعد النبوة بثلاث سنين، إذ لا شك في أنَّ القرآن كان ينزل عليه حتى عام وفاته⁽⁵⁾.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص460، محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، الناشر: المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، إيران، لا.ط، ج1، ص80، الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص101، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص4، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص34.

(2) سورة البقرة، الآية 185.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص66، الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص628، الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص56.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص292، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج2، ص610.

(5) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص387، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص127، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص23، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1996م، ط1، ج1، ص045، معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ج1، ص82.

والظاهر أن أمره تعالى لرسول الله ﷺ بأن ينذر عشيرته الأقربين أولاً⁽¹⁾، بعد أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽²⁾، ثم أمره تعالى له ﷺ بالجهر بالدعوة ثانياً، بقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽³⁾، كان بعد الثلاث سنوات الأولى من الدعوة⁽⁴⁾.

إعلان الدعوة الإسلامية⁽⁵⁾

بعد أن نزلت الآيات الأولى من القرآن الكريم وانتشرت بين المسلمين، أخذ المشركون من أهل مكة يفشون بينهم أن محمداً قد جن⁽⁶⁾، فنزلت الآيات الثلاث الأولى⁽⁷⁾ من سورة نون، ثم جاءه جبرئيل بسورة الضحى⁽⁸⁾، وكانت السورة الثالثة في التنزيل⁽⁹⁾، وفيها أمره الله تعالى أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه، وبما أنزل الله عليه وأمره به⁽¹⁰⁾، وأن يبلغ ما أرسل به. وهكذا انتهت مرحلة السرية والكتمان، وابتدأت الدعوة العلنية من خلال عقد ثلاثة بيانات لإعلان الدعوة الإسلامية. وهذه البيانات الثلاثة كان منها اثنان في بداية الدعوة، والثالث بعد فترة زمنية. وسوف نوجّل البيان الثالث إلى مكان صدوره، وسنأتي على ذكر البيانين الأولين، وهما:

- (1) راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج2، ص244، السيد هاشم معروف الحسني، سيرة المصطفى، ص133.
- (2) سورة الشعراء، الآية 214.
- (3) سورة الحجر، الآية 94.
- (4) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص428.
- (5) للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص52.
- (6) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج1 ص297.
- (7) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج1، ص110.
- (8) الشيخ الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: مجموعة من العلماء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1995، ط1، ج10، ص764، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص257، 259، مجير الدين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تقديم وتعريف: محمد بحر العلوم، الناشر: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1968م، لاط، ج1، ص178.
- (9) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص33. قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.
- (10) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص428. للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج2، ص299، ج3، ص7.

1. البيان العام الأول للدعوة العلنية العامة:

بعد أن أمر رسول الله ﷺ بإعلان دعوته إلى الناس، صدق ﷺ الصفا، وقال بصوت عالٍ: «يا صباحاه!»⁽¹⁾، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: «ما لك؟». قال: «أرايتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقوني؟»، قالوا: «بلى»، ثم قال: «... أيها الناس، إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كنت كاذباً لما كذبتكم، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم حقاً خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتون كما تنامون، ولتبعثون كما تستيقظون، ولتحاسبون كما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً. وإنكم أول من أنذرتكم»⁽²⁾. ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء قبل هذا، ولكن الخوف تملكها هذه المرة، وهي تسمع ذلك الإنذار القوي. فبادر أحد قادة الكفر، وهو أبو لهب، إلى تبديد تلك المخاوف فوراً، إذ قال لرسول الله ﷺ: «تباً لك، ألهذا دعوتنا؟»، وتفرق على أثرها الناس.

2. البيان العام الثاني للدعوة العلنية العامة:

في أوائل السنة الرابعة لبعثته ﷺ، وبعد أن أنزل عليه القرآن بشهرين تقريباً، قام خاتم النبيين ﷺ بالأبطح قبل موسم الحج، فقال: «إني رسول الله، أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت»⁽³⁾. وجعل ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب، فسمعت وفود العرب في الموسم بأمره⁽⁴⁾، فكان إذا أتاهم، قالوا: «كذاب، امض عنا».

(1) هي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسَّت بخطر، أو بلغها نبأ مرعب، فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر.

(2) الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1414هـ، ج2، ص1، ج1، ص46.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص344.

(4) العياشي، تفسير العياشي، ج2، ص272، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص304.

موقف قريش من الدعوة العلنية

لَمَّا بَادَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ بِالْإِسْلَامِ، لَمْ يَبْعُدْ عَنْهُ قَوْمَهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ قَرِيشٌ لِلضَّغْطِ عَلَيْهِ، بَلْ اِكْتَفَتْ بِالسَّخْرِيَّةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، حَتَّى أَخَذَ النَّبِيُّ يَتَعَرَّضُ لِأَلْهَةِ قَرِيشٍ، وَيُعَيِّبُهَا وَيَسْفَهُ أَحْلَامَهَا، وَيَتَحَدَّثُ عَنْ ضَلَالِ آبَائِهَا، وَيَنْدَدُ بِعِبَادَةِ الْحِجَارَةِ، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَأَعْظَمُوهُ، وَعَادُوهُ وَأَجْمَعُوا عَلَى خِلَافِهِ وَعِدَاوَتِهِ⁽¹⁾، وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾⁽²⁾، وَأَنَّهُ شَاعِرٌ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾⁽³⁾، وَكَاهِنٌ: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾، وَسَاحِرٌ وَكَذَّابٌ: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾⁽⁵⁾.

الإسراء والمعراج

أَسْرَى بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَعَرَّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ⁽⁶⁾. وَأَشَارَتِ الرِّوَايَاتُ الْوَارِدَةُ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ذَلِكَ، وَبَيَّنَّتْ سَبَبَهُ وَعَلَّتَهُ. فَقَدْ سَأَلَ يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبَا الْحَسَنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَأَيِّ عِلَّةٍ عَرَجَ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ، وَمِنْهَا إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَمِنْهَا إِلَى حِجَابِ النُّورِ، وَخَاطَبَهُ وَنَاجَاهُ هُنَاكَ، وَاللَّهُ لَا يُوَصِّفُ بِمَكَانٍ؟».

فَقَالَ الْإِمَامُ الْكَاسِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوَصِّفُ بِمَكَانٍ، وَلَا يُجْرَى عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يَشْرَفَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ، وَسَكَّانَ سَمَاوَاتِهِ، وَيَكْرَمَهُمْ بِمَشَاهِدَتِهِ، وَيُرِيَهُ مِنْ

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج1، ص319.

(2) سورة سبأ، الآية 8.

(3) سورة الطور، الآية 30، وراجع: سورة الأنبياء، الآية 5.

(4) سورة الحاقة، الآية 42.

(5) سورة ص، الآية 4.

(6) اختلفوا في أن الإسراء والمعراج حدثا في ليلة واحدة، أو كل على حدة. فمنهم من زعم أن الإسراء حدث في اليقظة والمعراج في المنام، وآخرون قالوا مرة بروحه مناماً ومرة ببدنه وروحه يقظة، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص93. وتحدث عن أن الإسراء والمعراج كان بالبدن لا بالنوم، راجع: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج10، ص137.

عجائب عظمتها؛ ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحانه الله وتعالى عما يصفون»⁽¹⁾.

وإليك بيان بعض تفصيل هاتين الحادثتين:

1. الإسراء:

بعد ثلاث سنين من مبعث النبي ﷺ، أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، جسداً وروحاً في ليلة واحدة، فقد صَلَّى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، ثم نام عندها تلك الليلة. فلما كان قبيل الفجر، أيقظهم رسول الله ﷺ، فلما صَلَّى الصبح وصلوا معه، قال: «يا أم هانئ، لقد صَلَّيت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت، بهذا الدار، ثم ذهبت إلى بيت المقدس فصَلَّيت فيه، ثم ها أنا قد صَلَّيت معكم الآن صلاة الغداة كما ترين».

فلما خرج رسول الله إلى الناس أخبرهم، وقال لقريش: «إن الله قد أسرى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس، فعرض عليّ محاريب الأنبياء وآيات الأنبياء». فعجبوا، وكذبه أبو جهل والمشركون، وقالوا: «ما آية ذلك يا محمد؟ فإننا لم نسمع بمثل هذا قط! أخبرنا عما رأيت». فجعل يخبرهم بما سألوه، وقالوا: «فأخبرنا عن غيرنا» - وكانت غيرهم في تجارة - فأخبرهم عن كامل تفاصيلها، فبهتوا، ولم يؤمنوا ولم يزددهم ذلك إلاَّ عتواً⁽²⁾.

(1) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1966، لاط، ج1، ص132.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص52، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2 ص13، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص78، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص131، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، ص610، وج10، 261، قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي (عج)، قم، إيران، 1409 هـ ط1، ج1، ص141.

وعندما أسري بالنبِيِّ إلى بيت المقدس، علّم جبرائيل النبي الأذان والإقامة بعد أن فرضت عليه الصلاة⁽¹⁾. وبعد أن عاد النبي ﷺ إلى مكة، علّمهما لعليّ بن أبي طالب، ثمّ علّمهما للمسلمين واحدًا واحدًا، فكانوا يؤذنون ويقيمون، ولكن من دون رفع أصواتهم بالأذان.

2. المعراج:

في شهر رمضان، في السنة الخامسة للبعثة⁽²⁾، والثانية لنزول القرآن، ويظهر في إحدى ليالي القدر، التاسعة عشرة أو الحادية والعشرين، عُرج برسول الله، جسّدًا وروحًا إلى السماء، فصعد به جبرائيل إلى السماء الدنيا، ورأى عجائبها وملكوتهَا، وأدخله الجنة، ورأى النار وسمعتها، ووصل إلى سدرة المنتهى⁽³⁾.

وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة النجم، وفيها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾⁽⁴⁾. وقد رُوِيَ أنَّ المقصود بالنجم رسول الله، و﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي لما أسري به إلى السماء. فهو قسم برسول الله وردّ على من أنكر المعراج⁽⁵⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص5، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص371، المفضل بن عمر، توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، 1984م، ط2، ص176، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج1، ص197، السيد المرتضى، علي بن الحسين، تنزيه الأنبياء، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1989م، ط2، ص121.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص379، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج5، ص87، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص169، محب الدين الطبري، أحمد بن عبدالله، ذخائر العقبي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، مصر، لات، لاط، ص36، الذهبي، محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1963م، ط1، ج2، ص297.

(3) مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج1، ص79، ابن حجر، فتح الباري، ج6، ص452.

(4) سورة النجم، الآية 1.

(5) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص343، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص260، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص149.

المفاهيم الرئيسية

- تعددت الآراء حول اقتران البعثة بالقرآن الكريم أو عدمه، فالمشهور هو الاقتران؛ بدعوى أن أول آيات نزلت على رسول الله ﷺ هي من سورة العلق، وكان نزولها في بداية البعثة، إلا أن هذا القول لا يمكن الاعتماد عليه؛ لأن الوارد عن أهل البيت  حول الاقتران ورد فقط في كتاب تفسير القرآن الكريم المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري ع، ولم تثبت نسبة الكتاب إليه، ثم إن ما ورد عن أهل البيت حول نزول الآيات القرآنية ليس مقيداً ببداية البعثة.
- لقد نزل القرآن الكريم بعد البعثة بثلاث سنوات؛ أي عندما بلغ رسول الله من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، في شهر رمضان المبارك، وقد نزل القرآن الكريم في مدة عشرين سنة فقط.
- بعد مرور ثلاث سنوات من عمر الدعوة الإسلامية أمر رسول الله ﷺ بإعلان دعوته، فنزلت عليه الآيات الثلاث الأولى من سورة نون، ثم أعلن الدعوة علانية، وذلك بثلاثة بيانات، فقد كان البيان الأول سنة ثلاث وأربعين، وكان البيان الثاني سنة أربع وأربعين.
- لم تتحرك قريش في بادئ الأمر للضغط على النبي ﷺ، بل اكتفت بالسخرية والاستهزاء، حتى أخذ النبي يتعرض لآلهة قريش ويعيبها، ويسفّه أحلامها، حتى تطوّرت الأمور، واستخدمت قريش كل الوسائل من أجل صدّ النبي ﷺ عن دعوته.
- أشارت روايات أهل البيت  إلى الإسراء والمعراج، فقد أسري بالنبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد حاولت قريش تكذيب النبي ﷺ إلا أن رسول الله ﷺ أخبرها بحقائق حول المسجد وعن إحدى قوافلها فأيقنت بالخبر.
- كان من جملة ما حصل مع النبي ﷺ المعراج الذي حصل في شهر رمضان في السنة الخامسة للبعثة، فقد عرج برسول الله ﷺ جسداً وروحاً إلى السماء، وأنزل الله تعالى في القرآن الكريم ما يثبت ذلك في سورة النجم.

الدرس السادس

قريش ومواجهة الدعوة النبوية (1)

من بداية الصدّ عن الدعوة النبوية
إلى الهجرة إلى الحبشة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أساليب قريش في الصد عن الدعوة النبوية.
2. يشرح دور أبي طالب في دعم الدعوة الإسلامية وبتّها.
3. يتعرّف إلى ظروف وأهداف الهجرة إلى الحبشة.

تمهيد

لم تتصور قريش أنّ دعوة النبي محمد ﷺ يمكن أن تنتشر بين الناس بشكل متسارع، وإنما اعتبرت أنّ دعوته هي عبارة عن حركة شخصية لا تتخطى بأكثر الأحوال خصوص بني هاشم. ولذا لم تقم بأيّ تحرك في مواجهة الدعوة الإسلامية يمكن أن يصنّف في خانة المواجهة الفعلية والقوية لإنهاء حركة رسول الله ﷺ.

إلا أنّ دعوة رسول الله ﷺ أخذت بالتوسع والانتشار بشكل سريع، فاعتقدت قريش أنّها بدائها تستطيع أن تثني رسول الله ﷺ عن رسالته، فذهبت إلى التخطيط والمواجهة بطرق عدّة، وقد استغلّت كلّ الظروف والمناسبات لتحقيق مآربها كموسم الحجّ مثلاً. وعلى الرغم من كلّ المواجهة الشرسة والقوية من قبل قريش، إلا أنّها عجزت عن أن تثني الرسول ﷺ وأصحابه عن الاستمرار في نشر الرسالة الإسلامية.

الصدّ عن الدعوة النبوية

استهزأت قريش برسول الله ﷺ وآذته، وكانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم، فيلقونه بما لا يحبّ. وكان أشهر هؤلاء المستهزئين من صناديد قريش الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وكان معهما آخرون⁽¹⁾. واستمرت المواجهة بين النبي من جهة والشرك من جهة أخرى، طوال أيام الدعوة النبوية في مكة. وقد نزلت في هذه المجموعة من المشركين آيات من الكتاب العزيز؛ لأنّهم هم

(1) الخوارزمي، المناقب ج1، ص73، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص24، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج7 ص14، وج10 ص35، وج19 ص308، العياشي، تفسير العياشي، ج2، ص252، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص378، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص71-76. ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص277، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، ص133، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص65.

الذين كانوا يقودون عملية المواجهة مع رسول الله ﷺ بكل أشكالها، ومنها ما قام به أبو لهب - عم النبي ﷺ - فقد لعب دوراً كبيراً في الصّدّ عن الدعوة، مظهراً العداء الحادّ الشديد للنبي ﷺ، فهو أول من واجه رسول الله ﷺ حينما صعد إلى الصفا، وأنذر قريشاً الإنذار الأوّل، وقال لهم: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!»، فقال أبو لهب: «تبا لك، ألهذا دعوتنا جميعاً؟!»⁽¹⁾.

وكان يؤذي النبي ﷺ ويلحقه ويسيء إليه، منذ أوائل أيام الإعلان عن الدعوة. فقد روى طارق المحاربي، قال: «بينما أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشاب يقول: 'أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا'. وإذا برجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: 'يا أيها الناس إنّه كذاب، فلا تصدّقه'. فقلت: 'من هذا؟' فقالوا: 'هو محمّد يزعم أنّه نبي، وهذا عمّه أبو لهب، يزعم أنّه كذاب'»⁽²⁾.

وكانت امرأته، أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، تنمّ على رسول الله؛ أي تنقل أحاديثه إلى الكفار، وكانت لها قلادة فاخرة من جوهر أرادت إنفاقها في عداوة رسول الله، وكانت تحمل الشوك والغضا⁽³⁾؛ فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة، فوصفها الله تعالى بحمالة الحطب، وأنزل الله تعالى سورة المسد.

البيان العامّ الثالث بعد هلاك المستهزئين

انطلق الرسول في موسم الحجّ، فقام على حجر إسماعيل في مطاف المسجد الحرام، وهو أجمع مجامع الحجّ، وأشرف مواقفه، فقال: «يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة». فاستهزؤوا منه، وقالوا: «جُنّ محمّد بن عبد الله»⁽⁴⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 7، ص 357، الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق

التنزيل وعيون الأقاويل، الناشر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1966، ج 4، ص 296.

(2) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، 10، ص 476، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 24.

(3) شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.

(4) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 379، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص 106.

الصدّ عن الدعوة في موسم الحجّ

حينما أتى ثاني موسم للحجّ أو العمرة بعد إعلان الدعوة العامّة، في السنة الخامسة للبعثة، أنت وفود العرب إلى مكة، وكانوا قد سمعوا بأمر رسول الله ﷺ، وبلغ صدى الدعوة بينهم حدًّا؛ بحيث احتار المشركون في كيفية مواجهتهم لها في الموسم، فاجتمع بعض المستهزئين من قريش - أبو جهل، وزمعة بن الأسود، وعمرو بن هشام، وحويطب بن عبد العزى - وتشاوروا في أمر النبيّ، فقال أبو جهل: «هو مجنون»، وقال زمعة: «هو شاعر»، وقال حويطب: «هو كاهن». ثمّ أتوا الوليد بن المغيرة وعرضوا ذلك عليه، وكان ذا سنّ فيهم، فقال لهم: «يا معشر قريش! إنّه قد حضر هذا الموسم. وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً».

وقال لهم: «إنّ أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته». ففرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إيّاه، وذكروا لهم أمره⁽¹⁾.

ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين

مارس المشركون ظلماً عظيماً على كلّ من أسلم، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين من استضعفوه منهم، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرميهم على رمضاء مكة إذا اشتدّ الحر، ليفتنوهم عن دينهم؛ فمنهم من كان يصمد أمام فتنتهم ويواجه اعتداءهم، ويعصمه الله منهم، ومنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه. فلجأ رسول الله ﷺ إلى تنظيم المسلمين في مجموعات، وكلّ مجموعة في مكان. في كلّ مجموعة رجل قويّ يستطيع المجابهة والدفاع عن الآخرين، فكان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما، عند الرجل به قوّة، فيكونان معه، ويصبيان من طعامه⁽²⁾.

(1) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، ص257، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص174.
 (2) ابن الأثير، أسد الغابة ج5، ص54، محب الدين الطبري، أحمد بن محمد، الرياض النضرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج2، ص277.

وكانوا يخرجون بعمّار بن ياسر، وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم في رمضاء مكة. وكان رسول الله يمرّ بهم، فيقول لهم: «اصبروا آل ياسر، فإنّ موعدكم الجنة»⁽¹⁾. وكان أمية بن خلف الجمحي يُخرج بلال بن رباح إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ويقول له: «لا تزال هكذا حتّى تموت أو تكفر بمحمّد، وتعبد اللّات والعزّى!»، فيقول: «أحد أحد». وقد اشترى رسول الله ﷺ عامر بن فهيرة وبلالاً وأعتقهما، ولذلك عدّ بلال من موالى النبي ﷺ⁽²⁾.

تحليل عامّ للموقف بعد إعلان الدعوة

1. الخشية من إلغاء مكانة مكة المعنويّة والاقتصاديّة:

إنّ السبب الحقيقيّ للحرب الضروس التي شنتها قريش على محمّد ﷺ، لم يكن في سبّه لأبائهم ولآلهتهم، بل كان كامناً في دعوته إلى التوحيد، والتي سوف تلغي عبادة الأصنام، فتفقد مكة حينئذ تلك السمة التي حصلت عليها بسبب البيت أساساً، وبسبب وجود أصنام العرب فيها، ألا وهي كونها حرماً آمناً، وتفقد بالتالي مركزها التجاري؛ حيث كانت مكة سوقاً لعرب تهامة والحجاز ونجد، ممّا حوّل رؤساءها وشيوخها إلى تجّار وأغنياء كبار ذوي سطوة ورأي ووجاهة على مستوى شبه الجزيرة العربيّة.

2. الاختلال في ميزان القوى بين الإسلام والشرك:

إنّ نظرة أوّليّة إلى ميزان القوى بين النبيّ وأصحابه المسلمين من جهة، وقريش من جهة أخرى، سوف تُظهر اختلالاً واضحاً وحاداً لمصلحة قريش. فقد شكّل المعسكر المعادي الثقل القبليّ والماليّ؛ إذ كان مؤلّفاً من رؤوس قريش وممثليّ بطونها وأغناها وأقواها، فقد كان على رأسه أبو الحكم بن المغيرة.

(1) الهيثميّ، مجمع الزوائد، مصدر سابق، ج9، ص293.

(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج1 ص339، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص255، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص171.

وقد اتّسمت حالة إعلان الدعوة بالتأثر البالغ بميزان القوى هذا. فقد كان قرار النبيّ تحاشي الاصطدام الدمويّ مع قريش؛ خشية أن يؤدي ذلك إلى استفزاز وإثارة نزعة الحرب، وسفك الدماء عندها، بعد أن تحصل على ذريعة ذلك من قتال محمّد وأصحابه.

3. بقاء قريش تحت سقف الضغط وعدم وصولها إلى سفك الدماء:

بقي النبيّ ومن معه في موقف سلبيّ تمامًا من ناحية الدفاع، في الوقت الذي كانت فيه قريش في موقف الهجوم والتنكيل والتعذيب من دون أن تصعد في موقفها، وتحسم الأمر. إذ لم تكن ترى خطراً جدّياً في البداية على مصالحها الكبرى، وإن كانت قد أخذت تضيق ذرعاً بالدعوة الإسلاميّة، وخاصّة عندما لاحظت ازدياد أعداد الذين أخذوا يعتنقون الدين الجديد، فأخذ خوفها من زوال مركزها التجاريّ يزداد ويكبر. كما أنّها لم تكن متّفقة على التشديد ضدّ المسلمين، فقد كان كثيرٌ منهم من بطون قريش نفسها ومن أولاد كبارهم ورؤسائهم، ولم يكن من السهل إلحاق الأذى بشخص ذي عشيرة قويّة، فكان أيّ عمل من هذا القبيل يحتاج إلى مشورة مع أشرافهم، وبالتالي يحتاج إلى اتفاق. وأيّ خلل في حصول الإجماع على إيذاء شخص مسلم ينتمي إلى عشيرة قويّة، فإنّ ذلك كان يمنع إيذاءه؛ لأنّ العصبية القبليّة كانت لا تزال قويّة إلى الدرجة التي كان يمكن أن تؤدّي إلى نزاع دمويّ باهظ الثمن.

ولم تصل قريش إلى مرحلة السيف وحسم الأمر إلا في السنة الثالثة عشرة للبعثة، بعد انكشاف بيعة الأوس والخزرج للنبيّ ﷺ على النصر. فقد كان معنى ذلك بنظرها دخول النبيّ ورسالته مجالاً اقتصادياً وتجاريّاً وحياتياً خطراً عليها، ألا وهو التحالف مع قبيلتين قويتين تمسكان طريقها التجاريّ إلى الشام، وتشكلان منافساً قوياً لها. فحاولت قريش المبادرة إلى الهجوم السريع؛ فانكشف النبيّ من جهة عشيرة بني هاشم، خصوصاً أنّ أبا لهب كان هو المرشّح لزعامتها، فوضع النبيّ ﷺ نفسه في دائرة المبادرة السريعة إلى الخروج والهجرة، والاتّجاه إلى قاعدة آمنة بعيدة عن سطوة قريش المباشرة.

وكان أبو طالب، والحمزة، وبنو هاشم، وحلفاؤهم خلفهم، يشكّلون رادعاً يحمل احتمالات انفجار حرب داخلية، سوف تتضرر قريش منها كلّها، وسوف يقع الضرر ثقيلًا على تجّارها وأغنيائها. فلم يكن سهلاً؛ وقريش تنظر بحذر إلى تربص القبائل بها في الخارج، أن تقوم بتفجير وضعها الداخلي.

4. دور أبي طالب في إيجاد القوّة في الموقف الإسلامي:

من أجل حماية الجنين الإسلامي، أبقى رسول الله ﷺ إيمان عمّه أبي طالب سرّيًا، ولم يجعله يسلك سبيل حمزة عمّه الثاني، ولو فعل ذلك لخرج أبو طالب عن كونه رمزاً من رموز قريش، ولأصبح كبقية المسلمين، وخرج عن دائرة القدرة على حماية المسلمين، وكان من الممكن أن يؤدّي ذلك إلى أزمة كبرى تجرّ بني هاشم، وبالتالي حلفاءهم، إلى حرب صعبة مبكرة كان رسول الله لا يريدّها.

فقد احتاج النبي ﷺ في بداية المرحلة الجنينية إلى الدعوة، وهي مرحلة تأسيس النخبة، والإعلان عنها إلى عنصر القوّة الكامن في تلك العلاقات السائدة، والتي كانت من القوّة بمكان. فقد كانت محترمة، ويعدّ الخروج عنها من الانحرافات الشاذة. فما تمتلكه هذه العلاقات السائدة من عنصر القوّة ومن القبول والرسوخ في العقل الجماعي والاجتماعي، جعل النبي ﷺ مضطراً إلى ترك عمّه أبي طالب ضمن شبكة هذه العلاقات، حتّى يبقى ما له من مركز القوّة الذي تعطيه إيّاه هذه العلاقات نفسها.

قريش توسط أبا طالب

لما أظهر رسول الله الدعوة، ورأت قريش أنّ عمّه أبا طالب يحذب عليه، ويحتضنه، ويحميه، توجّهت شطره، وهي تعتقد أنّ أبا طالب مثل ما هي عليه من خلاف مع النبي. وكان أبو طالب آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسهم المطلق، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية، فدخلوا على أبي طالب، وقالوا: «أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنه آذانا، وسفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وعاب ديننا، وضلّ آباءنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا! فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلي بيننا وبينه، فادعه ومره،

فليكف عن آلهتنا، ونكف عن إلهه! فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم، جمعنا له مالا حتى يكون أغنى رجل في قريش ونملكه علينا!«.

ولكن أبا طالب قال لهم قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً حكيماً، فانصرفوا عنه. ثم عاودوا الكرة عليه، وحضروا عنده مهتدين هذه المرة، فقالوا له أجمع: «يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإننا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحمالنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

فأدرك حامي الرسول الوحيد، بذكائه وفطنته، أنه يتوجب عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها ومصالحها في خطر. من هنا، عمد إلى مسالمتهم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن أخيه محمداً كلامهم. وقد كانت هذه محاولة من أبي طالب لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء ثائرتهم، وتهدئة خواطرهم، لتتم معالجة هذه المشكلة بعد ذلك بطريقة أصح وأفضل. ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فدعاه. حضر رسول الله ﷺ ودخل، وقال: «السلام على من اتبع الهدى»، ثم جلس. فأخبره أبو طالب بما جاؤوا به. وقال: «يا ابن أخي! إن هؤلاء قومك يسألونك». فقال: «ماذا يسألونني؟» قالوا: «دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك!»، فاستعبر رسول الله، وقال: «والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى ينفذه الله أو أمضي دونه (ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه)! ولكن هل لهم في كلمة خير لهم من هذا، يعطونني كلمة يسودون بها العرب ويطؤون أعناقهم، ويدين لهم بها العجم، ويكونون ملوكاً في الجنة؟».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقال أبو جهل: «نعم! لله أبوك! نعطيك ذلك وعشر كلمات! وما هذه الكلمة؟»، فقال لهم رسول الله: «تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله». فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وخرجوا وهم يقولون: «ندع ثلاثمائة وستين إلهاً، ونعبد إلهاً واحداً! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق».

وقال عقبه بن أبي معيط الأموي: «اثبتوا على عبادة آلهتكم، واصبروا على دينكم، وتحملوا المشاق لأجله، فإنّ هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد أمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدة».

وأقبل أبو طالب، بعد خروج تلك الجماعة من عنده، على رسول الله ﷺ وقال: «امض لأمرك، فوالله، لا أخذك أبداً».

فعاودت قريش الكرة الثالثة متبعة طريقاً ملتويّاً، فمشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة، وقالوا له: «يا أبا طالب، هذا عماره بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذ فلك عقله ونصره، واتّخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي فرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنّما هو رجلٌ برجل!!».

فكشف أبو طالب مكرهم هذا، وقال: «والله، لبئس ما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيتكم ابني تقتلونه؟ هذا والله، ما لا يكون أبداً»⁽¹⁾.

ثمّ اتخذ أبو طالب قراراً دفاعياً استعداداً للاحتتمالات الخطرة، فأمر بني هاشم بحماية

النبي ﷺ.

وهنا توتر الوضع العامّ في داخل مكة، فهابت قريش وحدة موقف بني هاشم، ولم تشأ تصعيد الموقف ضدّهم لما سوف يجرّه ذلك من توسيع رقعة الخلاف ليشمل حلف المطيبين وحلف عبد المطلب مع خزاعة، فأثرت اتباع طرق أخرى؛ كالضغط على النبي نفسه بمحاولة إهانته والإساءة إليه شخصياً؛ كالقاء التراب على رأسه، أو إلقاء سلا⁽²⁾ جزور وفرثه عليه وهو قائم يصلي، ولكنّ أبا طالب كان لهم بالمرصاد، فيأتي غاضباً، ويأمر حمزة، فيمرّر السلا على سبالهم جميعاً، وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم⁽³⁾.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص67، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص54، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص173.

(2) المشيمة.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص285، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص326، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص342، الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص642، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص78.

الهجرة إلى الحبشة وتصعيد المواجهة مع الشرك

حاول المشركون الضغط على من تبع النبي ﷺ من المسلمين المستضعفين، واثتمروا أن يفتنوهم عن دينهم. ولما اشتدّ أذى المشركين على الذين أسلموا، وفتن منهم من فتن، وأمام هذا الوضع الصعب الذي واجهه المسلمون ممن ليس له عشيرة تمنعه، والذي استمرّ لمدة سنتين حتى السنة الخامسة للبعثة⁽¹⁾، وقد كادت قريش أن تحرز انتصاراً ولو من جهة الحدّ من انضمام الناس إلى الدين الحنيف خوفاً من التعذيب⁽²⁾، رأى رسول الله ما بأصحابه من البلاء، فقرّر القيام بحركة تراجع ظاهريّ؛ يرفع فيها الضغط عن المسلمين. ورأى أنّ خير مصداق لسعة أرض الله لهم، والتي أذن الله بالهجرة إليها، هو الحبشة، فأمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه»⁽³⁾.

فكانت أوّل هجرة في الإسلام⁽⁴⁾. وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية. وحتى لا تتصدّى قريش للمهاجرين، فقد هاجر المسلمون إلى الحبشة على دفعات⁽⁵⁾، فخرجوا متسلّلين سرّاً، حتى انتهوا إلى الشعيبة، فركبوا في سفينة حملتهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان عثمان بن مظعون الجمحيّ أميراً على الدفعة الأولى⁽⁶⁾.

ثمّ خرجت الدفعة الثانية، وكان على رأسها جعفر بن أبي طالب، والذي جعله رسول

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج18، ص412.

(2) العلامة الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ل.ت، ل.ط، ج17، ص231.

(3) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1987م، ط1، ج1، ص184.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص213، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ج3، ص360.

(5) ابن كثير، السيرة النبوية، ج2، ص17، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص67 وص72، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص345.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص322، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص330.

الله ﷺ أميراً على كل المهاجرين. وما إن وصلت إلى البحر، واستقلت السفينة إلى الحبشة حتى خرجت قريش في آثارهم، ولكن لم يدركوا منهم أحداً⁽¹⁾. فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً أو سبعين⁽²⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص204، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص69، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص43، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص29.
(2) راجع: الحلي، السيرة الحلبية، ج1، ص321، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص412، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص176، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص241.

المفاهيم الرئيسية

- عملت قريش خلال وجود النبي ﷺ في مكة المكرمة على صدّ الناس عن الإسلام، وعمل كبارؤها على صد الناس ونهيهم عن الالتحاق برسول الله ﷺ. وكان من أبرزهم أبو لهب وامراته، وكان أبو لهب من أشدّ المعارضين لرسول الله ﷺ، وأكثر الناس أذية له حتّى نزلت فيه وفي زوجه سورة في القرآن الكريم.
- بعد أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته، وانتشر خبره في قريش والقبائل المجاورة، استغلّ ﷺ فرصة موسم الحجّ، ليدعو عامة الناس إلى دعوته.
- استخدمت قريش أسلوب الظلم والتعسف والبطش في مواجهة المسلمين، وثنيتهم عن الالتحاق برسول الله ﷺ. فقد عمدت قريش والقبائل الأخرى إلى تعذيب المسلمين، وكان من أبرز من سقط شهيداً تحت التعذيب: ياسر وزوجه.
- يمكن تحليل الوضع العام لقريش بعد إعلان الدعوة بخشيتها من إلغاء مكانتها، والاختلال في ميزان القوى بين الإسلام والشرك، وبقاء قريش تحت سقف الضغط وعدم صولها إلى سفك الدماء.
- بعد أن انتشر أمر رسول الله ﷺ وذاع صيته في البلاد الإسلامية، ورأت قريش أن أبا طالب هو المحامي عن رسول الله ﷺ، قرّرت أن تتوجّه إليه، لعلّها تجد غايتها عنده، فحاولت مرّات عديدة أن توسّط أبا طالب لثني النبي ﷺ عن الاستمرار في دعوته، وعرضت عليه حلولاً عدّة، إلا أن أبا طالب كان موقفه واضحاً وصريحاً في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه بكلّ قوة وشجاعة.
- بعدما اشتدّ أذى المشركين للمسلمين، رأى رسول الله ﷺ أن يتراجع ظاهرياً أمام قريش، فقرر تهجير بعض المسلمين إلى الحبشة؛ لوجود ملك عادل فيها، فهاجر المسلمون على شكل مجموعات إلى أرض الحبشة، فكانت أوّل هجرة في الإسلام في السنة الخامسة للبعثة.
- عين رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب أميراً على المهاجرين إلى الحبشة.

الدرس السابع

قريش ومواجهة الدعوة النبوية (2) من إسلام حمزة إلى الهجرة إلى الطائف

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرف إلى ظروف إسلام حمزة بن عبد المطلب وآثار ذلك على المشركين.
2. يشرح أهداف قريش من محاصرة النبي ﷺ وبني هاشم في الشعب.
3. يبين أهداف النبي ﷺ من إنذار عشيرته وتقديم علي عليه السلام خليفة له.
4. يعرف آثار وفاة أبو طالب وخديجة على الإسلام، وسبب هجرته ﷺ إلى الطائف.

تمهيد

قامت قريش بكل ما تملك من وسائل إعلامية وسياسية بمحاولة وقف جماح الدعوة الإسلامية المباركة، محاولة بذلك صدّ النبي ﷺ عن الاستمرار في دعوته من جهة، ومن جهة أخرى منع الناس من الالتحاق بركب الدعوة الجديدة التي تغيّر المعالم الدينية والسياسية والاجتماعية في المنطقة.

لم يمنع موقف أبي طالب الصلب، وهجرة المسلمين إلى الحبشة، وثبات المسلمين وصبرهم، من دخول بعض الشخصيات الجديدة في الإسلام؛ كالحمزة، ممّا أثر في قريش تأثيراً بالغاً. فقررت قريش أن تقوم بأخر إجراء يمكن لها أن تقوم به، وهو المقاطعة الكاملة لبني هاشم لوقوفهم بجانب النبي ﷺ ودعوته التي نسفت كل أحلام قريش وجبروتها، حتى أجبرت النبي ﷺ على محاولة الخروج خارج مكة المكرمة لاستكشاف الأوضاع عن القبائل العربية الأخرى كتحفيف في الطائف.

ومن جهة النبي ﷺ، كانت تلك الفترة فترة تحدٍّ وصمود واستمرارية للعمل في وجه قريش، حتى البدء بالعمل لتأسيس مشروع الإمامة من بعده، وفترة حزن وتألّم لفقده المحامي عن الدين، وكذلك الداعم المعنوي والمالي للإسلام وهما: أبو طالب، والسيدة خديجة.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

في السنة السادسة للبعثة، أسلم حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، أبو عمار، عمّ النبي ﷺ، وأحد وجهاء قريش وسادتها في الجاهلية.

وفي سبب إعلان إسلامه أن أبا جهل مرّ برسول الله عند الصفا، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ثم انصرف عنه أبو جهل. ولما وصلت أنباء ذلك للحمزة، احتمله الغضب، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضرب بها رأسه؛ فشجّه شجّة منكراً، ثم احتمله، فجلد به الأرض. ثم قال: «أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فردّ ذلك عليّ إن استطعت!». فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة؛ لينصروا أبا جهل، فقالوا لحمزة: «ما نراك إلا قد صبأت؟».

فقال حمزة: «نعم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وما يمني، وقد استبان لي منه أنه رسول الله، والذي يقوله حقّ؟ فوالله، لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين». فقال أبو جهل: «دعوا أبا عمارة، فإنّي والله، قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً». فلما أسلم حمزة، قالت العرب: اليوم عزّ محمّد، وإنّ حمزة سيمنعه، وعرف المشركون من قريش أنّ رسول الله قد عزّ وامتنع، وأنّ حمزة سيمنعه، فشقّ ذلك عليهم، وكفّوا عن بعض ما كانوا يسيئون به إلى المسلمين، وعن بعض ما كانوا ينالون من رسول الله، وعدلوا عن المناظرة إلى المعاتبة، وأقبلوا يرغبونه في المال والأنعام، ويعرضون عليه الأزواج. وقال حمزة للنبيّ ﷺ: «فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله، ما أحبّ أن لي ما أظلتّه السماء، وأنّي على ديني الأوّل».

فكان إسلام الحمزة تطوّراً نوعياً، عزّز القدرة الدفاعية عند النبيّ، وأرهب قريشاً. خصوصاً أنّ إعلان حمزة لإسلامه جاء مقروناً بالتحديّ، وإظهار القوّة والقدرة على التصديّ، إذ ردّ صاع أبي جهل صاعين في مجلس عامّ من مجالس قريش، ممّا زرع الخوف في مفاصلهم، وكان حمزة أعزّ فتى في قريش وأشدّهم شكيمة⁽¹⁾.

(1) ولد في مكّة سنة 54 ق ه ونشأ فيها، واستشهد في المدينة سنة 3 ه، وانقرض عقبه، راجع: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م، ط5، ج2، ص278، ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص189، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ج1 ص122، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص72، الصالحيّ الشاميّ، سبل الهدى والرشاد، ج2، ص332، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج3، ص277.

الحصار في شعب أبي طالب

1. قريش تعلن المقاطعة:

من أجل التهرب من تحمّل المسؤولية الشخصية في مواجهة حمزة بن عبد المطلب، اجتمع أربعون من وجهاء قريش في دار الندوة، وكتبوا في ما بينهم صحيفة: أن لا يواكلوا بني هاشم، ولا يكلموهم، ولا يبائعوهم، ولا يزوّجوا منهم، ولا يحضروا معهم، حتى يدفعوا إليهم «رسول الله» ليقتلوه، وأنهم يد واحدة على محمد، يقتلونه غيلة أو صراحاً. وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً، ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه، وعلّقوها في الكعبة⁽¹⁾.

وقد أشار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى صحيفة المقاطعة في خطبة له، قال: «فتعاقدوا أن لا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطرونا إلى جبل وعر، مؤمننا يرجو الثواب، وكافرنا يحامي عن الأهل، ولقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم، وقطعوا عنهم المارة والميرة، فكانوا يتوقّعون الموت جوعاً، صباحاً ومساءً، لا يرون وجهاً ولا فرجاً، قد اضمحلّ عزمهم، وانقطع رجاؤهم».

وكان بدء حصار الشعب متزامناً أو متقارباً مع بداية الهجرة إلى الحبشة، وكان في نهاية السنة الخامسة وبداية السادسة، واستمرّ إلى السنة العاشرة، فتكون مدّته أربع سنين⁽²⁾.

2. رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو هاشم في قلب المقاطعة:

أمام هذا القرار الخطير في المواجهة، جمع أبو طالب بني هاشم، وحلف لقريش بالبيت والركن والمقام والمشاعر في الكعبة: «لئن شاكت محمداً شوكة لأثبنّ عليكم»⁽³⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص234، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص79.
 (2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص254، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص380، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ج1، ص126، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص326، الخوارزمي، المناقب، ج1، ص65.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج1، ص380.

وكان أبو طالب يحرس النبي ﷺ في الليل والنهار، فإذا جاء الليل وأخذ النبي ﷺ مضجعه، ونامت العيون، جاء أبو طالب؛ فأنهضه عن فراشه، وأضجع علياً مكانه وأضجع النبي ﷺ في موضع آخر، ثم قام بالسيف عليه ورسول الله نائم، فلا يزال الليل كله هكذا⁽¹⁾.

وبقوا في الشعب أربع سنين، لا يجسرون على الخروج منه، ولا يأمنون إلا في الموسم، ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم، وكان يقوم في مكة في كل سنة موسمان: موسم العمرة في رجب، وموسم الحج في ذي الحجة. فكان إذا جاء الموسم، خرج بنو هاشم من الشعب، فيحاولون الاستفادة من قدوم الناس من غير قريش للشراء منهم أو لبيعهم، ولكن قريشاً كانت تدعو الناس إلى مقاطعتهم، إما بالترهيب وإما بالترغيب. ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني، فأصابهم الجهد بذلك. وكان علي بن أبي طالب أثناءها يأتيهم بالطعام سرّاً من مكة⁽²⁾.

وكان أبو العاص بن الربيع، وهو ختن رسول الله على ربيته زينب، يجيء بالعرير في الليل عليها البرّ والتمر إلى باب الشعب، ثم يصيح بها فتدخل الشعب. ولذا، قال رسول الله ﷺ: «لقد صاهرنا أبو العاص، فأحمد صهرنا، لقد كان يعتمد إلى العير، ونحن في الحصار، فيرسلها في الشعب ليلاً»⁽³⁾.

وكان رسول الله ﷺ يخرج في كل موسم، ويدور على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإسلام، وكانت قريش تواجهه، وتمنع العرب من الاتصال به⁽⁴⁾.

3. انتهاء حصار الشعب:

في أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب، وبعد أن أتى على رسول الله ﷺ في الشعب أربع سنين، بعث الله على صحيفة قريش دابة الأرض؛ فلحست جميع ما فيها

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج1، ص57.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص236، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص75.

(3) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، مصدر سابق، ج1، ص548.

(4) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص36.

من قطيعة رحم وظلم وجور، وتركت اسم الله، ونزل جبرئيل على النبي ﷺ، وأخبره بأن الله بعث على صحيفتهم الأرضة، فلحستها⁽¹⁾.

فأخبر النبي أبا طالب، ثم جمع أبو طالب رهطه، وانطلق به حتى دخل عليهم في المسجد، والمشركون من قريش في ظل الكعبة.

قال ﷺ: «والله، يا معشر قريش، قد جئتم في أمر لعله يكون فيه صلاح وجماعة، فاقبلوا ذلك منّا، إنّ ابن أخي أخبرني ولم يكذبني، أنّ الله قد أخبره بحال صحيفتكم، وأنّ الله عزّ وجلّ قد بعث عليها الأرضة، فلم تدع فيها ظلمًا وقطيعةً وبهتانًا إلا أكلته، وبقي اسم الله تعالى، فهلّم صحيفتكم، فإن كان قال ابن أخي، فانتهاوا عن قطيعتنا، وانزلوا عمّا فيها، وارجعوا عمّا أنتم عليه من الظلم وقطيعة الرحم، وإن كان كاذبًا دفعته إليكم تقتلونّه».

فأتوا بها - وهم لا يشكّون أنّهم سيدفعون رسول الله إليهم إذا نشروها - وفكّوا الخواتيم ونشروها، ثم نظروا، فإذا فيها «باسمك الله».

وعند ذلك، اجتمع سبعة نفر من قريش من بني عبد مناف وبني قصي، ورجال من قريش ولدتهم نساء بني هاشم على نقض الصحيفة.

ورجع أبو طالب إلى الشعب، وخرج منه هو والنبي ورهطه وقد أصابهم الجهد الشديد، وخالطوا الناس⁽²⁾. وهكذا انتهى حصار الشعب، وانتصر الإسلام في مواجهة قريش مجددًا.

وأندر عشيرتك الأقربين

هذه هي الخطوة الأولى في طريق معركة الإمامة بعد النبوة، وقد فتحها الله تعالى، وسنّ عليّ ؑ يوم ذاك ستة عشر عامًا، في حدود السنة السادسة للبعثة،

(1) قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص329.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص16، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص330، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص51 - 52، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص327.

حينما كان النبيّ وبنو هاشم محاصرين في الشعب، وبما أنّ بني هاشم تأخّروا في الانضمام جميعاً إلى الإسلام، فقد أراد الله عزّ وجلّ توجيه الإنذار إليهم. كذلك أراد الله تعالى أن يحدّد الوصيّ والخليفة بعد النبيّ ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾.

فدعا رسول الله ﷺ عليّاً ﷺ، فقال له: «يا عليّ، إنّ الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فادعهم ليأتوا، واصنع لنا - يا عليّ - صاعاً من طعام». فخرج أمير المؤمنين ﷺ، وقال لهم: «أجيبوا رسول الله إلى غداء في الغد في منزل أبي طالب». فأكلوا وشربوا حتّى أنهوا، وكانوا كلّما أكلوا أو شربوا بقي الطعام والشراب على حاله. ولما فرغوا، قال أبو لهب: «...، وإنّ ابن أبي كبشة (2)، إنّ هذا لهو السحر المبين!». فسكت رسول الله يومئذ ولم يتكلّم. فتصدّى له أبو طالب، ثمّ خاطب رسول الله ﷺ قائلاً: «يا ابن أخي، إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسلاح»⁽³⁾.

ثمّ دعاهم رسول الله ﷺ من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب⁽⁴⁾. وبعد أن فرغوا من طعامهم خاطبهم النبيّ، منقّداً أمره تعالى، ولم يبدأهم بالدعوة إليه وإلى رسالته، بل إلى بيعته على أن يكون أحدهم خليفته بعده، ثمّ أنذرهم إن لم يستجيبوا له، فقال: «يا بني عبد المطلب، إنّني نذير لكم من الله عزّ وجلّ، إنّني أتيتكم بما لم يأت به أحد من العرب، فإن تطيعوني ترشدوا، وتفلقوا، وتنجحوا... واعلموا، يا بني عبد المطلب، أنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين...، وإنكم عشيرتي الأقربون»⁽⁵⁾، إنّ الله لم يبعث رسولاً إلّا جعل له أحاً ووزيراً ووصياً ووارثاً من أهله، وقد جعل لي

(1) سورة الشعراء، الآية 214.

(2) هو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، شبهوه به، كما في النهاية للجزريّ.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبيّ، مصدر سابق، ج2، ص27.

(4) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص356.

(5) فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفيّ، تحقيق: محمد كاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران،

إيران، 1990م، ط1، ص303، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص212.

وزيراً كما جعل للأنبياء قبلي...، فأَيِّكم (يسبق إليها) يقوم فيبايعني على أنه أخي في الله، ووزير ووارثي دون أهلي، ووصيي وخليفتي (في أهلي)، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟! ومع ذلك يكون لي يداً على جميع من خالفني؛ فأتخذه وصياً وولياً ووزيراً، يؤدّي عني ويبلغ رسالتي، ويقضي ديني من بعدي وعداتي مع أشياء أشرت لها؟!». فأمسك القوم. فأعادها ثلاث مرات ويسكتون، ويثب فيها عليّ ﷺ، فلما سمعها أبو لهب، قال: «تبا لك يا محمد، ولما جئتنا به، ألهذا دعوتنا؟!».

ثمّ قام عليّ ﷺ وهم ينظرون إليه كلهم، فقال: «يا رسول الله، أنا لها، أنا أوازرك على هذا الأمر»⁽¹⁾.

فقال رسول الله: «يا أبا الحسن أنت لها»⁽²⁾، قضي القضاء وجفّ القلم، يا عليّ، اصطفاك الله بأولها، وجعلك وليّ آخرها».

ثمّ قال: «يا بني عبد المطلب، هذا أخي ووارثي ووصيي ووزير وخليفتي فيكم»⁽³⁾ بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا»⁽⁴⁾. فقام القوم يقولون لأبي طالب: «قد أمرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام»⁽⁵⁾.

(1) الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، مصدر سابق، ج 1 ص 323.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 216، القندوزي، سليمان بن إبراهيم، ينباع المودة، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة، لا ب، 1416 هـ ط 1، ج 1، ص 122، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 22.

(3) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 106، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ج 1، ص 322، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 319، الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1995 م، لا ط، ج 19، ص 74، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 40، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 1، ص 459، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفي، ص 113.

(4) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 583، فرات بن إبراهيم، تفسير فرات الكوفي، ص 301، الطبري، جامع البيان، ج 19، ص 74-75، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 210، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت، لبنان، لا ت، لا ط، ج 3، ص 561، ابن كثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 63.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 179. للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 152.

عام الحزن

1. وفاة أبي طالب:

في آخر السنة العاشرة للبعثة، وهي السنة التي انتهى فيها حصار بني هاشم في الشعب، وبعد خروجه من الشعب بشهرين، في السادس والعشرين من شهر رجب⁽¹⁾، دخل رسول الله على أبي طالب وهو يوجد بنفسه، فمسح جبينه الأيمن أربع مرّات، وجبينه الأيسر ثلاث مرّات، ثم قال: «يا عمّ، ربّيت صغيراً وكفّلت يتيماً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عنّي خير الجزاء». وتوفّي أبو طالب وله من العمر ستّ وثمانون سنة⁽²⁾. واشتدّ له جزعه، وأمر عليّاً بتغسيله وتكفينه، ثمّ مشى بين يديّ سريه، وجعل يعرض له ويقول: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً»⁽³⁾.

2. وفاة السيدة خديجة:

ثمّ توفّيت السيّدّة خديجة عليها السلام بعده بثلاثة أيام⁽⁴⁾، أو قبله بخمس وثلاثين ليلة في شهر رمضان سنة عشرة من النبوة⁽⁵⁾. ولما توفيت خديجة، جعلت فاطمة تتعلّق برسول الله، وهي تبكي وتقول: «أين أمّي؟ أين أمّي؟». فنزل جبرئيل وقال: «قل لفاطمة: إنّ الله تعالى بنى لأمك بيتاً في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب»⁽⁶⁾. فدفنها رسول الله بالحجون، ونزل في حفرتها⁽⁷⁾.

(1) المحمّد آبادي، حسن الميرجهاني، مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة، لا، د، 1388هـ لاط، ص 566.
(2) الطبرسيّ، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص 52، قطب الدين الراونديّ، قصص الأنبياء، ص 330، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 35.
(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبيّ، مصدر سابق، ج 2، ص 28-29.
(4) وقيل: بشهر واحد، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 127، الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج 1، ص 346، المسعوديّ، علي بن الحسين، التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت، لبنان، لا، ط، ص 200. وقيل: توفيت قبله بخمس وثلاثين ليلة، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 1، ص 171.
(5) الشيخ الطبرسيّ، إعلام الوري بأعلام الهدى، مصدر سابق، ص 53.
(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبيّ، مصدر سابق، ج 2، ص 28، 29.
(7) الأربليّ، علي بن عيسى، كشف الغمّة، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1985م، ط 2، ج 2، ص 139.

وبوفاة خديجة التي كانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، ووفاة عمه أبي طالب الذي كان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه، اجتمع بذلك على رسول الله حزنان حتى عُرف ذلك فيه، وسمي ذلك العام عام الحزن⁽¹⁾. وهنا، استشعرت قريش الضعف في جبهة النبي، فعادت تحاول إلحاق الأذى به، وأخذت تضيق عليه الخناق، واشتدت أذيتها له، فاضطرَّ إلى البحث عن حلول جديدة من أجل فتح الآفاق أمام الدعوة، وإخراجها من محاصرة قريش.

هجرة النبي ﷺ إلى الطائف

خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف⁽²⁾ من أجل أن ينشر دعوته فيها، ويجد فيها النصر والمؤازرة والمنعة من قومه، وكان يرافقه في هذه الهجرة عليّ ﷺ وزيد بن حارثة. وكانت هذه الرحلة بداية جديدة في سياسته في الدعوة إلى الدين الحنيف. ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرفهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبیب بن عمرو، فجلس إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. ولكنهم بدلًا من أن يقبلوا دعوته، أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا يصيحون به ويسبونه، ولولا الإمام عليّ ﷺ الذي دافع عنه، لأصابه منهم أذى كبير⁽³⁾.

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة، وقد غاب ﷺ عن مكة في هذه الهجرة أربعين يومًا⁽⁴⁾. وتكشف هذه الهجرة عن أن توجه النبي ﷺ إلى الطائف بعد إعراض

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص259، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص317، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص173، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص358.

(2) تقع الطائف على بعد سبعين كيلو مترًا تقريبًا من مكة، وكانت موطنًا لقبيلة من قبائل هوازن، وهي ثقيف.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص80.

(4) العياشي، تفسير العياشي، ج1، ص257. الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص172.

أهل مكة عنه، دليل على حرص النبي ﷺ على هداية الناس، واستمراره في دعوته للإسلام، وعدم اليأس من استجابة الناس.

ثم إن هجرته ﷺ إلى الطائف لم تحقق إمكانية فتح منفذ للدعوة في قبيلة ثقيف، حيث رفضت ثقيف الانسياق مع دعوة النبي ﷺ بسبب علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية مع قريش، أو كان رفضهم بسبب عدم رغبتهم في التخلي عن آلهتهم في الوقت الذي كانت فيه قريش تعاند محمداً في الدفاع عن آلهتها، ومعنى تخليهم قد يكون بنظرهم بقاء قريش سيّدة الأصنام دونهم.

لقد كانت رحلة الطائف المحاولة الأخيرة للخروج من مكة من دون ضمانة أكيدة. ولذلك فقد دأب على الاتصال بالقبائل خلال موسم الحج. وبهذه الطريقة فشا أمر الإسلام، وانتشرت أخباره في أنحاء شبه جزيرة العرب، إلى أن التقى صدفة خلال تكراره الاتصال بقبائل العرب ببعض أهل يثرب من الأوس والخزرج كما سيأتي⁽¹⁾.

(1) للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص73.

المفاهيم الرئيسية

- كان الحمزة أحد وجهاء قريش، وكان لإسلامه أثر نوعي في تقوية جانب النبي ﷺ على جانب قريش.
- لقد استخدمت قريش كل الوسائل في محاربة النبي ﷺ حتى وصلت بها الأمور إلى إعلان المقاطعة الشاملة والكاملة لكل المسلمين كما في حصار الشعب.
- لقد كان بدء الحصار في الشعب متزامناً مع بداية الهجرة للحبشة، وقد استمرّ مدة أربع سنوات تقريباً.
- بعد إعلان المقاطعة جمع أبو طالب بني هاشم، وأعلن أمام الجميع دفاعه المستميت عن رسول الله ﷺ.
- خلال الحصار عمل الإمام عليّ ﷺ على محاولة جلب الطعام والشراب خفية من دون معرفة قريش بذلك، وكان يفعل ذلك أيضاً أبو العاص بن الربيع.
- انتهى حصار الشعب بعد أن أبلغ الوحي رسول الله ﷺ بأن الله سلط على صحيفة قريش الأرضة، فأخبر أبو طالب قريشاً بذلك، فتبيّن لهم صدق دعوى النبي ﷺ، ففكّوا عنهم الحصار.
- لم ينقطع النبي ﷺ عن دعوته رغم الحصار، فقد نزل عليه الوحي بإنذار العشيرة، فجمع كل بني هاشم لدعوتهم إلى الإسلام، ثم قرن دعوته بإعلان الإمام عليّ ﷺ خليفة له.
- في أواخر السنة العاشرة للبعثة توفي أبو طالب، ثمّ توفيت السيدة خديجة ﷺ، فحزن رسول الله ﷺ كثيراً، وسمّى هذا العام «عام الحزن».
- سعى رسول الله ﷺ لنشر دعوته خارج مكة، لعله يجد مكاناً يكمل فيه دعوته، فخرج إلى الطائف إلا أنّهم لم يقبلوا بهذه الدعوة، بل آذوا رسول الله ﷺ، فعاد إلى مكة من دون أن تحقق تلك الرحلة الهدف في تأمين مكان آخر للدعوة الإسلامية.

الدرس الثامن

يثرب قاعدة تأسيس الدولة الإسلاميّة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يحلّل ظروف وأسباب الهجرة إلى يثرب.
2. يعرف الخطوات التي بذلها النبي ﷺ لتوحيد الأوس والخزرج تحت راية الإسلام.
3. يشرح معنى البيعة وآثارها على قوّة الإسلام ومنعته.

تمهيد

بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة، وصل النبيّ مع قريش إلى طريق مسدود، فقد آمن من آمن منها، وبقي غيرهم على شركه وعناده. ولم يعد ممكناً الحصول من مكة على المزيد، فلم يبقَ من جدوى بعد في الصبر على الأذى والتحمّل طالما أنه لا يوجد أمل في إيمان آخرين من قريش.

فبدأت مرحلة فجر الدعوة المكيّة بالأفول، وأشرقت مرحلة الحفاظ على المكاسب الإيمانيّة التي حصلت، وإنقاذها من التدمير من قبل قريش، فلا بدّ من البحث عن مكان آمن تنتقل إليه الدعوة الإسلاميّة. وكانت مدينة يثرب من المدن التي يمكن أن يتطلّع إليها رسول الله ﷺ؛ لوجود بعض المؤهّلات التي يمكن من خلالها احتضان الإسلام والمسلمين فيها.

التعريف بمدينة يثرب

تعتبر مدينة يثرب من المدن التاريخيّة القديمة، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد وجد في الآثار المكتشفة ورود اسم يثرب فيها، وكان يطلق عليها أثرب ويثرب⁽¹⁾.

تقع مدينة يثرب على بعد 400 كلم تقريباً إلى الشمال من مكة، في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات، في صرّة سبخة من الأرض، كثيرة المياه والشجرات والدوحات، وأقرب الجبال إليها من الشمال جبل أحد. وإلى الشرق من يثرب يقع بقيع

(1) الحمويّ، معجم البلدان، ج7، ص227، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص128.

الغرقد، ويقع جبل عير في جنوبها الغربي، وإلى الجنوب قرية قباء، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرغ، ووادي العقيق في ما بينها وبين الفرع⁽¹⁾.
وقد ورد اسم «يثرب» في القرآن الكريم عند تعرّضه لما يقوله المنافقون بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۗ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾⁽²⁾.

أسباب الهجرة إلى يثرب

يمكننا تحديد بعض الأسباب التي دفعت رسول الله ﷺ لفتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية خارج مكة المكرمة، وهي:

1. قريش ترفض الإسلام: لقد سعى رسول الله ﷺ جاهداً إلى نشر الإسلام في مكة المكرمة، وكان حريصاً على هداية قريش والقبائل العربية المجاورة إلى الإسلام، إلا أن قريشاً رفضت الإسلام رفضاً قاطعاً، وواجهته بشتى الوسائل المتاحة، فلم يعد الناس يقبلون الإسلام في مكة، فلا بد من البحث عن مكان آخر لنشر الإسلام فيه.
2. أذية النبي ﷺ: عندما أعلن رسول الله ﷺ دعوته في مكة المكرمة، واجهته قريش بشتى الوسائل والأساليب، وتعرّض رسول الله ﷺ للابتلاء الشديد، والمحن العصبية، فقد آذاه قومه بكل أنواع الإيذاء، واستخدموا معه كل ما استطاعوا للقضاء على الإسلام.
3. أذية المسلمين: إن القاعدة الشعبوية التي يركز عليها الإسلام تعرّضت هي الأخرى لأشد وأقسى أنواع العذاب من قبل قريش، فها هم عائلة آل ياسر يمثلون نموذجاً على ذلك، فقد تعرّضوا لأقسى أنواع العذاب من الضرب والإهانة، وشدة التعذيب، وغيرها.

(1) الحموي، معجم البلدان، ج7، ص227.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان 12 و13.

لماذا اختار رسول الله ﷺ المدينة المنورة؟

1. مقومات الدولة في يثرب:

إنّ مدينة يثرب من المناطق التي تتوفر فيها مقومات الدولة، من حيث الموقع الجغرافي، والموارد الطبيعيّة الكامنة فيها. فموقعها الجغرافي في وسط شبه الجزيرة العربيّة يوفر القدرة على الاتّصال بجميع المناطق المحيطة بها في جميع الجهات. ومن جهة أخرى، قربها من مكّة المكرّمة، حيث توجد أقوى قوّة تعادي رسول الله ﷺ، ممّا يسمح للنبيّ ﷺ بديمومة المرابطة لكلّ تحرّكات قريش داخل الجزيرة العربيّة، وارتباطها بالقبائل الأخرى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ المدينة المنورة تتوافر فيها الموارد الطبيعيّة التي تسمح بتأمين مصادر العيش والحياة؛ فأرضها تصلح للزراعة، وبالتالي فتح مجال للتجارة والبيع، ممّا يؤمّن للمسلمين موارد الحياة الماديّة والماليّة، وهي مناسبة جدّاً للحياة، فأرضها ليست صخريّة وجبليّة، وليست صحراويّة أيضاً، وهذا يساعد على إنشاء الدولة الإسلاميّة المرتقبة.

2. السلطة السياسيّة:

إنّ تركيبة المدينة المنورة السياسيّة كانت لا تسمح بوجود قوة سياسيّة يمكن أن تواجه النبيّ ﷺ في تحرّكاته ودعوته. فالمدينة فيها الأوس والخزرج، وهما قبيلتان عربيّتان متناحرتان، وفيها اليهود الذين يفتقدون السلطة السياسيّة في المدينة، وشغلهم الشاغل فقط التجارة، وإذكاء نار الفتنة بين الأوس والخزرج. هذا كلّ لا يؤهّل أحداً للوقوف في وجه النبيّ ﷺ خلافاً لمكّة التي تركز فيها قوّة هي قريش.

3. البيئة الاجتماعيّة المساعدة:

إنّ الأجواء الاجتماعيّة التي كانت سائدة في المدينة المنورة بين الأوس والخزرج ساعدت النبيّ ﷺ على نشر دعوته بين هاتين القبيلتين بشكل سريع. فالإسلام يمنع التناحر والتباغض، ويرفع الظلم عن جميع أبناء المجتمع، وهذا كلّ كان مفقوداً عند

هاتين القبيلتين. ولذا دخل الإسلام سريعاً إلى يثرب، وانتشر فيها كما سيأتي، وهذا كله يساعد رسول الله ﷺ على تأسيس دولته في مدينة يثرب.

بداية دخول الإسلام إلى يثرب

كانت الحرب سجلاً بين الأوس والخزرج، وكانت قريش تمرّ على يثرب في طريقها التجاريّ إلى بلاد الشام. ولا شكّ في أنّ شعوراً بوجود ردّ الجميل إلى قريش دفع بقبيلة الأوس إلى أن تبحث عن حليف عسكريّ لها في قريش ضدّ أختها الخزرج، فأرسلت الأوس وفداً بقيادة أنس بن رافع، فيه أياس بن معاذ لطلب الحلف مع قريش ضدّ قومهم من الخزرج، ولكنّ فألهم خاب من جهة، إذ لم تكن قريش لتدخل في هذه الأحلاف، وهي تحتاج إلى أمن قوافلها، وخاب من جهة أخرى، فقد ذهب الأوس يطلبون ناراً فعادوا بالإسلام، إذ سمع بهم رسول الله، فأتاهم وجلس إليهم، وعرض عليهم الإسلام، فأسلم أياس بن معاذ، وطلب من الوفد أن يقتنص الفرصة فأبوا ذلك⁽¹⁾، ويظهر أنّ هذا الوفد لم يشكّل بداية لانتشار الإسلام في يثرب.

ثمّ شبّت نار العداوة ثانية بين الأوس والخزرج، ولكنّ هذه المرّة تميّزت بموقف غير طبيعيّ، ولا يتناسب مع طبائع الجاهليّة. فقد رفض عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول، شيخ الخزرج، موقف قبيلته، وعدّها ظالمة في حربها مع الأوس، وأعلن أنّه لن يشارك في هذه الحرب لأنّ الخزرج ظالمة. فنشبت الحرب بينهما، وعُرفت بحرب بعاث، انتصرت فيها الأوس، ولكنّها حفظت له موقفه، فأصبح عزيزاً عند الأوس، ونشأت فكرة تكريمه بتنصيبه زعيماً على يثرب، وابتدئّت إجراءات التنصيب.

في تلك المرحلة، خرج أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد القيس الخزرجيّان في أحد المواسم، يسألان قريشاً الحلف بينهم على الأوس، إلا أنّهما فشلا في تحقيق ذلك. فقريش تحتاج إلى إيلاف مع الجميع لصون طريقها التجاريّ، ولا تغامر في الدخول في أتون الصراعات القبليّة، فقد كانت تجارتها هي التي تحدّد سياستها.

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، مصدر سابق، ج1، ص428.

وكان هذا الوفد قد وصل إلى مكة في أيام العمرة في رجب، في آخر سنوات الحصار في الشعب، وهي السنة العاشرة للبعثة. وكان رسول الله وبنو هاشم يغادرون منطقة الشعب حيث حاصرتهم قريش للطواف بالبيت، والاتصال بالوفود والتجار القادمين. كان النبي قد خرج مع مجموعة من بني هاشم ليشهدوا الموسم، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم كالنضير، وقريظة، وقينقاع أن هذا أوان نبي يخرج بمكة؛ يكون مهاجره إلى المدينة، لنقتلكم به يا معشر العرب. فلما سمع أسعد بأخبار ظهور النبي ﷺ، وقع في قلبه ما كان قد سمعه من اليهود، فقال: «فأين هو؟». دخل أسعد المسجد، وقد حشا أذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه. ولما كان في الشوط الثاني قال لرسول الله: «أنعم صباحاً». فرفع رسول الله رأسه إليه، وقال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة: السلام عليكم». فقال له أسعد: «إن عهدك بهذا لقريب، إلام تدعو يا محمد؟».

قال ﷺ: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأدعوكم إلى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيَّكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقِ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ وَصَلْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ وَصَلْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾»⁽¹⁾.

فلما سمع أسعد بهذا، قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنت رسول الله»⁽²⁾. ثم رجع إلى المدينة، وكانت هنا البداية في انتشار الدعوة الإسلامية في مدينة يثرب.

(1) سورة الأنعام، الآيتان 151 - 152.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص9، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص58، ابن هشام، السيرة النبوية ج2، ص-77 80.

وإن كان هذا الوفد قد فشل في الحصول على حلف مع قريش، لكنّه نجح في الحصول على نور الهداية، وعاد إلى يثرب وهو يحمل من دون أن يعلم مشروعاً لا يتناسب مع طموحات عبد الله بن أبيّ في الزعامة، ولم يخطر ببال أسعد وذكوان أن طريقاً جديداً قد فتحاه أمام الدعوة النبوية.

اللقاء الأول للخزرج بالنبي ﷺ في موسم العمرة

في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية، وفي موسم الحج، ظهر أن البذرة الصالحة لأسعد بن زرارة قد نبتت في أرض يثرب المتلهفة للهدى والطمأنينة والخلاص، فعاد مع خمسة من الخزرج الذين التقوا بخاتم النبيين في منى؛ حيث كان رسول الله ﷺ يعرض على القبائل دعوته، ويطلب منهم نصرته. فالتقى بهم في العقبة، وكانوا ستة رجال: أسعد بن زرارة، وجابر بن عبد الله بن رثاب، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وعقبة وقطبة ابنا عامر. ويبدو أن أسعد بن زرارة كان قد كتم إسلامه هو وذكوان، وجاء بالآخرين من الخزرج وهما يخفيان عليهم إسلامهما، ثم رتبا اللقاء بينهم وبين رسول الله ﷺ، حتى يظهر كأنه وقع صدفة من دون إعداد مسبق. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أفلا تجلسون أحدثكم؟». قالوا: «بلى!»، فجلسوا إليه، ودعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: «والله إنّه للنبيّ الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا تسبقنكم إليه»، فصدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: «إنّا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم، فعسى أن يجمع الله بينهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله بك فلا رجلاً أعزّ منك»⁽¹⁾. ثمّ انصرفوا عن رسول الله، وانتهى موسم الحج، وقفلوا راجعين إلى قومهم في يثرب.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص77. الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص58، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص9. للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص117.

البيعة والقاعدة الشعبية المناصرة

بعد أن دخل الإسلام إلى مدينة يثرب وانتشر فيها، اعتمد رسول الله ﷺ على خطوة ثانية في تلك المرحلة. كانت هذه الخطوة ضرورية من أجل حماية الدعوة الإسلامية الناشئة. وقد تمثلت هذه الخطوة بأخذ البيعة من المسلمين في مدينة يثرب، وكان رسول الله ﷺ يهدف من خلال ذلك إلى تأمين القاعدة الشعبية المناصرة له، والتي تستطيع أن تحمي دعوته المباركة، وتكون تلك الفئة الملجأ الذي سوف يتجه إليه المسلمون في وقت لاحق. وقد نجح رسول الله ﷺ في تحقيق هذه الخطوة من خلال عقد بيعتين مع الأنصار، هما:

1. بيعة العقبة الأولى:

في السنة الثانية عشرة من البعثة، وافى الموسم اثنا عشر رجلاً؛ اثنان منهم أوسيان، والباقون من الخزرج. فالتقوا مع الرسول ﷺ في العقبة، وبايعوه: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء عدب، وإن شاء غفر». وسميت هذه البيعة بيعة النساء؛ لأنها لم تشمل البيعة على الحرب. ولما رجعوا إلى يثرب، أرسل النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وألحق به ابن أم مكتوم⁽¹⁾.

انتشار الإسلام في يثرب بين البيعتين

نجح مصعب بن عمير، ومن معه ممن أسلم، في الدعوة إلى الله تعالى في أوساط أهل يثرب، فما بقي دار من دور عمرو بن عوف في ذلك اليوم، إلا وفيه مسلم أو مسلمة.

(1) دحلان، السيرة النبوية، ج1، ص151، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص9، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص127.

وهكذا، أقام مصعب بن عمير في يثرب يدعو الناس إلى الإسلام، وكان يخرج في كل يوم يطوف فيه على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام، حتى شاع الإسلام فيها وكثر، وأسلم الرجال والنساء، ودخل في الإسلام أشرف الأوس والخزرج، وذلك لما عندهم من أخبار اليهود، باستثناء جماعة من الأوس⁽¹⁾.

عاد مصعب بن عمير إلى مكة في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة للبعثة، وقدم تقريره إلى النبي؛ فسر النبي بذلك سروراً عظيماً⁽²⁾. وكان قد أتى من يثرب إلى الموسم في هذا العام عدد كبير من أهلها، قدروا بخمسمئة، بين مسلم ومشرك، وكان المسلمون ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين⁽³⁾.

2. بيعة العقبة الثانية:

في الموسم القادم، خرج جمع من الأوس والخزرج وقدموا مكة، وكان أكثرهم مشركين على دينهم، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفيهم ممن أسلم بشر كثيرين جاؤوا مع حجاج قومهم. وكان رسول الله ﷺ نازلاً في دار عبد المطلب، في منى في أيام موسم الحج، ومعه عليّ عليه السلام وحمزة. فجاءهم رسول الله وتواعد معهم على اللقاء في دار عبد المطلب في العقبة، في أواسط أيام التشريق ليلاً؛ إذا هدأت الرجل، حتى إذا انكشف أمرهم، فإنهم يكونون قد أتموا حجهم، ويستطيعون مغادرة مكة من دون أن يستطيع أحد الضغط عليهم، وأمرهم أن لا ينهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً حتى لا يلاحظ أحد حركتهم، ويرتاب في أمرهم.

فلما حجوا رجعوا إلى منى، وناموا مع قومهم المشركين في رحالهم، حتى إذا مضى ثلث الليل أخذوا يتسللون إلى المكان المتفق عليه، وهناك وجدوا النبي بانتظارهم ومعه عليّ بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، فدخلوا الدار، ولما اجتمعوا كانوا

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص70-93، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص90، ابن كثير، السيرة النبوية،

ج2، ص184، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص14، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص181.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19 ص12، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص59.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، مصدر سابق، ص149.

ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين⁽¹⁾.

وبعد أن عرف النبي إجابته، أراد أن ينتخب منهم اثني عشر نقيباً، من أجل تنظيم علاقاته بهم، ووضعهم أمام المسؤولية دائماً عبر هؤلاء الكفلاء، فقال لهم: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكفلون عليكم بذلك، كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً»⁽²⁾. فأشار جبرئيل عليه السلام إليهم، يدلّ رسول الله ﷺ عليهم واحداً واحداً. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أبايعكم كبيعة عيسى ابن مريم للحواريين، كفلاء على قومكم، على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فبايعوه على أن يمنعوه وأهله ممّا يمنعون منه أنفسهم، وأهليهم وأولادهم، وأن يؤوؤوهم، وينصروهم، وعلى السمع والطاعة، والنفقة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يقولوا في الله، ولا يخافوا لومة لائم، وأن لا ينازعوا الأمر أهله⁽³⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ج1، ص220.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص12، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص299، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص162، السيرة النبوية، ابن كثير، ج2، ص193، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص176.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص7، مسند أحمد بن حنبل، ج5، ص314، النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1930م، ط1، ج7، ص138 و139، البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص156، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص194، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص97، ابن كثير، السيرة النبوية، ج2، ص204، مسلم، صحيح مسلم، ج6، ص16، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص133.

المفاهيم الرئيسية

- إن هنالك العديد من الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ إلى ترك مكة، وهي:
 - أ. أن قريشاً رفضت الدعوة الإسلامية بالكامل، ولم ترضَ بها أبداً.
 - ب. تعرّض شخص النبي ﷺ للأذية المباشرة من قبل قريش.
 - ج. أن المسلمين قد تلقوا الكثير من الظلم والاضطهاد من قبل قريش.
 - لقد اختار رسول الله ﷺ يثرب لأسباب عدة، وهي:
 - أ. إن مدينة يثرب تتمتع بخصائص بيئية تتوفر من خلالها مقومات قيام الدولة.
 - ب. إن يثرب لا تحكمها قوة سياسية وازنة، بل حكم قبلي بين الأوس والخزرج.
 - ت. البيئة الاجتماعية خصوصاً مع رؤية التناحر بين قبيلتي الأوس والخزرج.
- لقد انتشر الإسلام في مدينة يثرب من خلال وفد من قبيلة الأوس حضر إلى مكة من أجل أن يبحث عن حلف عسكري مع قريش، فالتقى بهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وبدأ بذلك انتشار الإسلام في مدينة يثرب.
- في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية التقى رسول الله ﷺ بوفاة من قبيلة الخزرج، وهذا ما ساعد على توسعة القاعدة الشعبية في يثرب.
- بعد أن أسس رسول الله ﷺ النواة الأولى في يثرب، بدأ ﷺ المرحلة الثانية، وهي أخذ البيعة من المسلمين الجدد فيها، فعقد معهم بيعة العقبة الأولى وبايعوا رسول الله ﷺ ببيعة النساء، وهي البيعة التي لا تشتمل على الحرب والقتال.
- بعد عقد بيعة العقبة الأولى انتشر الإسلام سريعاً في يثرب، فقد أوفد معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير الذي بدأ ينشر الإسلام فيها مع من آمن من أهلها، فانتشر الإسلام، وذاع في يثرب حتى دخل اسم رسول الله ﷺ كل بيت من بيوتها.
- في السنة الثالثة عشرة للبعثة عقد رسول الله ﷺ مع وفد المسلمين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية. وكان رسول الله ﷺ قد تواعد معهم على أخذ البيعة بعيداً عن أنظار قريش.

الدرس التاسع

الهجرة إلى يثرب

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف المؤامرة على حياة النبي ﷺ.
2. يتعرف إلى دور الإمام عليّ ؑ في الهجرة إلى يثرب.
3. يفهم أسباب بناء النبي ﷺ لمسجد قبا وأهدافه.

تمهيد

قبل بيعة العقبة، لم يكن يؤذن لرسول الله ﷺ في الحرب وقتال المشركين بعد، وإنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل المعتدي. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنهم عن دينهم ونفوسهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً، منهم: من هو بأرض الحبشة، ومنهم من هو بيثرب. وأدرت قريش أن محمداً لن يسكت، وسوف يستمر بدعوته خارج مكة المكرمة، وهذا سوف يؤلب القبائل العربية ضدها، فلا بد من اتخاذ خطوة نهائية اتجاهه. ولذا قررت قريش تصفية النبي ﷺ جسدياً، إلا أن القدرة الإلهية حمت النبي ﷺ، فجاءه الإذن الإلهي بضرورة التوجه إلى يثرب وترك مكة، فهاجر النبي ﷺ، ثم هاجر بعده الإمام عليّ عيسى السلام والفواطم.

وكان وصول النبي ﷺ إلى قبا بداية تأسيس بعض معالم الإسلام ببناء المسجد في قبا، وبيان مكانة الإمام عليّ عيسى السلام، حتى وصل إلى يثرب مبشراً ببداية مرحلة جديدة من دعوته المباركة.

هجرة المسلمين إلى يثرب

لما أذن الله تعالى للنبي ﷺ في أخذ البيعة من المسلمين للحرب، وبايعه الحيان من الأوس والخزرج على الإسلام، والنصرة له ولمن تبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر الله تعالى المستضعفين من المؤمنين في مكة؛ والذين كان يؤذيهم المشركون

في مكة بالهجرة عنها⁽¹⁾، فنزل قوله سبحانه: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾⁽²⁾، فقالوا: «كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟»، فنزل فيهم⁽³⁾ قوله سبحانه: ﴿وَكَايِنٍ مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رَزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽⁴⁾. ثم ختمت السورة توصيتها المسلمين بالصبر والجهد، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁵⁾. فأمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه في مكة من المسلمين، بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأوس والخزرج، وقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا، وَدَارًا تَأْمَنُونَ بِهَا»⁽⁶⁾.

فكان رسول الله يأمر من تعذبه قريش بالخروج إلى يثرب، فأخذوا يتسللون رجلاً فرجلاً، فيصيرون إلى يثرب، فينزل لهم الأوس والخزرج عليهم ويواسونهم. وكانوا يخرجون أرسالاً (جمعاً فجمعاً)، وأتبعهم المشركون فأذوهم واعتقلوهم، فمنهم من نجا ومنهم من قتل. وأقام رسول الله في مكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج منها والهجرة إلى يثرب⁽⁷⁾.

ولم يتخلف في مكة أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن، إلا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والفواطم⁽⁸⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج 8، ص 455.

(2) سورة العنكبوت، الآية 56.

(3) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 455، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 28.

(4) سورة العنكبوت، الآية 60.

(5) سورة العنكبوت، الآية 69.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 321.

(7) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 58، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 321.

(8) ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 227، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح

من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 168.

المؤامرة على حياة النبي ﷺ

قررت قريش اتخاذ قرار نهائي بشأن النبي، خصوصاً بعد موت أبي طالب، وفقدان الناصر للنبي ﷺ⁽¹⁾. فتداعت إلى الاجتماع في دار الندوة، فالتأم حلف لعقاة الدم من بني عبد شمس ونوفل وعبد الدار، ومن كان في حلفهم، واستثنوا من كان هواه مع محمد من بطون قريش.

وخرج من كل بطن أناس، وانطلق ذوو الطول والشرف من قريش إلى دار الندوة ليأتروا في رسول الله ﷺ، وأسروا ذلك في ما بينهم. وكان ممن حضر أبو سفيان وأبو لهب، ومعوية، وأبو جهل، وعمرو بن العاص، وصفوان بن أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وغيرهم⁽²⁾. فأخذوا مجلسهم وتشاوروا، وكانت أمامهم اقتراحات عدة: المواجهة، أو النفي، أو الحبس، أو القتل. وبعد نقاش مطول، تم الاتفاق على التصفية الجسدية لرسول الله ﷺ، ولكن على أن تشترك في قتله كل البطون من قريش - وتم تعيين أشخاص القتلة - وبالتالي يضيع دمه بين القبائل، ولا يجرؤ بنو هاشم وحلفاؤهم على طلب دمه والثأر له، وسوف يوافقون في النهاية على القبول بالدية⁽³⁾.

التحضير للهجرة النبوية وإيثار الإمام علي عليه السلام

بعد مكر قريش وتخطيطها لقتل النبي ﷺ، نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بما كان من كيدهم، وأخبره الخبر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾⁽⁴⁾. ثم جاءه بأمر من الله في ذلك

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج2 ص39، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص25.

(2) ابن شبة النميري، عمر بن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم، إيران، 1410هـ ل.ط، ج3، ص1138، الشيخ الصدوق، الخصال، ص366، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ص356، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري - السيد محمود الزندي، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص165، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص28.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص332، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص273، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص68، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص229، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص179.

(4) سورة الأنفال، الآية 30.

ووحيه، وما عزم له من الهجرة، ثم إنَّ النبي ﷺ منع مَنْ بقي من أصحابه ولم يهاجر بعد من الخروج من داره في تلك الليلة⁽¹⁾. ثم دعا علياً بن أبي طالب ﷺ لوقته، فقال له: «يا علي، إنَّ الروح هبط عليَّ يخبرني أنَّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنَّه أوحى إليَّ عن ربي عزَّ وجلَّ أن أهجِر دار قومي، وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي، وإنَّه أمرني أن أمرك بالمبيت على مضجعي لتخفي بمبيتك عليهم أثري، فما أنت صانع؟».

فقال عليٌّ ﷺ: «أوتسلمن بمبيتي هناك يا نبيَّ الله؟»، قال: «نعم». فتبسَّم عليٌّ ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لما أنبأه به رسول الله من سلامته. فلما رفع عليٌّ ﷺ رأسه، قال لرسول الله: «امض بما أمرت، فذاك سمعي وبصري، وسويداء قلبي، ومرني بما شئت، وإن توفيقني إلا بالله».

فقال له: «فارق علي فراشي، واشتمل ببردي الحضرمي، ثم إنني أخبرك، يا علي، أن الله تعالى يمتحن أوليائه على قدر إيمانهم، ومنازلهم من دينه، فأشدَّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنتك يا ابن عمِّ، وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل ﷺ، فصبراً صبراً، فإنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين.

ثم ضمَّه النبي ﷺ إلى صدره وبكى وجداً به، وبكى عليٌّ ﷺ لفراق رسول الله ﷺ. ولبث رسول الله بمكانه مع عليٍّ ﷺ، يوصيه ويأمره في ذلك بالصبر حتَّى صلياً العشاءين⁽²⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص73، قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1 ص144.
(2) الخوارزمي، المناقب، ص73، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص133، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1، ص321، الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، وشواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، 1990م، ط1، ج1، ص99، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص100، النسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق وتصحيح الأسانيد ووضع الفهارس: محمد هادي الأميني، خصائص أمير المؤمنين، مكتبة نينوى الحديثة، طهران، إيران، لات، لا، ط، ص63، الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج9، ص120، محب الدين الطبري، ذخائر العقبى، ص87، ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415هـ، لا، ط، ج1، ص186، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص181.

فشل المؤامرة القرشيّة

لَمَّا أَمَسَى الظلام، جاء الرصد من قريش؛ قد أطافوا بدار النبيّ ينتظرون أن ينتصف الليل، وتنام الأعين، ليدخلوا عليه. ونام عليّ عليه السلام في فراش النبيّ، واشتمل ببرده الحضرميّ، بينما كانت عيون الرصد من قريش تطوف بداره، وقد اجتمع القتلة في خارج الدار ينتظرون خروج النبيّ.

فجاء جبرئيل، وأخذ بيد رسول الله، فأخرجه على قريش، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَهُمُ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁽¹⁾. فمرّ رسول الله صلى الله عليه وآله من بينهم، ولم يشعروا به، ومضى وهم لا يرونه، ووضع التراب على رؤوس المحاصرين لبيته⁽²⁾، وقال له جبرئيل: «خذ على طريق ثور»⁽³⁾، وكان ذلك في ليلة الخميس، أول ليلة من شهر ربيع الأوّل.

ثمّ أقبلوا يقذفون النائم - على أنه رسول الله صلى الله عليه وآله - بالحجارة، فجعل الإمام عليّ عليه السلام يتصوّر (أي يتلوّى ويتقلّب)، وقد لفّ رأسه في الثوب لا يخرج حتى أصبح، وهم يرون ولا يشكّون أنه النبيّ صلى الله عليه وآله، حتى إذا برق الفجر، وأشفقوا أن يفضحهم الصبح، قال لهم قائل منهم: «خبتم وخسرتم، قد والله مرّ بكم، فما منكم رجل إلّا وقد جعل على رأسه تراباً!». قالوا: «والله ما أبصرناه!»، ثمّ هجموا، فلمّا بصر بهم عليّ عليه السلام قد انتضوا السيوف وأقبلوا عليه، شدّ عليهم عليّ عليه السلام، فأجفلوا أمامه وتبصّروه، فإذا هو عليّ عليه السلام، ثمّ تركوه، وتفرّقوا في طلب رسول الله⁽⁴⁾.

(1) سورة يس، الآية 9.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج3، ص103، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص21.

(3) وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور، راجع: علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص277، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص61، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص335.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص21 - 25، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م، ط1، ج2، ص118 - 122، الطبرسي، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص102، الشيخ الطوسي، الأمالي، ج2، ص446، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج2، ص127، السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج2، ص245، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج4، ص272، البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص184، النسائي، سنن النسائي، ج2، ص92، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج3، ص103، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج4، ص182.

الهجرة النبوية

1. طريق الهجرة:

خرجت قريش في طلب رسول الله ﷺ ورصدت عليه العيون، وكان فيهم رجلٌ من خزاعة، يقال له أبو كرز، يقفو الآثار، فقالوا له: «يا أبا كرز اليوم اليوم!»، فوقف بهم على حجرة رسول الله، فقال: «هذه قدم محمد، والله إنها لأخت القدم التي في المقام⁽¹⁾». فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار، حيث كانت العنكبوت قد نسجت على باب الغار، وباضت في مدخله حمامة وحشية⁽²⁾، فاستدلوا من ذلك على أن الغار مهجور، لم يدخله أحد، وإلا لتخرق النسيج، وتكسر البيض، ولم تستقر الحمامة الوحشية على بابه.

وأمهل أمير المؤمنين ﷺ إلى الليلة القادمة؛ فانطلق تحت جنح الظلام هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا الغار على رسول الله ﷺ، ثم مكث رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً، فكان عليّ ﷺ يأتيه بالطعام والشراب⁽³⁾.

2. الانطلاق نحو يثرب:

في ليلة يوم الأحد، الرابع من شهر ربيع الأول، انطلق النبي ﷺ إلى يثرب بعد أن استتر في الغار ثلاثة أيام، وكان وجوده فيه سرّياً⁽⁴⁾، فأخذ به ابن أريقط، وكانت قريش قد جعلت لمن يأخذ رسول الله مئة من الإبل، فلحق سراقه برسول الله، طالباً غرته ليحظى بذلك عند قريش.

(1) مقام إبراهيم، وهي قدمه، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج19، ص51.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص61، ص147، قطب الدين الراوندي، في الخرائج والجرائح، ج1، ص44، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص181 و182، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص228، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص374، الشيخ الطوسي، الأمالي ج2، ص61، وص78.

(3) تاريخ الخميس، ج1، ص328. الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص374، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص469، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص62، السمهودي، علي بن أحمد المصري، وفاء الوفاء، ج1، ص237، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص570، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص131.

(4) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص190، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص84.

حتى إذا أمكنته الفرصة في نفسه، وأيقن أن قد ظفر ببغيته، قال رسول الله: «اللهم اكفني شرّ سراقه بما شئت»، فارتطمت فرسه في الأرض وساخت قوائمها حتى تغيبت بأجمعها في الأرض، وحاول ذلك مراراً، وفي كل مرة ترتطم قوائم فرسه حتى تغيب في الأرض، فرجع عنه.

فلما كان من الغد وافته قريش، فسألته عن رسول الله ﷺ. قال: «... قد نفضت هذه الناحية لكم، ولم أر أحداً ولا أثراً، فارجعوا فقد كفيتمكم ما ها هنا»⁽¹⁾.

3. على مشارف يثرب:

استمرّ النبي في هجرته حتى اقترب من يثرب. وكان أناس من المهاجرين قد قدموا على بني عمرو بن عوف قبل قدوم رسول الله فنزلوا فيهم، فنزل رسول الله ﷺ عندهم أيضاً. وافى رسول الله ﷺ ونزل في قباء مع زوال شمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فصلّى الظهر ركعتين⁽²⁾.

ورفض رسول الله ﷺ دخول المدينة، قائلاً: «لست أريم حتى يقدم ابن عمي، وأخي في الله عزّ وجلّ، وأحبّ أهل بيتي إليّ، فقد وقاني بنفسه من المشركين!». وبقي رسول الله ﷺ ينتظر علياً عليه السلام، ويقول: «إني أنتظر عليّ بن أبي طالب وقد أمرته أن يلحقني، ولست مستوطناً منزلاً حتى يقدم عليّ، وما أسرعه، إن شاء الله»⁽³⁾. وانتشر في المدينة خبر وصول النبي ﷺ إلى قباء، وأنه سوف يمكث هناك بانتظار أخيه ووصيه عليّ بن أبي طالب، فاندفع المسلمون وأهلوه من تبعهم يزورونه في قباء ويسلمون عليه، ويتشرفون برؤيته زرافات ووحداناً.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص219، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص24 - 64، قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1، ص145، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص273.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص280، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص104.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص280، ابن الصباغ المالكي، علي بن محمد، الفصول المهمّة، تحقيق: سامي الغريزي، دار الحديث، قم، إيران، 1422 هـ ط1، ج1، ص35، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص83، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص66، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص64، ص75، ص106، ص115.

هجرة علي بن أبي طالب عليه السلام

1. الإمام علي عليه السلام يؤدي الأمانة:

كانت قريش في الجاهلية تدعو رسول الله بـ«الأمين»، فكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها. فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوة وعشيّاً: «من كان له قبل محمد أمانة أو ودیعة؛ فليأت فلنؤدّ إليه أمانته»؛ فأدى علي عليه السلام أماناته كلها⁽¹⁾.

وقال له أيضاً: «إذا قضيت ما أمرتك من أمر؛ فكن على أهبة الهجرة إلى الله ورسوله، وسر إليّ لقدم كتابي عليك، ولا تلبث»⁽²⁾.

2. الهجرة إلى يثرب:

لمّا أتى علياً عليه السلام كتاب رسول الله ﷺ تهباً للخروج، وعزم على الهجرة، فأذن من كان معه من ضعفاء المؤمنين، وأمرهم أن يتسللوا ويتحفّظوا إذا ملأ الليل بطن الوادي إلى ذي طوى⁽³⁾، وخرج علي عليه السلام بفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وبات ليله في طريقه. فلما أصبح علي عليه السلام توجه نحو المدينة⁽⁴⁾، وجعل أبو واقد يسوق بالرواحل فأعنف بهم، فقال علي عليه السلام: «ارفق بالنسوة، أبا واقد! إنهنّ من الضعائف». قال: «إني أخاف أن يدركنا الطلب». فقال علي عليه السلام: «أربع عليك، فإن رسول الله قال لي: يا علي، إنهم لن يصلوا من الآن إليك بأمر تكرهه».

ويبدو أنّ قريشاً علمت بخروجه مع الفواطم، فلما شارف ضجنان أدركه الطلب، وكانت مجموعة المطاردة ثمانية فوارس من قريش مستلّمين متلّثمين، فحاولوا اعتراض القافلة، فتمكّن الإمام علي عليه السلام من مواجهتهم، فهربوا إلى مكة.

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص190، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص57.

(2) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص300، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص63.

(3) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص84، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص64.

(4) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج2، ص59.

ثم سار لوجهه يجوب منزلاً بعد منزل لا يفتقر عن ذكر الله، وكذلك الفواطم وغيرهن ممن صحبه، حتى قدم المدينة في أواخر شهر ربيع الأول⁽¹⁾.
وبلغ النبي ﷺ قدومه ﷺ فقال: «ادعوا لي علياً!»، فقيل: «يا رسول الله، لا يقدر أن يمشي!».

فأتاه ﷺ بنفسه، فلما رآه اعتنقه، وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانت تقطران دماً، فقال ﷺ لعليّ ﷺ: «يا علي، أنت أول هذه الأمة إيماناً بالله ورسوله، وأولهم هجرة إلى الله ورسوله، وآخرهم عهداً برسوله، لا يحبك - والذي نفسي بيده - إلا مؤمن قد امتحن قلبه للإيمان، ولا يبغضك إلا منافق أو كافر»⁽²⁾، ونزل مع رسول الله عند كلثوم بن الهدم⁽³⁾.

المسجد الأول في الإسلام: «قباء»

بقي رسول الله ﷺ بعد قدوم عليّ يوماً أو يومين. وفي يوم الجمعة، أمره رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ بأن يخط لبناء مسجد، فخط لمسجد قباء موضعاً، وهو المسجد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾⁽⁵⁾. وكانت قبلته إلى بيت المقدس. فلما أسسه الرسول ﷺ استتم بنيانه عمار بن ياسر⁽⁶⁾، وصلى رسول الله ﷺ بهم في المسجد الجمعة ركعتين، وخطب خطبتين، ثم انطلق إلى يثرب⁽⁷⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص115، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص197.
(2) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص83، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص64، ص67، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص183.
(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص115، ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص197، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص276.
(4) ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج1، ص54.
(5) سورة التوبة، الآية 108.
(6) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص143.
(7) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص338، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص59، ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج1، ص68، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص324.

رسول الله ﷺ في يثرب

انطلق رسول الله ﷺ إلى المدينة على ناقته التي كان قد قدم عليها، يحفّه أهلها المسلمون بالتكبير والتهليل، وعليّ ﷺ لا يفارقه، يمشي بمشيه، ولا يمرّ النبيّ ببطن من بطون الأنصار إلا قاموا إليه يسألونه أن ينزل عليهم. وكان رؤوس الأوس والخزرج على رأس المستقبلين، وكلّ واحد منهم يرغب في أن ينزل رسول الله ﷺ في داره.

كما أنّ القاعدة القبليّة، وقوّة الغنى والثروة وأهميّتها في تأسيس مراكز القوّة في العصر الجاهليّ، كانت تقضي بأن ينزل النبيّ ﷺ في بيت من بيوت رؤوس القوم ومتنفذهم ومترفيهم. ولكنّ الله تعالى أراد أن يخلص نبيّه من الإحراج، وأن يظهر دين الإسلام على حقيقته منذ اليوم الأوّل، وفي أدقّ الساعات واللحظات والمواقف، فتجسّدت إرادته تعالى في الموقف الحاسم الذي وقفه رسول الله ﷺ، قائلاً للناس، حاسماً الموقف: «خلوا سبيل الناقة؛ فإنّها مأمورة!».

وانطلقت الناقة بالنبيّ ﷺ وهو واضعٌ لها زمامها، حتّى إذا وازت دار بني النجار بركت على مرید لغلّامين يتيمين منهم - في الموضع الذي هو اليوم باب مسجد رسول الله الذي يصلّى عنده على الجنّات - فلمّا بركت ولم ينزل رسول الله وثبت، فسارت غير بعيد، ثمّ التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أوّل مرّة فبركت، ثمّ تحلّلت ورزمت ووضعت جرائنها⁽¹⁾، وذلك بالقرب من باب أبي أيّوب خالد بن يزيد الأنصاري، أفقر رجل في المدينة⁽²⁾، يوم الجمعة عصرًا، في الثلاثين من ربيع الأوّل أو الأوّل من ربيع الثاني، في إعلان من الله تعالى عن طبيعة دين الإسلام، وأنّه دين الفقراء والمستضعفين، وأن لا قيمة عنده للثروة والرئاسة والسلطة.

ثمّ نزل رسول الله ﷺ عن الناقة، فاجتمع عليه الناس، وعادوا يسألونه أن ينزل عليهم، ولكن أمّ أبي أيّوب وثبت إلى الرحل، فحملته وأدخلته إلى منزلها، فلمّا أكثروا عليه، قال رسول الله: «أين الرحل؟».

(1) أي تحرّكت وتناقلت ووضعت رقبته على الأرض لتبرك فيه.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص121، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص185.

فقالوا: «أمّ أبي أيّوب قد أدخلته بيتها»، فقال: «المرء مع رحله». وهكذا، نزل النبي ﷺ وعليّ رضي الله عنهما عند أبي أيّوب الأنصاريّ، ومكثوا عنده شهراً، كان الأنصار خلاله يتناوبون في إرسال العشاء والغداء إليه، كما كان النبيّ والمهاجرون والأنصار خلال هذا الشهر يعملون في بناء المسجد النبويّ، ومنازل النبيّ، ومنزل عليّ بجدّ واجتهاد، ثمّ تحوّلوا بعد الفراغ من بناء البيوت إلى منازلهم. وأمّا بقيّة المهاجرين فقد تنافس فيهم الأنصار، فتوزّعوا على بيوتهم⁽¹⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفاء، ج1، 265، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص64، الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص280، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج4، ص333.

المفاهيم الرئيسية

- أمر رسول الله ﷺ المسلمين بضرورة الهجرة إلى مدينة يثرب، فأخذوا يتسللون جماعات جماعات، وينزلون على المسلمين من الأوس والخزرج.
- اجتمعت قريش في دار الندوة وقررت قتل النبي ﷺ غيلة، واتفقت على أن تشترك كل البطون في قتله؛ حتى يضيع دمه بين القبائل العربية، وبالتالي لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بديته.
- أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بمخطط قريش، فأبلغ رسول الله ﷺ الإمام علياً ﷺ بذلك، وطلب منه أن يبيت مكانه، قبل الإمام عليّ ﷺ بذلك بكل فخر واعتزاز، حتى باهى الله به الملائكة، ونزل فيه القرآن الكريم.
- حضرت قريش لتنفيذ مخططها، فانطلق رسول الله ﷺ آخذاً بيده جبرائيل ﷺ، وكان ذلك في الأول من شهر ربيع الأول. وبعد أن انتظرت قريش طويلاً دخلت إلى دار النبي ﷺ، فتفاجأت بأن النائم هو الإمام عليّ ﷺ، وعلمت بخروجه ﷺ من مكة.
- بعد أن نجا النبي ﷺ من قريش، سلك طريقه نحو يثرب، حتى وصل إلى الغار، فاستقرّ فيه ثلاثة أيام، وكان يأتيه الإمام عليّ ﷺ بالطعام والشراب. ثم بعد أن أمن طلب قريش، خرج إلى يثرب حتى وصل إلى منطقة قبا، فاستقرّ فيها منتظراً قدوم الإمام عليّ ﷺ.
- ترك رسول الله ﷺ الإمام علياً ﷺ في مكة، لكي يؤدي مهمة إيصال الأمانات إلى أهلها، وأخذ الفواطم معه إلى مدينة يثرب، ثم هاجر حتى وصل إلى قبا.
- بعد أن وصل الإمام عليّ ﷺ إلى يثرب قرّر رسول الله ﷺ بناء أول مسجد في الإسلام (مسجد قبا)، وصلى فيه الجمعة، واستكمل بناءه عمار بن ياسر، ثم انطلق إلى مدينة يثرب.
- وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب، فاستقبله الناس بالفرح والسرور، وكان كل شخص يرغب في نزول النبي ﷺ عنده، حتى نزل ﷺ في دار أبي أيوب الأنصاري.

الدرس العاشر

التنظيمات الأولى للدولة الإسلامية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف لماذا اختار النبي ﷺ المسجد كمركز ومنطلق للقيادة.
2. يشرح الخطوات التي قام بها النبي ﷺ في بناء المجتمع الجديد.
3. يتعرف إلى الأسس السياسية والعسكرية للدولة الإسلامية.

تمهيد

شكّل وصول النبي ﷺ إلى مدينة يثرب حدثاً مهماً وحساساً في تاريخ شبه الجزيرة العربية عموماً، والتاريخ الإسلامي خصوصاً، فإنّ قدومه يعني بداية نشوء الدولة الإسلامية؛ لأنّ رسول الله ﷺ اعتبر أنّ الأرضية مهياً تماماً لوضع بذور إنشاء الدولة الإسلامية، واعتبار مدينة يثرب عاصمة تلك الدولة.

وكان على رسول الله ﷺ أن يعمل على تأسيس معالم تلك الدولة وأسسها الدينية والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية. لذا قام بتأسيس المسجد النبوي، وأخى بين المهاجرين والأنصار، وعقد اتفاقية المدينة بين المسلمين واليهود، لكي يضمن سلامة المدينة من الداخل، ثمّ تحوّل إلى بناء الدرع الحامي لوجود الدولة من خلال تأسيس الجيش الإسلامي في يثرب.

المسجد النبويّ مركز قيادة الدولة

كان رسول الله ﷺ يصلّي بأصحابه في المربرد⁽¹⁾، فسأل عن المربرد، فأخبر أنّه لسهل وسهيل، يتيمين لمعاذ بن عفراء من الخزرج في حجر أسعد بن زرارة. فقال لأسعد: «اشتر هذا المربرد من أصحابه»، فاشتراه بعشرة دنانير. وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول الله ﷺ فسيل، وأمر باللبن فضرب، وحفروا في الأرض، ثمّ أمر بالحجارة فنقلت إليه من الحرّة (موضع الحجارة السود خارج المدينة)⁽²⁾، وشارك بنفسه في نقلها، الأمر الذي

(1) المربرد: موضع نزول الإبل، وتجنيف التمور .

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص 159، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص338 .

دفع أصحابه إلى الدأب في العمل. ثم أمر النبي ﷺ ببناء المسجد، وعمل معه فيه المهاجرون والأنصار، وقد شاركت النساء ببناء المسجد أيضاً، وأخذ المسلمون يعملون ويرتجزون من أجل بث الحماسة والنشاط في ما بينهم، والنبي ﷺ يقول:

لا عيش إلا عيش الآخرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة
ثم بنيت بعض مساكنه وبيوته ملاصقة للمسجد، فانتقل من بيت أبي أيوب إليها⁽¹⁾.
كذلك ابنتى أصحابه مساكنهم حول المسجد، وكل قد شرع له إلى المسجد باباً.
وهكذا، خرج إلى النور أول مركز للقيادة في الإسلام. ففي المسجد النبوي كانت تقام الصلوات، وتعد الاجتماعات، وتستقبل الوفود، ويبت في أمور الحرب والسلام، ويفصل في الخصومات، وكان الناس يتفقهون في دينهم ويتعلمون ويتعارفون ويتصادقون، بل كانت تبت في أمور السلم والحرب، وكان منطلقاً للسرايا وعقد الرايات، وكان أيضاً مستشفى لمعالجة المصابين في الحرب.

معالجة أسس البناء الاجتماعي الداخلي

1. الوضع الاجتماعي في يثرب:

كان التكوين السكاني والديني في يثرب أحد أهم القضايا التي عمل النبي ﷺ على تركيزها، من أجل تجاوز نتائجها السيئة على الدعوة الجديدة. فقد كان الصراع الداخلي بين الأوس والخزرج يمزق وحدة المدينة، وكانت قبائل اليهود، على وحدتها الدينية، ممزقة ومتحاربة، فكانت يثرب ومحيطها ميداناً رحباً للفتن والحروب، والمشاكل الأمنية اليومية، ولم تكن في يثرب سلطة سياسية حتى تحاول ضبط الوضع الأمني، وتفرض نوعاً من القوانين العامة المشتركة التي يتوافق عليها الجميع.

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص184، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص138، السمهودي، وفاء الوفاء، ج1، ص265، ج2، ص462، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج5، ص77.

وفي الوضع الاقتصادي، وقع اختلال حادّ في موازين الثروة لمصلحة اليهود دون العرب، ونشأ واقع اجتماعي متأزم، تولّد من شعور الأوس والخزرج بالاستغلال اليهودي لهم عن طريق الربا. كما أنّ عقبات اجتماعية جديدة وصلت مع الهجرة النبوية إلى يثرب، تمثّلت في الشعور بالتفوق القرشي في الحجاز، والذي حمله المهاجرون معهم من مكة، وبقوا في يثرب تحت تأثيره. بالإضافة إلى شعورهم بنحو من الامتياز حيال الأنصار، فهم المسلمون الأوائل الذين سبقوا إلى الإسلام، وواكبوا الدعوة الإسلامية منذ بدايتها، وهم الذين تعرّضوا للتضييق والاضطهاد، وتركوا أوطانهم وديارهم، وهاجروا في سبيل الله⁽¹⁾. ممّا انعكس على الوضع النفسي والمعنوي للأنصار في يثرب، فشعروا بهيمنة المهاجرين وتعاليمهم عليهم، وأخذت تختبئ تحت الرماد عناصر الاختلاف والشقاق بين المهاجرين والأنصار.

وكانت القبائل المحيطة بيثرب، كبنو جهينة وأسلم، مصدر خطر وقلق، والتي يمكن أن تسبّب للمسلمين الكثير من المشاكل، كما يمكن أن تكون رأس جسر في المستقبل لنشاط معاد تدفع إليه قريش ضد المسلمين. وبالتالي يمكن أن يصبحوا مطمعا لأوباش الأعراب وذؤبانهم، وهدفاً لغاراتهم وعدوانهم، استضعافاً لهم واستهتاراً بشأنهم.

2. خطوات رسول الله ﷺ في بناء المجتمع الجديد:

أمام هذا الواقع الاجتماعي المعقّد، وهذه الخريطة السياسية ليثرب ومحيطها فجر الهجرة النبوية، كانت أمام النبي ﷺ أهداف عدّة، عليه أن يعمل على تحقيقها:

أ. توحيد الأمة الإسلامية الناشئة، وبناء أواصر الأخوة، والحب، والثقة بين أفرادها من مهاجرين، وأوس، وخزرج، وبقية العرب المنتمين إلى الدين الجديد.

ب. الوصول بالعلاقات العامة في المدينة، بين المسلمين وغيرهم، وبين الآخرين أنفسهم، إلى أفضل حال من التهادن والمصالحة، ونبذ اللجوء إلى القوة

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص 591 - 605.

والعنف من خلال فرض نظام يتوافق عليه الجميع.
ج. بناء عوامل القوّة عند الأمّة الإسلاميّة الجديدة على قتلها، فإنّ القوى الجاهليّة التي تعيش في يثرب ومحيطها يمكن أن تتحوّل في أيّ ساعة إلى وحوش مفترسة.

3. توطيد الأواصر بين القوى الداخلية:

وبعد مدّة وجيزة، قدّرت بخمسة أشهر من هجرته إلى يثرب، بادر رسول الله ﷺ إلى الدخول في نسج علاقات إيجابيّة بين كلّ هذه القوى، كان عنوانها العامّ المؤاخاة، والموادعة، ونحواً من المحالفة والمعاهدة، والتوافق على موثيق وعهود كسب بها الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وشكّل جبهة إسلاميّة عامّة منهم. وإليك تفاصيل هذه الخطوات كلّها، وهي:

أ. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من أوّل آثار الهجرة انفصال المهاجرين عن عشائهم وقبائلهم بصورة حقيقيّة وعميقة، حتّى وقع الانفصال بينهم وبين أقرب المقربين إليهم من أهليهم وإخوانهم، وبعضهم كان أقرباؤهم ممّن أساء إليهم وآذاهم؛ فأمسوا في يثرب، وقد انقطعت علائقهم بذوي أرحامهم، وصاروا في مجتمع القبليّة والعشائريّة والعصبيّة، لا عصبيّة لهم تحميهم وتصونهم. وهنا، جاءت الحكمة الإلهيّة لكي تسدّ هذا الفراغ، وتحلّ محلّ العصبيّة العشائريّة أخوة الإسلام الإيمانيّة.

وسوف يعالج النبيّ ﷺ بهذه الأخوة الإسلاميّة أيضاً، ما سينجم عن الشعور بالتفوّق القرشيّ في الحجاز عند المهاجرين من هوة بينهم وبين الأنصار. وقد آخى رسول الله بين أصحابه مرّتين:

الأولى: في مكة، أي قبل الهجرة بسنة تقريباً⁽¹⁾؛ حيث آخى رسول الله ﷺ أولاً بين المهاجرين أنفسهم. وكانت المؤاخاة بين كل ونظيره. وكانت خطوة تمهيدية للمؤاخاة الكبرى بين المسلمين في يثرب.

الثانية: في يثرب، في السنة الأولى من هجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إليها، وبعد مضي خمسة أو ثمانية أشهر على وصولهم، آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار⁽²⁾، فجعل لكل مهاجر أخاً من الأنصار، فلم يبق من المهاجرين أحدٌ إلا آخى بينه وبين أنصاريٍّ. ثم استمرت هذه المؤاخاة كلما ازداد عدد المهاجرين، فقد كان عدد الأنصار أكبر من عدد المهاجرين، وكان النبي ﷺ يواخي بين الرجل ونظيره؛ وكان يلاحظ التناسخ والتشابه والتلاؤم بين الأشخاص⁽³⁾.

ولكن هذه المؤاخاة لم تشمل التوارث، ولعلَّ توهُماً بشمولها حصل عند بعضهم، فنزلت سورة الأنفال التي تجعل الإرث لأولي الأرحام. وقيل إنها شملت التوارث ثم نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد بدر⁽⁴⁾. وكانت المؤاخاة قبل بدر، ولم يكن بعد بدر مؤاخاة⁽⁵⁾.

ب. مؤاخاة النبي ﷺ مع عليّ ؑ :

وبعد أن آخى رسول الله بين المسلمين، بقي الإمام عليّ ؑ بمفرده، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد، فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعيها بعدك إلا كذاب، والذي بعثني بالحق ما أخرجت إلا لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وأنت أخي ووارثي». ثم

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص1، الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج3، ص4، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج1 ص200، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج38، ص330، ص347، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص23، ص102.

(2) الخوارزمي، المناقب، ج1، ص151، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص122، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص210، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص92.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص102، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص151، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص396.

(4) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1، ص230، ابن عبد البر، الاستيعاب في ج2، ص460.

(5) البغدادي، محمد بن حبيب، المعبر، مطبعة الدائرة، 1361هـ لاط، ص70.

أخذ بيده، وقال: «هذا أخي»⁽¹⁾، فأخى رسول الله ﷺ بين نفسه والإمام عليّ عليه السلام⁽²⁾، فالإمام نفس النبي ﷺ⁽³⁾.

إرساء أسس النظام السياسي للدولة

تعتبر وثيقة المدينة من أقدم النصوص ذات الصلة بتأسيس مجتمع سياسي في العالم. وهي أقدم نص سياسي إسلامي، بنيت عليه العلاقة بين مواطني دولة الإسلام في يثرب. ويُطلق على هذا الدستور «وثيقة المدينة»، أو «الصحيفة». وقد اشتملت هذه الصحيفة على ما يقرب من أربعين بنداً⁽⁴⁾. وفي قراءة دقيقة لبنود هذه الوثيقة، يمكن استخلاص الكثير من النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية، منها⁽⁵⁾:

1. قامت التجربة التأسيسية للدولة في الإسلام على أساس أن التعاقد الاجتماعي هو أساس بناء المجتمع المدني.
2. ينبغي توزيع مسؤوليات البناء والدفاع على أعضاء المجتمع السياسي، بصرف النظر عن دياناتهم ومعتقداتهم.
3. أقرت وثيقة المدينة العقائد والثقافات والتقاليد والأعراف، وجمعتها في وجهة بناء الدولة، أي اعتمدت منها العناصر الإحيائية لمشروع الدولة.

(1) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات الشريف الرضي، قم، إيران، 1413هـ ط1، ج1، ص13.

(2) الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص20، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص14، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص211.

(3) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص587، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص28، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج5، ص77.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص147، الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص336، ج2، ص666، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج2، ص47.

(5) وثيقة المدينة، دراسات في التأصيل الدستوري في الإسلام، مجموعة من المؤلفين (مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي)، بيروت، لبنان، 2014م، ط1، ص11.

4. اهتمت الوثيقة بتأسيس جهاز مركزي مستقل للقضاء والفصل بين الخصومات كعامل ردي، ومنظومة لحماية الحقوق العامة والخاصة، وعلاج المشاكل الجنائية الاجتماعية.
5. حُصرت الكلمة الأخيرة في المشكلات السياسية والاجتماعية التي قد تنشأ بين اليهود والمسلمين عند النبي ﷺ.
6. حصنت صفوف المؤمنين، وأعطت امتيازاً للإيمان على الكفر، وأظهرت المسلمين أمام أعدائهم على أنهم قوة واحدة متماسكة ومتناصرة. فقد منعت المؤمنين من قتل مؤمن بكافر أو نصره كافر على مؤمن.
7. جعلت مسؤولية دفع الظلم جماعية، فلا تنحصر في من وقع عليه الظلم.

إرساء أسس بناء القوة العسكرية للدولة

1. أهداف السرايا:

- في مرحلة الاستقرار الأولى في المدينة، بدأ النبي ﷺ بتطبيق أوليات سياسته الدفاعية، فقام بتشكيل القوة العسكرية الإسلامية، والتي كانت بنظام السرايا المختلفة العدد والمهام، وكانت لها أغراض مختلفة في الإستراتيجية النبوية:
- أ. الاستطلاع: إن مهمة بعضهم كانت استطلاع ومراقبة تحركات قوافل قريش التجارية في المنطقة، وحجمها وقوتها العسكرية، وطرق سيرها ومواعيدها.
 - ب. التأهيل العسكري: بما أن معظم المهاجرين لم يكونوا قد شهدوا حرباً أو شاركوا في قتال، فكان على النبي أن يبدأ بتأهيلهم وإعدادهم عسكرياً، وتدريبهم على القتال، وإعادة الثقة إلى نفوسهم؛ ليكونوا على استعداد لمواجهة قريش، وعتاة قبائل العرب، وليحملوا على عاتقهم لواء الإسلام.
 - ج. المعرفة الجغرافية: التعرف على جغرافية المنطقة، جبالها وأوديتها ونبابيحها وواحاتها.

د. تطويع القبائل العربية حول يثرب: لجأ النبي ﷺ إلى تطويع هذه القبائل، إمّا بالضغط عليها، أو باستخدام سياسة وديّة إزاءها، والدخول معها في أنماط من التآلف، والمهادنة، والموادعة، والتحالف مع عدد منها ضدّ قريش، وذلك في نطاق مراقبة مباشرة لتحركاتها واتّصالاتها المختلفة.

وقد كانت هذه القبائل قوّة بشريّة ومخزوناً استراتيجيّاً، تستطيع أن تصبح في يوم ما قوّة ضاربة تلعب دوراً كبيراً في تعديل الموازين السياسيّة والعسكريّة. وبدلاً من أن تكون هذه القبائل، وهي على شركها وكفرها، إلى جانب قريش، فقد أصبحت بالسياسة النبويّة محايدة بين القطبين، أو أميل لموادعة المسلمين والتعاطف معهم.

هـ. الضغط على قريش عبر محاصرتها والتضييق عليها: كانت يثرب تقع على طريق الشام، وهذا يعني بوضوح أنها يمكن أن تهدّد مصالح قريش الحيويّة. فالنظام القائم في قريش نظام استهلاكيّ خدماتيّ، يفتقد الاكتفاء الذاتي، وإنّ تلك العظمة التي تحيط بها قريش نفسها بسبب قوتها الاقتصاديّة سوف تنهار سريعاً، وبالتالي سوف يتلاشى معها التأثير على القبائل المتآلفة معها.

2. حصر المشاركة بالمهاجرين:

في هذه السرايا، حصر النبي ﷺ المشاركة بالمهاجرين، ولم يبعث أحداً من الأنصار حتّى كانت بدر⁽¹⁾. فقد كانت البيعة بينه وبين الأنصار على منعه كما يمنعون أنفسهم وأهليهم، فكان اتّفاقه معهم دفاعياً فقط، فإذا هاجر إليهم، فإنهم سوف يدافعون عنه كما يدافعون عن أنفسهم، ولم يكن النبي يريد توريطهم ودفعهم إلى القتال خارج يثرب؛ حتّى لا يفتح ثغرة في جدار علاقة المهاجرين بالأنصار، يتسرّب منها المشركون والمنافقون واليهود، ويشيعون أنّه جعل أهل يثرب وسيلة لمآربه وغاياته، بينما هو

(1) الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، تحقيق: الدكتور مارسدن جونس، الناشر: دانش إسلامي، 1405هـ ل.ط، ج1،

يحافظ على قومه من المهاجرين. ولذلك دفع النبيّ المهاجرين إلى تشكيل السرايا الأولى، لكي يعلم أهل يثرب من الأنصار أنّ المهاجرين قد بادروا إلى التضحية والإقدام، فإذا ما سخت نفوس الأنصار فيما بعد؛ فإنّها تكون قد أقدمت مختارة على القتال وبكامل إرادتها.

3. نماذج من هذه السرايا:

إنّ السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ في مهمّات مختلفة ومتعددة، بلغت - مع اختلاف بين المؤرّخين - ما يقرب من ثلاث وسبعين سرّيّة، ونحن نذكر سرّيتين منها فقط، وهما:

أ. سرّيّة الحمزة بن عبد المطلب:

جاءت قافلة قريش من الشام تريد مكّة، وفيها أبو جهل في ثلاثمئة راكب، فعقد رسول الله لواءً لحمزة بن عبد المطلب، وكان أوّل لواء عقده بعد أن قدم المدينة⁽¹⁾، وبعثه إلى سيف البحر من ناحية العيص، في ثلاثين راكبًا من المهاجرين فقط. فلقي أبا جهل بن هشام، وكان مجدي بن عمرو الجهني موادعًا للفريقين فحجز بينهم⁽²⁾، ولم يزل يمشي إلى هؤلاء وإلى هؤلاء حتّى انصرف القوم، وانصرف حمزة راجعًا إلى المدينة في أصحابه.

وكان من أهم آثار هذه السرّيّة: أنّ أبا جهل سوف يتحدّث عن الكمين الإسلاميّ الذي حصل على الطريق، ولا شكّ في أنّ قريش سوف يصيها وجوم وقلق على طريقها التجاريّ، وسوف تتأكد من أنّ ما خشيته، من سيطرة محمّد على هذا الطريق، قد وقع. وهذا ما أرادته رسول الله ﷺ من هذه السرايا.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج2، ص402.

(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص245، يعقوبي، تاريخ يعقوبيّ، ج2، ص69، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص200.

ب. سرية عبدة بن الحارث:

عقد النبي ﷺ لواءً لعبدة بن الحارث إلى رابغ، فخرج عبدة في ستين راكباً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان بن حرب، وكان يومئذ في مئتين، فلم يسلوا السيوف، ولم يصطفوا للقتال، بل انصرفوا إلى المدينة⁽¹⁾، فأمر النبي ﷺ كانت الاكتفاء بالظهور على الشريان الاقتصادي لقريش. هذه هي وسيلة الضغط الثانية على خناق قريش كي تسير نحو الاعتدال، وتقبل بالاعتراف بالإسلام، وتسمح للمسلمين بالحج إلى بيت ربهم، ويكفي الله الناس شرّ الحرب والقتال.

(1) الواقدي، المغازي، ج1، ص10، الطبري، تاريخ الأمم والملوك عنه ج2، ص402، المسعودي، التنبيه والإشراف ص201، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص162.

المفاهيم الرئيسية

- بعد أن استقر رسول الله ﷺ في مدينة يثرب، عمل على بناء مركز قيادة الدولة، وهو المسجد، وقد عمل رسول الله ﷺ بنفسه في بناء هذا المسجد، وعمل معه المهاجرون والأنصار، وشاركت في بنائه النساء أيضاً.
- عمل رسول الله ﷺ على معالجة البناء الاجتماعي الداخلي في المدينة، فإنّ التكوين السكاني فيها كان يتشكّل من تنوّعات اجتماعية مختلفة ومتعدّدة.
- اتخذ رسول الله ﷺ خطوات عدّة في بناء المجتمع الجديد، وهي: أ. توحيد الأمة الإسلامية الناشئة. ب. بناء نظام علاقات بين مختلف مكونات مجتمع المدينة.
- بناء عوامل القوّة داخل مجتمع المدينة.
- آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين أولاً في مكة، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ثانياً عندما قدم المدينة المنورة.
- أرسى رسول الله ﷺ أسس النظام السياسي للدولة في المدينة من خلال وثيقة عرفت بوثيقة المدينة أو الصحيفة، والتي تشكّلت من أربعين بنداً.
- أرسى رسول الله ﷺ أسس بناء القوّة العسكرية للدولة الإسلامية من خلال تشكيل قوة عرفت بالسرايا، وقد حصر رسول الله ﷺ هذه القوّة بالمهاجرين من أجل أن يبقى مجتمع المدينة مجتمعاً متماسكاً، ويشعر أهل المدينة بقدرة المهاجرين على الدفاع عن أنفسهم وعن أهل المدينة، ولكي يعلم الأنصار أن المهاجرين قد بادروا إلى التضحية والإقدام. وقد كان لهذه القوّة أهداف عدّة، وهي: الاستطلاع، التأهيل العسكري، معرفة محيط المدينة الجغرافي، تطويع القبائل العربية حول يثرب، الضغط على قريش عبر محاصرتها والتضييق عليها.
- لقد تنوّعت هذه السرايا، واتجهت إلى مناطق مختلفة، وقد بلغ عددها ما يقرب من ثلاث وسبعين سرية.

الدرس الحادي عشر

معركة بدر (1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح أسباب معركة بدر.
2. يعرف الإجراءات التي قام بها النبي ﷺ بعد تسرب الخبر إلى المشركين.
3. يتعرض إلى دور المهاجرين والأنصار في المعركة وكيفية رص صفوفهم.

تمهيد

يدعو الإسلام إلى السلم، وعدم استخدام السلاح، إلا عند الضرورة والاعتداء من قبل الآخرين. قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽¹⁾. وكان هذا هو المنطلق الذي سار عليه النبي ﷺ منذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، فلم يبدأ رسول الله ﷺ قريشاً بحرب، بل كان طوال فترة بقاءه في مكة المكرمة لم يؤذن بالقتال. ثم انتقل إلى يثرب وتبدلت المعادلات السياسية بينه وبين قريش، وتحول الإسلام من الضعف إلى القوة، وصار لازماً الدفاع عن كيان الدولة الإسلامية وجميع المنتمين إليها، واسترداد حقوقهم المسلوبة من قبل المعتدين عليهم. ورغم الإذن بالقتال، ووجوب الدفاع عن الإسلام والمسلمين ولو باستخدام القوة، فقد بقيت جميع الحروب التي خاضها النبي ﷺ حروباً دفاعية، ابتداءً من بدر حتى تبوك، فلم تكن حروباً تمثل الجهاد الابتدائي، بل كلها حروب دفاعية.

وقد كانت معركة بدر من أهم المعارك التي قام بها رسول الله ﷺ، وهي المعركة التي كسرت شوكة قريش، ووضعت في جسدها بداية الانهيار والانكسار البطيء، حتى وصلت إلى مرحلة الانهيار والسقوط النهائي عند فتح مكة.

موقع بدر: الهوية والجغرافيا

«بدر»: بالفتح ثم السكون، ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، ليلة واحدة. ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر

(1) سورة الأنفال، الآية 61.

بن كنانة، به سُميت بدر، وعند هذا الماء كانت الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرّق بين الحقّ والباطل⁽¹⁾.

وتقع «بدر» جنوب غرب المدينة المنورة، والمسافة بينها وبين المدينة حوالي 150 كلم تقريباً. تبعد عن مكة المكرمة ما يقرب من 340 كلم تقريباً جنوباً، ويفصلها عن سواحل البحر الأحمر الواقع غربها حوالي 30 كلم تقريباً.

الأسباب المؤدية إلى وقوع معركة بدر

غزوة بدر، وتُسمى أيضاً غزوة بدر الكبرى، وبدر القتال، ويوم الفرقان، وقعت في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني من الهجرة، بين المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ من جهة، وبين قريش وحلفائها من العرب من جهة أخرى. وتعدّ غزوة بدر أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة. وقد سُميت نسبة إلى منطقة بدر التي وقعت المعركة فيها، وكان عدد المسلمين في بدر ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، وأمّا جيش المشركين فكان يقدر بألف رجل. ولهذه المعركة العديد من الأسباب من أهمها:

1. الاعتداء على المسلمين:

إنّ كلّ السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ كانت تهدف إلى الضغط على قريش، ودفعها نحو القبول والمساومة، وسلوك سبيل الصلح والمهادنة، وإلا فإنّ رسول الله لم يكن ليخوض حرباً في سبيل قافلة تجارية.

وغزوة بدر التي قام بها النبي ﷺ لم تكن إلا بعد أن قامت قريش بالاعتداء على المسلمين وعلى أموالهم في مكة المكرمة، حيث كانت قريش تعتدي على المسلمين حتّى في المدينة المنورة على شكل غارات ليلية. فكان هدف النبي ﷺ وقف العدوان القرشي والاقتصاص من قريش، فلذلك هاجم قافلة قريش التي كان يقودها أبو سفيان، وحينها نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ

(1) الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص357،

ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَبُرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ»⁽¹⁾. وكان ذلك بعد المراقبة الشديدة لتحركات قريش، فقد جاءته عيونُه بأخبار مفادها أن عيراً لقريش خرجت إلى الشام فيها خزائنهم، وذلك في منتصف جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، بقيادة «أبي سفيان بن حرب». فخرج رسول الله ﷺ لملاحقتها إلى «ذات العشيرة»، ولكنه لم يعثر عليها، فقد كانت قد أفلتت منهم إلى الشام، فعاد إلى المدينة.

2. فشل محاولات التهذئة والصلح:

وبقي النبيّ يرصد لها العيون مترقباً عودتها، إلى أن بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد عيوناً له لرصدها، وكان ذلك في الثاني من شهر رمضان قبل خروجه من المدينة بعشر ليال. فلماً عادا أخبراه أن البضائع يحملها ألفا بعير، وأن قيمتها تبلغ خمسين ألف دينار، وأن حراسها سبعون أو أربعون رجلاً⁽²⁾.

تحرك جيش المسلمين نحو بدر

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى القافلة، وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها». وخرج يوم الأحد لاثنتي عشرة خلت من شهر رمضان، حتى انتهى إلى بيوت السقيا، وهي متصلة بالمدينة، وضرب عسكره هناك واستعرضه، ثم صلى في بيوت السقيا ودعا لأهل المدينة، فقال: «اللهم، إن إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك دعاك لأهل مكة، وإني محمد عبدك و نبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدّهم و صاعهم و ثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة»⁽³⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 7.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج 1، ص 20.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 22.

وبعد أن جهّز رسول الله ﷺ جيشه للتحرك، فكانوا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً⁽¹⁾، استعمل على المشاة: قيس بن عمرو، وعقد النبيّ الراية لعليّ بن أبي طالب عليه السلام. وكان في عسكر رسول الله سبعون جملاً أو ثمانون⁽²⁾ يتعاقبون عليها الاثنان والثلاثة، وكانت فيه أيضاً فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن عمرو، وتغيّب بعضهم عن المعركة فذمّوا من قبل المسلمين⁽³⁾.

ولقد كان عشق الشهادة إلى الدرجة التي تجعل فتياً دون الحلم يتلهّفون للاشتراك في هذه المعركة، وقد ردّ النبيّ ﷺ بعضهم إلى المدينة لما استصغروهم. ولما كان على ليلة من بدر، بعث رسول الله ﷺ بسبس بن عمرو، وعديّ بن أبي الزغباء، يتجسسان خبر العير. فأتيا ماء بدر، وأناخا راحلتيهما، وسمعا جاريتين تتحدّثان عن عير قريش، وأنها نزلت في الروحاء، وأنها سوف تنزل بماء بدر. فرجع الرجلان إلى رسول الله، فلقيه في المعترضه بعد الخيبرتين والخيوف وقبل بدر، فأخبراه بما سمعا⁽⁴⁾.

إجراءات أبو سفيان لحماية القافلة

كان أبو سفيان قد عرف عند توجّهه بالقافلة إلى الشام، أنّ رسول الله ﷺ يترصّد القافلة، فقد أخبره رجلٌ من جذام أدركه بالشام أنّ محمّداً كان قد عرض لقاflتهم، وأنّه ينتظر رجعتهم، فخاف أبو سفيان خوفاً شديداً، واتّخذ الاحتياطات الكافّة عند رجوعه من الشام، ومنها:

1. تحريّ أخبار المسلمين:

أخذ يسأل القوافل عن رسول الله ﷺ إلاّ أنّه لم يستطع الوصول إلى نتيجة، ففضّل أن يضع قريشاً في صورة الخطر المحدق بتجارة قريش وأموالها، فاستأجر أحد حراس

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص257، الواقدي، المغازي، ج1، ص152 - 172، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج2، ص333 - 363.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، مصدر سابق، ج1، ص168.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص326، ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1992م، لاط، ج1، ص657.

(4) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص21 - 51.

القافلة، وأمره أن يصيح بهم: «يا آل غالب، اللطيمة اللطيمة، العير العير، أدركوا أدركوا، وما أراكم تدركون، فإنَّ محمَّدًا والصباء من أهل يثرب قد خرجوا يتعرَّضون لعيركم!».!

2. تغيير مسير القافلة:

وفيما كانت قريش تستنفر لحماية القافلة وتسير لملاقاة أبي سفيان، كان أبو سفيان قد شارف منطقة بدر، فأوقف القافلة وتقدَّمها، وأقبل وحده حتَّى انتهى إلى ماء بدر، فوجد شخصًا سأله عن رسول الله ﷺ، فأخبره بأنَّه لم يرَ رسول الله ﷺ، ولا آية تحضيرات له، إلَّا أنَّه أخبره بأنَّه رأى راكبين أناخا راحلتيهما هنا. فجاء أبو سفيان إلى مناخ إبلهما، ففتَّ أبعاد الإبل بيده، فوجد فيها النوى، وقال: «هذه علايف يثرب! هؤلاء عيون محمَّد!». ورجع مسرعًا، وأمر بالقافلة، فتركت جادة يثرب مكَّة، واتَّجهت غربًا نحو ساحل البحر الأحمر، وتركوا الطريق، ومروا مسرعين قاصدين مكَّة.

3. طلب المعونة من مشركي مكَّة:

وصلت الأنباء إلى قريش بأنَّ محمَّدًا ﷺ وأهل يثرب يريدون أن يعترضوا قافلتهن، فتصايح الناس في مكَّة، وتجهَّزوا سرعًا، وتهيَّؤوا للخروج، وأعدَّ كلُّ صناديد قريش ورجالها المقاتلون أنفسهم للتحرك نحو المدينة، وما بقي أحدٌ من عظماء قريش إلَّا أخرجوا مالًا وحملوا وقوا، وخرجوا على الصعب والذلول، ما يملكون أنفسهم.

وبلغ استنفار قريش لقواها درجة أنَّهم هدَّدوا من لم يخرج بهدم داره، حتَّى أنَّه من اضطرَّ إلى التخلُّف، ولم يستطع دفع نفقة مقاتل أخرج مكانه رجلًا⁽¹⁾.

وكان معهم سبعمئة بعير ومئات الخيول وستمئة دارع، وكان يتبرَّع بالإطعام رجلٌ منهم كلَّ يوم، فينحرون لهم تسعًا أو عشرًا من الإبل.

وحينما خالف أبو سفيان الطريق ونجا بالقافلة، ووصل إلى مكَّة، أرسل يطلب من قريش الرجوع، فحدث بين رجال قريش اختلافٌ في الاستمرار وعدمه. ولكنَّ أبا جهل أبى ذلك وأصرَّ على مواصلة التقدُّم نحو المدينة.

(1) ابن هشام، السيرة النبويَّة، مصدر سابق، ج2، ص261.

وهكذا، ليس إنقاذاً لقافلة أبي سفيان المهددة فقط، ولكن لاستعادة هيبة قريش وأمن التجارة المكيّة على طريق الشام. فأصروا على التقدّم والوصول إلى بدر، بل كانوا عازمين على الاستمرار بعد ذلك إلى المدينة، وأقبلت قريش، فنزلت بالعدوة اليمانيّة، في مكان مرتفع⁽¹⁾.

النبي ﷺ يتحرّى أخبار قافلة قريش

كان رسول الله يتحرّك بحثاً عن القافلة، فأمر بالرحيل، فرحلوا حتى نزلوا عشاءً بالعدوة الشاميّة، وبعث النبي ﷺ الإمام عليّاً وجماعة يتجسّسون على الماء، ويلتمسون له الخبر عليه⁽²⁾.

بعد أن علم رسول الله ﷺ والمسلمون بأنّ قريشاً قد وصلت، وها هي وراء هذا الكتيب، بقي أمرٌ لم يحسم بعد وهو أمر القافلة، ولم يكن هناك من يستطيع أن يخبره بهذه المعلومة سوى جبرئيل، والذي نزل فعلاً على رسول الله، فأخبره أنّ القافلة أفلتت، وأنّ قريشاً قد أقبلت لتمنع عن قافلتها. وأمره بالقتال، ووعده النصر. فقام رسول الله ﷺ بجمع المسلمين وأخبرهم بأنّ القافلة قد جازت، وأنّ قريشاً قد أقبلت لتمنع عن غيرها، فعرف المسلمون من المهاجرين والأنصار بإفلات قافلة قريش، وعرفوا بجمع قريش ومجيئها، وأنّ جيشها قد وصل إلى مشارف المنطقة التي يتواجد فيها رسول الله ﷺ وأصحابه.

خيارات النبي ﷺ بعد إفلات القافلة

بعد أن أفلتت القافلة، وجد رسول الله ﷺ نفسه أمام خيارين:
الأول: أن يرجع من حيث أتى، وهذا يعني أن ينهار كل ما كسبه من الهيبة والمهابة، وخاصةً إذا طاردتهم قريش ووصلت إلى المدينة، فمن يمنع الأعراب واليهود بعدئذٍ عن التفكير في العدوان، والتجرؤ على المدينة وعلى المسلمين؟

(1) وهو ما يُسمّى بالعدوة القصوى.

(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج2، ص268، الواقدي، المغازي، ج1، ص51، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج1، ص617.

الثاني: الحرب والقتال، وإن لم يكن المسلمون متهيئين لمقاتلة جيش قريش الكبير، لا من حيث العدد، ولا من حيث العُدّة. فقد كان أكثر الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من شبّان الأنصار، وكانت بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله ﷺ على الدفاع عن رسول الله ﷺ وحمايته في المدينة لا القتال والحرب.

إجراءات النبي ﷺ الداخلية استعداداً للمعركة

لكي يقف الأنصار موقفاً مضحياً صارماً، لا بُدَّ أن يقف المهاجرون أولاً موقفاً صارماً، فهم أصحاب القضية، والمعنيون مباشرة بقتال قريش والدفاع عن قضيتهم، فإذا تقاعس المهاجرون ولم يقفوا موقفاً قوياً، فكيف يقف الأنصار الموقف المؤمل منهم؟ طلب الرسول ﷺ من المهاجرين أن يجتمعوا مع بعضهم بعضاً إلى جانب، وطلب من الأنصار أن يجتمعوا في الجهة الأخرى. ثمّ التفت رسول الله إلى المهاجرين أولاً، وقال لهم: «أشيروا عليّ»، فأشار عليه بعضهم بالرجوع وترك المعركة مع قريش، فلم يرتض رسول الله ﷺ بهذه الإشارة المحبطة للنفوس. وهنا كرّر النبي ﷺ طلبه ثالثاً: «أشيروا عليّ!». فقام المقداد وتكلّم بكلام يحثّ فيه الناس على القتال، ثمّ قال: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. والله لنقاتلنّ عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك، ولو خضت بحراً لخضناه معك، ولو ذهب بنا برك الغماد لتبعناك»، فأشرق وجه النبي ﷺ ودعا له، وسرّ لذلك، وضحك.

وبعد أن اطمأن النبي ﷺ إلى الموقف، توجه إلى الأنصار، وقال: «أشيروا عليّ». فقام سعد بن معاذ فقال: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، كأنك أردتنا؟»، قال: «نعم». قال: «فلعلك قد خرجت على أمر قد أمرت بغيره؟»، قال: «نعم».

فقال: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، إنا قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقٌّ من عند الله، فمرنا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت، والذي أخذت منه أحبّ إليّ من الذي تركت منه. والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك. فجزاه رسول الله خيراً».

وبهذا، يكون رسول الله ﷺ قد اتّضح له موقف المهاجرين، وأخذ موقفاً واضحاً وصريحاً من الأنصار.

والذي يظهر من كلام المقداد وسعد بن معاذ أنّهما لم يشيرا على النبيّ باقتراح، لا سلباً ولا إيجاباً، بل كان جوابهما إظهار التسليم والانقياد التام للنبيّ، وكان هذا زائداً على ما يريده النبيّ ﷺ إظهاراً لدرجة من الإيمان والإخلاص والتسليم، وهو من أجل ذلك ضحك لكلام المقداد، وسرّ لكلام سعد.

أهداف استشارة الرسول ﷺ لأصحابه

إنّ استشارة النبيّ لأصحابه من المهاجرين حاجةٌ لا بُدَّ منها؛ لأنّ هذه المعركة كانت مصيريّة، وتتطلّب مواقف كبيرة وجادة من كلا الطرفين.

بالإضافة إلى أنّ المعركة كانت حتميّة، وكان التراجع والانسحاب سوف يؤدّي إلى هزيمة روحية ومعنوية، ستؤدّي إلى تضعف كيان المسلمين وإطماع غيرهم بهم. فقد كان المشركون واليهود والأعراب ينظرون إلى هذه المعركة بصفتها حدثاً تاريخياً انقلابياً، ومنعطفاً خطيراً، سوف يتقرّر في ضوء نتائجه مصير الإسلام، ومعه مصير المهاجرين والأنصار.

ولكنّ هذه الاستشارة لم تكن بهدف استكشاف رسول الله ﷺ دخائل نفوس أصحابه من أجل تمييز المنافق من المؤمن، والجبان من الشجاع؛ وذلك لأنّ الأخلاق النبوية، وطريقة أدائه مع أصحابه، لم تكن تتضمّن إحراجاً لهم، وفعل ما فيه استكشاف وإبراز دخائل نفوسهم، بل كان حريصاً على عدم ارتكاب ذلك، بل على التسترّ عليهم ومساعدتهم على مجاهدة أنفسهم.

إجراءات النبيّ ﷺ المعنوية والعسكرية يوم اللقاء في بدر

في يوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ارتحلت قريش، وهكذا سبق المشركون إلى بدر، وأناخوا في العدوّة القصوى في جانب الوادي، وكان فيها الماء، ولكنّ الأرض قد أوحلت تحت أقدامهم بسبب المطر الذي هطل عليها ليلاً، حتّى

طُمست أقدامهم في الأرض. فأمر النبي ﷺ المسلمين بعدم اعتراضهم ولكنه قام بأمر
عدّة استعداداً للمعركة⁽¹⁾، وهي:

1. التوجّه إلى الله تعالى بالدعاء:

لَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ قَرِيشًا، قَالَ: «اللَّهُمَّ، إِنَّكَ أَنْزَلْتَ عَلَيَّ الْكِتَابَ، وَأَمَرْتَنِي بِالْقِتَالِ،
وَوَعَدْتَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَإِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ. اللَّهُمَّ، هَذِهِ قَرِيشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ
بَخِيلَاتِهَا وَفَخَرَهَا تَحَادُكَ وَتَكْذُوبَ رَسُولِكَ. اللَّهُمَّ، نَصْرِكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَحْنَهُمْ⁽²⁾
الْغَدَاةَ⁽³⁾». وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «لَمَّا نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى كَثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ
وَقَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ، أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ، إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ
الْعَصَابَةُ لَا تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا»⁽⁴⁾.

وأصبح المسلمون وقد ارتاحوا وهدأت أعصابهم بسبب النعاس الذي ألقاه الله تعالى
عليهم، وتصلبت أرضهم، وامتألت قلوبهم بسبب المطر. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى
ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ مِنْهُ مُنَّةٌ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ
وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾⁽⁵⁾.

ومن الجهة العسكرية، لم يحدث المطر أي مشكلة في العدو الدنيا للمسلمين، فلم
يمنع من تحركهم، بل تصلبت الأرض بسبب المطر وتلبّدت، وكان ذلك لطفاً من الله
ورحمة لهم.

2. تعبئة جيش المسلمين:

وارتفعت راية الإسلام خفاقة بيد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وكان هو

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص123.

(2) أي أهلكهم.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص453، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج3، ص318، العلامة المجلسي،
بحار الأنوار، ج19، ص334، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص327، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، ص54، ابن
كثير، البداية والنهاية، ج3، ص327.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص627، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص149.

(5) سورة الأنفال، الآية 11.

صاحب لواء رسول الله ﷺ دائماً. وأخذ النبي يعبئ أصحابه وينظم صفوفهم، ويرشدهم إلى الأصول المعنوية للنصر في الحرب: «غضوا أبصاركم ولا تبدؤوهم بقتال ولا يتكلمن أحد!».⁽¹⁾

فسكت المسلمون، وغضوا أبصارهم امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ. وفيما كان رسول الله ﷺ يعدل صفوف أصحابه، فيقدم المتأخر ويؤخر المتقدم، مستعيناً بسهم كان في يده، مرَّ بسواد بن غزية، أحد رجال الأنصار، وهو خارج عن الصفِّ متقدِّم عليه، فوضع السهم في بطنه، محاولاً دفعه به إلى الخلف برفق، وهو يقول: «استو يا سواد». فقال سواد: «يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقذني!». فكشف رسول الله عن بطنه وقال: «استقد». فاعتنق سواد رسول الله ثم انحنى فقبل بطنه.

فقال رسول الله: «يا سواد، ما حملك على هذا؟». قال: «يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك!»، فدعا له رسول الله بخير⁽¹⁾. وبهذا، يكون قد استعدَّ الطرفان للمواجهة والقتال، فقريش رصت صفوفها للقتال، ورسول الله ﷺ يقوم بذلك استعداداً للمواجهة الكبرى مع أقوى قوى الشرك في شبه الجزيرة العربية.

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، مصدر سابق، ج2، ص278.

المفاهيم الرئيسية

- بدر هي ماء يقع بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، وتقع بدر غرب المدينة على بعد يقرب من 150 كلم، وتبعد عن مكة ما يقرب من 340 كلم.
- إن لمعركة بدر أسباباً عدّة، منها: أ. فشل محاولات التهذئة والصلح بعد محاولة أخذ قافلة قريش. ب. الاعتداء على المسلمين.
- بعد أن قرر رسول الله ﷺ التحرك بنفسه نحو قافلة قريش، نادى في الناس للخروج إلى القافلة، فخرج ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وجّه الجيش بما أمكن من العتاد والعدّة.
- عمل أبو سفيان على إجراءات عدّة لحماية القافلة، وهي: تحريّ أخبار المسلمين، تغيير مسار القافلة، طلب المعونة من قريش.
- علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحي بأن أبا سفيان قد غير طريق القافلة، وكان أمامه خياران، الأول: أن يرجع إلى المدينة المنورة، والثاني: القتال والحرب.
- أخبر رسول الله ﷺ المسلمين بإفلات قافلة عير قريش، وبعد أن قرر ﷺ خوض غمار الحرب في مواجهة الشرك، أراد أن يختبر نيات أصحابه، فجمع المهاجرين وحدهم، وكذلك الأنصار، وطلب من المهاجرين الكلام، فتكلموا وقرروا المشاركة، فالتفت إلى الأنصار، فأثبت له الأنصار إيمانهم به.
- كان رسول الله ﷺ يهدف من خلال هذه الاستشارة إلى أن يتوجه أصحابه بأنفسهم إلى المعركة؛ لأن هذه المعركة مصيرية بالنسبة إليهم، ولم يكن يقصد تمييز المنافق من المؤمن.
- بعد أن وصل رسول الله ﷺ إلى موقع بدر قام بخطوات معنوية وعسكرية عدّة من شأنها أن تشد عضد المسلمين، وتقوي معنوياتهم، وهي:
 - أ. التوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتوسل.
 - ب. تعبئة جيش المسلمين، ورضّ صفوفهم، وإرشادهم إلى أصول الحرب والقتال.

الدرس الثاني عشر

معركة بدر (2)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أحداث القتال والاشتباك العسكري مع المشركين في بدر.
2. يتعرف إلى آثار معركة بدر على الإسلام والمسلمين.
3. يشرح أسباب وعوامل النصر في بدر.

تمهيد

نزل رسول الله ﷺ منطقة بدر، وقام بكلّ التحضيرات الممكنة لمواجهة جبروت قريش وكبريائها. وعلى الرغم من كلّ المحاولات التي عمل عليها رسول الله ﷺ لمحاولة تهدئة الأوضاع، وردّ قريش عن القتال كانت المواجهة شبه محسومة بين الطرفين.

وبعد أن نزل المشركون إلى أرض المعركة، برز لهم أمير المؤمنين ﷺ والحمزة. وبدأت علامات الهزيمة تظهر على قريش، فقد سقط في الجولة الأولى كبار رموزها وعتاتها، ولم تتمكن قريش من التراجع، فأصرت على الاستمرار حتى وصلت بها الأمور إلى الهزيمة.

وقد أعطت معركة بدر للمسلمين القوة والمنعة، وفرقت بين الحقّ والباطل، وأثبتت أنّ الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاستعداد لنصرة الله عزّ وجلّ هما من أهمّ قواعد الثبات والانتصار على الأعداء.

رسول الله ﷺ ومحاولة التهدئة

استقرت قريش في منطقة من أرض بدر استعداداً للمواجهة، وحيث إنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن عددهم ومبلغ استعداداتهم، بعثوا عمر بن وهب الجمحي لينظر ذلك، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حتى طاف معسكر رسول الله، ثمّ رجع إلى قريش وقال: «ثلاثمئة رجل يزيدون أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين، أو مدد». ثمّ

رجع إلى قريش، وقال لهم: «ما لهم مدد ولا كمين، ولكن نواضح يثرب⁽¹⁾، قد حملت الموت الناقع⁽²⁾!».»

أوجدت كلماته ضجة كبرى بين رجال قريش وساداتها وزعمائها، فبدأت تظهر قبل المعركة علامات هزيمة المشركين، حيث رأوا المسلمين مستعدين لأن يقتل كل واحد منهم مشركاً، وهذا بحد ذاته مثير للربح، حتى ولو انتهت المعركة بقتل كل المسلمين. كذلك أدى الصمت والسكوت في صفوف المسلمين بأمر من رسول الله ﷺ إلى إضفاء جوٍّ من الرهبة على ساحة المعركة.

ثم طرح رسول الله مشروعته الديني والبناء والأخلاقي، في أنه لا يريد الحرب، ولا إذلال قريش، وأن أقصى ما يريده أن يسمح لدعوته إلى الله أن تنتشر بين العرب، وها هو يغري قريشاً بأنه سوف يكون لها مكسب من انتصار دعوته! أليس هو منها؟ فبعث الرسول إلى قريش من يقول لهم عنه: «يا معشر قريش، ما من أحد من العرب أبغض إليّ ممن بدأ بكم! خلّوني والعرب، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً، وإن أك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمري، فارجعوا».

فأثرت دعوته في دفع الخائفين والمترددّين من قريش نحو التراجع والانسحاب، فقام عامر الحضرمي وكشف عن رأسه، وأخذ يحثو التراب عليه، وصاح مستغيثاً: «واعامراه واعامراه»، تحريكاً للناس، وإثارة لمشاعرهم.

ثم خرج من بين صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقد أبصر الحوض الذي بناه المسلمون عند البئر لشربهم، وشدّ حتى دنا منه، فاستقبله الحمزة، فشدّ عليه وقتله. وقد تسببت هاتان الحادثتان في توتير الأجواء وشحنها باتجاه الحرب، وفي أن يصبح القتال أمراً حتمياً⁽³⁾.

(1) النواضح جمع الناضحة، وهي الناقة على البئر يجلب عليها الماء.

(2) الموت الثابت البالغ في الإفناء.

(3) ابن حيان، الثقات، ج1، ص166.

القتال والاشتباك

1. المباراة الأولى:

تقدّم عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فأخذوا يدعون إلى المبارزة، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة فتية وهم: «عوف» و «معوذ» ابنا الحارث، و«عبد الله بن رواحة». فقال عتبة: «من أنتم؟ انتسبوا لنعرفكم». فقالوا: «نحن بنو عفرا أنصار الله وأنصار رسول الله».

قال: «ارجعوا، لسنا إياكم نريد، إنّما نريد الأكفأ من قريش!». فأرجعهم رسول الله ﷺ، ثم بدأ رسول الله بأهل بيته من المهاجرين، ونظر إلى ابن عبيدة بن الحارث، ثم نظر إلى عمّه حمزة بن عبد المطلب، ثم نظر إلى أمير المؤمنين ﷺ، وقال لهم: «قوموا». ثم قال لهم: «فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم. قد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفئ نور الله». ثم قال: «يا عبيدة عليك بعتبة»، وقال لحمزة: «عليك بشيبة»، وقال لعليّ: «عليك بالوليد بن عتبة»، فمروا حتى انتهوا إلى القوم.

فحمل عبيدة على عتبة، وضربه على رأسه ضربة ففلق هامته. وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها، وسقطا. وحمل حمزة على شيبة فتضاربا بالسيف حتى انثلما، وكل واحد يتقي بدرفته. وحمل أمير المؤمنين ﷺ على الوليد بن عتبة، فضربه على عاتقه، وأخرج السيف من إبطه، فأخذ الوليد يمينه المقطوعة بيساره، فضرب بها هامة عليّ ﷺ.

ونادى المسلمون: «يا عليّ، أما ترى الكلب قد أبهر (أعجز) عمك؟!». فحمل عليّ ﷺ على شيبة، وقال لعمّه حمزة: «يا عمّ، طأطئ رأسك». وكان حمزة طويلاً، فأدخل حمزة رأسه في صدره، وضرب عليّ على رأس شيبة فطير نصفه. وكان عتبة قد قطع رجل عبيدة، وفلق عبيدة هامته، فجاء عليّ إلى عتبة وفيه رمق، فأجهز عليه. فيكون أمير المؤمنين ﷺ قد شرك في قتل الثلاثة، ثم حمل هو وحمزة عبيدة بن الحارث حتى أتيا به رسول الله، فنظر إليه رسول الله واستعبر، وقال عبيدة: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ألسنت شهيداً؟»، قال رسول الله: «بلى، أنت أول شهيد من أهل بيتي».

ونزل في هؤلاء الستة قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾⁽¹⁾، ونزل في عليٍّ وحزمة وعبيدة أيضاً قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾⁽²⁾.

2. الهجوم العام:

على إثر مقتل صناديد قريش الثلاثة في المبارزة الفردية، بدأ الهجوم العام. فتزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، ونظر رسول الله إلى قريش، فقال لأصحابه: «غضوا أبصاركم، وعضوا على النواجذ، ولا تسلوا سيفاً حتى آذن لكم». وأمر أصحابه بأن لا يحملوا حتى يأمرهم، وأن يكتفوا برمي القوم بالنبال إذا اقتربوا منهم ليمنعوا تقدم العدو، ثم نهى النبي عن قتل من خرج من بني هاشم، وفاءً من النبي لهم، لأجل حمايتهم له عندما كان في مكة، ولأنهم خرجوا مُكرهين، ونهى أيضاً عن قتل أبي البختري الوليد بن هشام؛ لأنه كان يكف الناس عنه في مكة، وهو ممن قام بنقض الصحيفة⁽³⁾. كذلك نهى النبي عن قتل الحارث بن نوفل، وزمعة بن الأسود لكراهتهما الخروج. وبأمر من جبرئيل، قال النبي لعليّ: «ناولني كفاً من حصاء»، فناوله كفاً من حصاء فرمى بها في وجه القوم وقال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: «شدوا»⁽⁴⁾. فبعث الله رياحاً تضرب في وجه قريش⁽⁵⁾، فامتلات عيون المشركين وأفواههم ومناخرهم من الحصاص، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْنُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(1) سورة الحج، الآية 19.

(2) سورة الأحزاب، الآية 23.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص629، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص23.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص628، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص284.

(5) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص69، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، 1409م، ط1، ج5، ص93، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص169، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص188، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج2، ص280، ص323، الواقدي، المغازي، ج1، ص81، ص95، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص424.

قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»⁽¹⁾، ثم ردّ فهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وخلال المعركة، وعلى الرغم من شدة الموقف، كان عليّ يعاهد النبيّ باستمرار، ولا يغفل عنه لحظة واحدة، فلم يمض وقتٌ على عمليّة الصدم الأولى التي ترنّحت على أثرها صفوف المشركين، حتّى جاء عليّ لكي ينظر إلى رسول الله ما فعل، فوجده ساجداً، يقول: «يا حيّ يا قيّوم يا حيّ يا قيّوم». فعاد عليّ عليه السلام إلى القتال، ثمّ عاد إليه ثانية فوجده يقول ذلك، ثمّ عاد إليه ثالثة فوجده يقول ذلك، حتّى فتح الله تعالى عليه.

هزيمة المشركين في بدر

وانجلت غبرة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين، الذين انتابهم خوفٌ ورعبٌ شديداً، وإذا بهم ينهزمون أمام زحف المسلمين ويلوذون بالفرار، لا يلوون على شيء، والمؤمنون في أعقابهم يوسعونهم قتلاً وأسراً. ولم تمض ساعة على انتهاء المعركة إلا وكانت نتائجها قد ظهرت: هزيمة منكرة للمشركين وانتصار باهر للمسلمين. فقد غادر المشركون ساحة القتال هارين صوب مكة، مخلفين وراءهم سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم، وفتيانهم الشجعان، وسبعين أسيراً. وقد تركت جرأة عليّ وشجاعته في هذه المعركة أثراً في كلّ المعارك⁽²⁾.

إجراءات النبيّ عليه السلام بعد معركة بدر

1. دفن الشهداء:

بعد انتهاء المعركة وفرار قريش، أمر رسول الله عليه السلام بالقليب، وهي بئر هناك، أن تعور، ثمّ بقتلى المشركين، فطرحوا فيها. ثمّ بدأ بدفن شهداء المسلمين. وبعد الانتهاء من ذلك صلّى بالناس العصر، ثمّ غادر أرض بدر قبل غروب الشمس من ذلك اليوم.

(1) سورة الأنفال، الآية 17.

(2) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص68، الواقدي، المغازي، ج1، ص152، الشيخ المفيد، الإرشاد، المفيد، ج1، ص69، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص170.

2. الغنائم:

تمثلت الغنائم في مئة وخمسين من الإبل، وثلاثين فرساً وسلاحاً، ومتاعاً، وأنطاعاً، وأدماً كثيراً⁽¹⁾.

3 . قضية الأسرى:

كان أسرى المشركين سبعين رجلاً، وقال النبي لأصحابه في الأسرى: «استوصوا بهم خيراً»⁽²⁾. ساقوهم على أقدامهم، وكانوا يحملون تارة، ويمشون أخرى⁽³⁾، وعند غروب الشمس نزلوا الأثيل⁽⁴⁾، ونظر رسول الله إلى عقبة بن أبي معيط ذي السوابق السيئة المعروفة مع المسلمين والنبي في مكة، وكان النبي قد توعدّه إن وجده خارج مكة أن يضرب عنقه، والنضر بن الحارث بن كعدة الذي كان يعدّب المسلمين في مكة، فأمر رسول الله ﷺ الإمام عليّ عليه السلام فقتلها⁽⁵⁾.

ولما شاهد الأسرى ذلك، حاولوا أن يذكروا رسول الله ﷺ بالرحم لقريش، فامتنع النبي عن ذلك. وكان قتل هؤلاء المشركين سوف يطمئن الأنصار إلى أن النبي قد قطع وإلى الأبد علاقته بقومه، وأن علاقته الإسلامية الدينية مع المسلمين هي الأقوى والأثبت والباقية. وبما أن الأمة الإسلامية كانت لا تزال ضعيفة، قليلة العدد، محاصرة، ويمكن أن تكون هدفاً مغرباً للأعراب واليهود، فكان ينبغي أن يزرع المسلمون الرعب في نفوس الأعراب واليهود والمشركين من قريش وغيرها، حتى يحسبوا ألف حساب قبل أن يقدموا على العدوان على المسلمين. وكان هذا هو مقصود الله تبارك وتعالى في الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَسْرَى حَتَّى يُخِجْنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص118، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص183، الواقدي، المغازي، ج1، ص102.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص119.

(3) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص119.

(4) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص169، بالصفراء، وهو من بدر على ستة أميال (اثني عشر كيلو متراً إلى المدينة).

(5) كان من المستهزئين والمحرضين على حرب بدر، راجع: الواقدي، المغازي، ج1، ص37.

(6) سورة الأنفال، الآية 67.

ولهذا، فقد أراد النبي ﷺ أن يقتل هؤلاء الأسرى، فبدأ بهذين. ولكن لما رأى الأنصار قتل الأسيرين خافوا أن يقتل جميع الأسرى، فيخسروا الفداء الذي طمعوا به، فقالوا: «يا رسول الله، قتلنا سبعين، وأسرا سبعين، وهم قومك وأسرتك (وأسارك) أتجدُّ أصلهم؟ ولكن هبهم لنا يا رسول الله حتى نفاديهم وأطلقهم».

وقال جبرائيل لرسول الله: «إنَّ الله قد كره ما صنع قومك من أخذ الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموهم ويضربوا أعناقهم، وبين أن يأخذوا من هؤلاء الفداء ويطلقوهم، على أن يستشهد منهم في عام قابل بقدر من يأخذون منه الفداء من هؤلاء»، فرضي المسلمون بذلك.

وأعلن رسول الله ﷺ عن قراره بشأن الأسرى وهو: إنَّ من دفع فدية قدرها أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم خُلِّي سبيله، وإن من كان فقيراً لا مال له أفرج عنه دون فداء، وإن من لم يستطع دفع الفدية وعلم عشرة من الصبيان من أولاد الأنصار الكتابة والقراءة كان ذلك فداءه وخلي عن سبيله من غير أن يؤخذ منه مال⁽¹⁾.

نتائج معركة بدر وآثارها

لقد تحققت بانتصار المسلمين في بدر نتائج سياسية وعسكرية وعقائدية مختلفة، ساهمت في تحقيق نقلة نوعية للدعوة الإسلامية، أهمها:

1. تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبيت إيمان المترددين منهم في إسلامهم.
2. جعلت من المسلمين قوة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة، وأصبح على المشركين واليهود أن يفكروا كثيراً قبل الشروع في أي عمل عسكري ضد يثرب.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص126، ص270، الواقدي، المغازي، ج1، ص117، الشريف الرضي، محمد بن الحسين، حقائق التأويل، شرح: محمد رضا آل كاشف الغطاء، ملاحظات: دار الكتب الإسلامية، قم، إيران، الناشر: دار المهاجر، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج5، ص11، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج5، ص269، ج6، ص7.

3. شجعت الكثيرين على اعتناق الإسلام بعد أن كانت قريش تشكل الحاجز النفسي والمادي لهم.
4. أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب، ووضعتها أمام موقف محرج، فها هو طريقها التجاري إلى الشام قد أصبح فعلياً تحت سيطرة القوة الإسلامية المتمركزة في يثرب.
5. فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ في الانطلاق بحرية أكبر في نشر الدعوة.
6. أثبتت تجربة بدر أن القلة المؤمنة المجاهدة الصابرة التي تملك إرادة قوية وعزيمة وإخلاصاً، تستطيع أن تحقق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتى ولو كان العدو يملك الكثرة والقوة المادية الكبيرة.

عوامل النصر في معركة بدر

1 - العوامل العامة:

- أ. وحدة القيادة: فقد كان للمسلمين في معركة بدر قائدٌ عامٌ واحدٌ هو خاتم النبيين ﷺ.
- ب. الطاعة والانضباط: كان المسلمون يطيعون النبي ﷺ وينفذون أوامره بدقة وانضباط.
- ج. العقيدة الدينية وارتفاع المعنويات: فقد امتلك المسلمون في بدر معنويات عالية نابعة من عقيدة دينية وإرادة قوية وإخلاص وتفان في سبيل الله.
- د. الصفات الإيمانية: فقد تحلّى المسلمون في بدر بالإيمان والتوكل والصبر والشجاعة والثبات والتضحية والتعاون والإيثار، وأثبتوا أنها عوامل تحقيق النصر، وأن قوة السلاح والكثرة العددية ليستا هما العامل الأساس في ذلك.

2 - الإمدادات الغيبية:

- أ. إخفاء المعركة عن المسلمين: إنهم لو كانوا على ميعاد مع العدو، ومع العلم

التفصيلي بحجم إمكانياته البشرية والقتالية؛ لامتنع المسلمون عامة عن مقابلة المشركين. ولكن شاء الله أن لا يعرف المسلمون شيئاً مفصلاً عن المشركين مسبقاً، بل يواجه المسلمون الأمر الواقع، فيتحقق ما أراد الله من الانتصار على قريش. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (1).

ب. تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين: في أول القتال، لكي يستقل الأعداء قوّة المسلمين، ولكي لا يهاب المسلمون الأعداء ويستعظموا عددهم، وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (2).

ج. تكثير عدد المسلمين في أعين الكفار: وذلك أثناء القتال، وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّحَاتِّ فِئَةٌ نَقَّتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (3).

د. الإمداد بالملائكة: المردفين المسومين، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (4).

هـ. نعاس المسلمين ونزول المطر: نزول المطر عليهم الذي طهرهم من الأقدار، ومكّنهم من الاغتسال. وقد أشار سبحانه إلى كل ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ

(1) سورة الأنفال، الآية 42.

(2) سورة الأنفال، الآية 44.

(3) سورة آل عمران، الآية 13.

(4) سورة الأنفال، الآية 9.

التُّعَاسَ أُمَّتَهُ مِنْهُ وَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ
رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١﴾.

تثبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكفار: وإلى هذين النوعين من
الإمداد الغيبي، أشار بقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (2).

(1) سورة الأنفال، الآية 11.

(2) سورة الأنفال، الآية 12.

المفاهيم الرئيسية

- استقرت قريش في منطقة بدر استعداداً للمواجهة، وأرسلت بعض رجالها لجلب المعلومات عن جيش المسلمين، فجاءوا بأخبار أدخلت الرعب في قلوب قريش.
- ابتداءً رسول الله ﷺ ببيان مشروعه الديني والسياسي، مما أدى إلى زرع البلبلة في صفوف المشركين. وكان رسول الله ﷺ قد أغلق بعض الآبار، مما حدا ببعض رجالات قريش لمحاولة جلب الماء، فشدَّ عليه الحمزة فقتله، ثم حصل الهجوم، وتنادى الطرفان للقتال، ودنا بعضهم من بعض، وكان رسول الله ﷺ قد أحكم خطته بشكل كامل، من حيث التوزيع العكسري للمسلمين، وأكد على الالتزام بأوامره، فقد نهى عن قتل من كان من بني هاشم، وقتل الوليد بن هشام؛ لأنهم ممن دافع عنه في مكة. ولقد كان ثبات النبي ﷺ وثبات الإمام عليّ ﷺ الدور البارز في انتصار المسلمين، وكذلك فإن ثبات المقاتلين المسلمين أثر بشكل مباشر على جيش المشركين.
- إن لمعركة بدر نتائج عدّة، منها: تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وجعلت من المسلمين قوة مرهوبة، تشجيع الكثيرين على دخول الإسلام، إضعاف هيبة قريش، فتح الأبواب للنبيّ في نشر الدعوة، وإثبات أن القلة المؤمنة تستطيع أن تهزم القوى الكبرى، رغم قلة العدد والعدّة.
- إن عوامل النصر عديدة في المعركة، فمنها العوامل المادية، وهي: وحدة القيادة، الطاعة، العقيدة الدينية، الصفات الإيمانية، ومنها العوامل الغيبية، كإخفاء المعركة عن المسلمين، تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين، تكثير عدد المسلمين في أعين الكفار، الإمداد بالملائكة، نعاس المسلمين ونزول المطر، وتثبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

الدرس الثالث عشر

اليهود والإخلاق بنظام الدولة الإسلامية (بنو القينقاع - بنو النضير)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح سياسة النبي ﷺ في مواجهة حركة المنافقين في المدينة.
2. يعرف أسباب إخراج النبي ﷺ لليهود من المدينة.
3. يشرح أسلوب النبي ﷺ في القضاء على خطر يهود بني قينقاع وبني النضير.

تمهيد

حين تكون حركة ما أو دعوة ضعيفة، فإنَّ خصومها سيواجهونها بالعنف والاضطهاد. فإذا ما تشبَّثت تلك الدعوة بأسباب القوَّة، وانتقلت إلى نحو من أنحاء امتلاك البأس والقوَّة، فإنَّ خصومها سوف يتَّجهون نحو استعمال أساليب المكر والخديعة. فربَّما يكون الطمع في الوصول إلى زعامة هذه الدعوة إشباعاً للنزعة السلطويَّة، أو الطمع في الوصول إلى موقع معنويِّ فيها وبين مؤيِّديها وأنصارها، أو الطمع الماديِّ كالمغانم، أو تنمية المصالح وتوسعتها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد واجه رسول الله ﷺ خطراً عظيماً يحيق المكر والخدع والخيانة بالدولة الإسلاميَّة ونظامها، فسعى ﷺ جاهداً إلى تحقيق الاستقرار والأمن في المدينة المنورة، ومنع حصول خلل في بنية النظام الإسلاميِّ وعلاقاته بالآخرين. ولذلك قرَّر مواجهة خيانة بني قينقاع وبني النضير.

بروز وخفاء ظاهرة النفاق

لقد استخدمت حركة النفاق أساليب المكر والخداع في عهد خاتم النبيين ﷺ في المدينة، حيث هاجر النبي ﷺ إليها وكسب أنصاراً، فكان مستظهِراً بهم على العدَّة القليلة الذين لم يؤمنوا به من قومهم، ولم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم، ويظهروا شركهم، فتوقَّوا الشرَّ بإظهار الإسلام، وآمنوا به ظاهراً وهم على كفرهم باطناً، فدسَّوا الدسائس، وما فتَّوا يكيِّدون للإسلام، وللنبيِّ وللمسلمين، ويتربِّصون بهم الدوائر؛ فكانوا يتآمرون مع أعداء الإسلام، ويحرِّضونهم، عدا عن كونهم عيوناً للأعداء. ثمَّ كانوا يشاركون

في الافتراء، وحياسة الأباطيل حيناً آخر، إلى جانب تخذيلهم المسلمين، وبث الإشاعات الباطلة. ولكنهم حين قويت شوكة المسلمين لم يجدوا مناصاً من العض على الجراح، خصوصاً بعد أن ظهر لهم أن التحركات العسكرية للمسلمين في المناطق المختلفة كانت تسقط مواقع العدوان والتآمر الواحد تلو الآخر، وتقضي عليها، أو تحولها إلى مواقع قوة وصمود للمسلمين.

إلا أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى كشف حقيقة المنافقين في الإسلام، ولم يواجههم، ويقضي عليهم بداية الأمر، فلو قاتلهم النبي ﷺ والخاتم ﷺ وهم محسوبون عليه ومن أتباعه وأصحابه، فسوف يظهر كأنه يقتل أصحابه وينكل بهم، وحينئذ لن يجرؤ أحد على اعتناق الإسلام، بحجة أن النبي ﷺ يقتل أصحابه إذا ارتاب بهم. فحينما طلب من النبي ﷺ أن يقتل ابن أبي المنافق، أجابه النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»⁽¹⁾.

نجاح سياسة النبي ﷺ في مواجهة المنافقين

إن حركة النفاق - على خطورتها - لم تكن قادرة على مواجهة التيار الإسلامي، الذي استمد قوته من شخصية النبي ﷺ، ومبادرته السريعة في التصدي لحركة المنافقين⁽²⁾. فقد نجحت سياسة رسول الله هذه مع المنافقين، إلى درجة أن قوم ابن أبي أنفسهم قد بدؤوا يضيقون ذرعاً به وبتصرفاته، وصاروا يلومونه ويعنفونه على ما بدر منه. فعندما رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة، جلس على المنبر يوم الجمعة، فقام عبد الله بن أبي بن سلول، وقال متملقاً ومتزلفاً نفاقاً: «هذا رسول الله بين أظهركم، قد أكرمكم الله، وأعزكم به؛ فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوه!»، ثم جلس.

(1) عبد الرزاق الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، المصنف، المجلس العلمي، بيروت، لبنان، 1980م، ط1، ج9، ص469، البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص132، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص231، ابن كثير، البداية والنهاية، ج7، ص297.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج3، ص65.

فكان له هذا المقام يقومه كل جمعة، وكان شرفاً له لا يريد تركه. فلما كان يوم معركة أحد، وصنع عبد الله بن أبي ما صنع، إذ رجع بالناس وخذل رسول الله، ثم قام في المسجد يوم الجمعة ليقول ما كان يقوله، قام إليه المسلمون، وأخذوا بثيابه، وقالوا له: «اجلس يا عدو الله! لست أهلاً لهذا، وقد صنعت ما صنعت!»⁽¹⁾.

محور اليهود

بما أن اليهود كانوا الطرف الأكثر تضرراً من دخول الإسلام إلى يثرب، فإن العدو الجدي للدولة الإسلامية الجديدة في يثرب، كان في الواقع اليهود. وبعد نشوء حركة النفاق وتشكيلها لجبهة عدوة خفية ضد الإسلام، التقت مصالح اليهود والمنافقين في العداء للإسلام، فكان تبادل الدعم والمواقف أحد الأساليب التي لجأ إليها الفريقان. وكما كان اليهود هم الذين أذكوا حركة النفاق في المدينة وساعدوا على اشتعال أوارها، كذلك وقف المنافقون إلى جانبهم في الظروف الصعبة التي مروا بها، كما في نقض يهود بني قينقاع عهدهم مع النبي. وعندما تأمر بنو النضير على حياة النبي ﷺ وحاولوا قتله. وقد تجلّى عمل اليهود ضد الإسلام في المحاولات الآتية:

- أ. الانسحاب: الانسحاب من المعارك في الساعات الحرجة؛ كانسلاهم من الجيش الإسلامي في منتصف الطريق قبل يوم أحد، وهم ثلثهم تقريباً.
- ب. الحرب النفسية ضد المسلمين ومحاولة تهديم معنوياتهم: فبعد الضربة القاسية التي تلقاها المسلمون في معركة أحد، انتهز المنافقون هذه الفرصة، وأخذوا يشنون حرباً نفسية، وأظهروا الشماتة والسرور، وجعلوا يخذلون المسلمين، ويحثونهم على التفرق عن النبي ﷺ⁽²⁾.
- ج. إثارة الفتن والمشاكل الداخلية: كما حصل في غزوة بني المصطلق، حينما حاولوا إثارة المشاعر القبليّة عند الأوس والخزرج ضد المهاجرين، وكما حصل حينما بنوا

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص111، الواقدي، المغازي، ج1، ص318.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص317.

مسجدًا مقابل مسجد قبا، في محاولة لتفريق صفوف المسلمين وإحداث الشقاق بينهم⁽¹⁾.

د. **محاولة اغتيال النبي ﷺ**: عندما كان عائداً من غزوة تبوك، أراد اثنا عشر منافقاً أن يمحروا به ويطرحوه من عقبة في الطريق، ولكنه كشف محاولتهم هذه وفضحها⁽²⁾.

أسباب إخراج النبي ﷺ اليهود من المدينة

لقد بدأ اليهود يحاربون الإسلام منذ اليوم الأوّل لظهوره، على الرغم من أنّهم كانوا أوّل من بشرّ بظهور نبيّ الإسلام محمد ﷺ. فقد رأوا هذا الدين يحارب الربا والاحتكار، ويدعو إلى العدالة الاجتماعيّة، وشاهدوا كيف التّف العرب حوله وقبلوه، وأصبحوا جنوداً مخلصين في صفوفه، وزالت بينهم الشحناء والبغضاء، وألّف هذا الدين بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً، وشكّلوا قوّة اجتماعيّة منّظمة ومّتحدة مطيعة لقائدها النبيّ، ولها فكرها وعقيدها وكتابها وعلومها؛ فتحرّرت من السيطرة التاريخيّة لليهود على مستوى المال والعقيدة والعلم، فلطالما ادّعى اليهود التفوّق العلميّ على الأعراب، بأنّهم يحملون الكتاب، ويعلمون به الأسرار والمعارف والحقائق، فجاء الإسلام ليدحض دعواهم، ويخونهم في حمل رسالة موسى، ويسفّه آراءهم، ويسقط وجاهتهم وزعامتهم وسيطرتهم.

ومن هنا، تبلورت علائم المعارك التالية ضدّ اليهود، فقد كان الدور اليهوديّ واضحاً خلال السنوات الخمس الأولى من الهجرة، في الصراع بين الوثنيّة والإسلام. وقد أخرجهم النبيّ في الفترة الأولى لقدمه إلى المدينة، فعقد معهم المعاهدة، ووادعهم، فاستجاب اليهود في الفترة الأولى، ولم تكن مؤامراتهم وفسادهم من الخطورة بحيث إنّها تسبّب قلقاً للنبيّ والمسلمين.

(1) سورة التوبة، الآيتان 107 و108.

(2) سورة الأحزاب، الآية 61.

لكن اليهود فوجئوا بنتائج بدر، فتغيّرت أساليبهم تغيّراً جذرياً، وأحسّوا بخطر الإسلام الوجودي الحقيقي عليهم بعد أن استطاع أن يهزم قريشاً التي راهن اليهود عليها، وكانوا يأملون بأن تتكفل هي بالقضاء على هذا الدين من دون أن يتكلّفوا هم الخسائر. فأخذ التغيّر في أساليبهم يظهر بآطراد، كمحاولة إشعال الفتنة بين الأوس والخزرج مجدداً، والتأمر على حياة النبي ومحاولة قتله، والاتصال بقريش، كما فعل كعب بن الأشرف، فقرر النبي ﷺ تصفية وجودهم في المدينة.

1. إجلاء بني قينقاع عن المدينة وحصارهم:

كان بنو قينقاع من أشهر قبائل اليهود وأشجعهم، وأكثرهم مالاً، وأشدّهم بغياً واستكباراً، وكانوا يسكنون أقرب الأحياء إلى المدينة، ويحتكرون الصناعات الذهبية في يثرب؛ حيث اتخذوا سوقاً خاصاً حمل اسمهم⁽¹⁾، وكانوا حلفاء لعبد الله بن أبي المنافق، ولعبادة بن الصامت.

وهم أوّل من نبذ العهد الذي كان بينهم وبين النبي، بعد أن كتبت إليهم قريش في قتال النبي؛ فاستجابوا لطلبها. وبعدها قدم رسول الله إلى المدينة بعد بدر، اعتدوا على امرأة مسلمة كانت في سوق لهم، فقام رجل من المسلمين وقتل المعتدي عليها، واجتمع بنو قينقاع على المسلم فقتلوه. وبذلك حاربوا رسول الله، ونبذوا العهد بينهم وبينه.

غضب المسلمون، وقال النبي ﷺ: «ما على هذا قرّناهم»، فتبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم، وكان هذا أوّل انهيار في جدار التحالف التاريخي بينهم وبين الخزرج. ولكن ابن أبي سلول تمسك بهذا الحلف.

جمع النبي ﷺ يهود بني قينقاع في سوقهم، وقد أراد أن يدعوهم إلى الإسلام، فلا يطالبهم بالانتقام للمسلم المقتول إلا قصاصاً بل وعفواً، ثم يندرهم بحرب كحرب بدر فرفضوا الإسلام، ثم تحصّنوا في حصونهم.

(1) السمهودي، وفاء الوفا، مصدر سابق، ج1، ص278.

استخلف النبي ﷺ على المدينة أبا لبابة، وسار إليهم يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة، يحمل لواءه الإمام علي بن أبي طالب، فحاصروهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار، وهم لزموا حصنهم، فما رموا بسهم ولا قاتلوا⁽¹⁾، ونشبت بينهم وبين المسلمين معركة الإرادة والصبر، فظنوا للوهلة الأولى أنهم مانعتهم حصونهم، وأن خاتم النبيين ﷺ سوف يتراجع أمام صمودهم ومناعة حصونهم، ولكن النبي ﷺ خاض معركة الصبر والعناد والإصرار على الاستمرار في المعركة. وفي قمة التحدي، قرروا التنازل، وانهارت عزيمتهم، فاقترحوا على رسول الله ﷺ أن يغادروا حصونهم، وقالوا: «أفنزّل وننطلق؟». ولكنه رفض إلا أن ينزلوا منها مستسلمين، خاضعين لحكمه، وقال لهم: «لا! إلا على حكمي».

فنزلوا على صلح رسول الله وحكمه، على أن تكون أموالهم لرسول الله، ولهم الذرية والنساء، فلما نزلوا وفتحوا حصنهم، قبض رسول الله أموالهم، وأمر بهم أن يجلبوا من المدينة. وطلبوا إمهالهم أياماً عدة حتى يستطيعوا ترتيب أوضاعهم وتحصيل ديونهم، فأمهلهم خاتم النبيين ثلاثة أيام⁽²⁾.

ونزل بنو قينقاع في بيوت ومنازل يهود وادي القرى، وأقاموا فيهم شهراً، ثم ساروا حتى لحقوا بأذرعات بالشام⁽³⁾.

وهكذا خلت المدينة من أقوى وجود يهودي داخلها، وكانوا يتوقعون تدخل حلفائهم من الخزرج، ولم ينتهبوا إلى أن عقد الولاء الجاهلي قد انفرط وحل محله الولاء للإسلام، وأن ابن أبي لم يكن يستطيع حشد الخزرج إلى جانبهم؛ لأنه لم يعد يسيطر عليهم كلياً، وأية محاولة منه ضد النبي كانت سوف تقسم الخزرج، وتؤدي إلى حرب داخلية.

(1) الواقدي، المغازي، ج1، ص177، ابن هشام، والسيرة النبوية، ج3، ص51، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص52.

(2) الواقدي، المغازي، ج1، ص177، ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج3، ص51، ص52.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص48، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص33، الواقدي، المغازي، ج1، ص176، وأذرعات كانت أول بلدة بحدود الأردن من الحجاز.

2. إجلاء بني النضير عن المدينة:

لَمَّا أُصِيبَ الْمُشْرِكُونَ فِي بَدْرٍ، بَلَغَ ذَلِكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ قَتْلُ مَنْ قُتِلَ فِي بَدْرٍ، فَبَكَاهُمْ وَهَجَا النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَكَانَ يَشَبُّ بِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَنِسَاءِ النَّبِيِّ أَيضًا حَتَّى آذَاهُمْ، وَسَارَ إِلَى مَكَّةَ وَحَرَّضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى أَجْمَعَ أَمْرَهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ، فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَدَأَ بِتَدْبِيرِ مَكِيدَةٍ يَقْتُلُ بِهَا النَّبِيَّ. وَقَدْ ظَهَرَتْ تِلْكَ الْمَكِيدَةُ عِنْدَمَا قَدَّمَ النَّبِيُّ قَاصِدًا كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَمَعَهُ جَمْعٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ لَهُ كَعْبُ: «مَرْحَبًا يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَأَهْلًا». وَقَامَ كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ لَهُمُ الطَّعَامَ، ثُمَّ خَلَا بَعْضَ الْيَهُودِ إِلَى بَعْضٍ، فَتَنَاجَوْا فِي مَا بَيْنَهُمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ ﷺ بِطَرْحِ حِجَارَةٍ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقِ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ تَحْتَهُ. فَإِنَّهُ إِنْ قَتَلَ تَفَرَّقَ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشٍ: «أَنَا أَظْهَرُ عَلَى الْبَيْتِ فَأَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً». وَقَدْ رَفَضَ بَعْضُ الْيَهُودِ ذَلِكَ؛ لَعَلَّهُمْ بِصَدَقِ نَبْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ قَالَ سَلَامُ بْنُ مَشْكَمٍ: «يَا قَوْمُ، أَطِيعُونِي هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَخَالَفُونِي الدَّهْرَ، وَاللَّهِ، إِنْ فَعَلْتُمْ لِيُخْبِرُنَّ بَأَنَّا قَدْ غَدَرْنَا بِهِ، وَإِنَّ هَذَا نَقْضُ لِلْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَلَا تَفْعَلُوا، أَلَا فَوَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُمْ الَّذِي تَرِيدُونَ؛ لَيَقُومَنَّ بِهَذَا الدِّينِ مِنْهُمْ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَسْتَأْصِلُ الْيَهُودَ وَيُظْهِرُ دِينَهُ!».

وَوَلَّغَ عَلَى أَمْرِ الْيَهُودِ اتِّجَاهَ الْغَدْرِ وَالتَّأْمُرِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ الْخَبَرَ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا هُمُّوا بِهِ. فَهَضَّ سَرِيعًا، وَانصَرَفَ رَاجِعًا عَنْهُمْ، وَقَدْ عَرَفَ أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَصْحَابَهُ وَهُوَ حَيٌّ، وَأَخَذَ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ⁽¹⁾.

وَجَلَسَ أَصْحَابُهُ يَتَحَدَّثُونَ، فَقَالَ حَيِّي: «عَجَّلْ أَبُو الْقَاسِمِ، قَدْ كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَنَغْدِيهِ». فَلَمَّا يئَسَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، قَامُوا وَرَجَعُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاسْتَقْبَلَ بَعْضُ أَصْحَابِ كَعْبِ رَسُولَ اللَّهِ وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَخْبَرُوا كَعْبًا بِذَلِكَ، فَقَالَ كِنَانَةُ بْنُ صُورِيَا: «لَقَدْ أَخْبَرَ مُحَمَّدٌ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنْ

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج2، ص 358.

الغدر، والله إنّه لرسول الله، وما قام إلّا لأنّه أخبر بما هممتم به، وإنه لآخر الأنبياء... فأطيعوني في خصلتين والثالثة لا خير فيها!». قالوا: «ما هما؟»، قال: «تسلمون وتدخلون مع محمّد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من عليّة أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم»، فرفضوا ذلك مطلقاً، وقالوا: «لا نفارق التوراة وعهد موسى!».»

حصار بني النضير

أمر النبيّ في تلك الليلة بقتل كعب بن الأشرف، قبل أن يقوم ضدّهم بأيّ إجراء، وانتدب لذلك أبا نائلة، فقتل في صبيحة تلك الليلة⁽¹⁾. ثمّ أرسل محمّد بن مسلمة الأنصاريّ إلى يهود بني النضير، ليقول: «إنّ رسول الله أرسلني إليكم: أن اخرجوا من بلده، وإمّا أن تأذنوا بحرب⁽²⁾!».»

فوافقوا على ذلك، ومكثوا أياماً يتجهّزون، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبيّ بن أبي سلول، ورفض الخروج، فانقلبت الأمور. فأبى حيي بن أخطب إلّا محاربة رسول الله. وأرسل أخاه جدياً، يقول لرسول الله: «إنّا لا نبرح من دارنا وأموالنا؛ فاصنع ما أنت صانع». وأرسله أيضاً إلى ابن أبيّ بتعجيل ما وعد من النصر.

فلمّا وصل جدي إلى رسول الله وأخبره قرارهم، أظهر رسول الله التكبير، وقال: «الله أكبر، حاربت يهود»، وكبّر المسلمون بتكبيره. وهكذا، بدلاً من الوجود والارتباك في الموقف، والذي كان ينتظره اليهود من المسلمين، كان التكبير إعلاناً حماسياً لموقف شديد من اليهود، وبسرعة غير متوقّعة، ممّا أربكهم هم وأوقعهم في الحيرة، وزعزع ثباتهم.

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص256، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص207، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص152، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص79.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج2، ص359.

ونادى منادي رسول الله يأمر أصحابه بالمسير إلى بني النضير، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة النبوية، قبل أحد، صبيحة قتل كعب بن الأشرف⁽¹⁾.

وأصبح رسول الله غادياً عليهم بالكتائب، وكانوا في قرية يقال لها «زهرة»، فوجدهم ينوحون على كعب، فقالوا: «يا محمد، واعية إثر واعية؟!»، ثم حشدوا للحرب. وهكذا، أصبح بنو النضير وحدهم بعد أن اختار يهود بني قريظة المحافظة على عهدهم مع النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد اختار أن يعامل بني النضير كما عامل بني قينقاع، أي إخراجهم من المدينة. وقد سلك بذلك طريقاً وسطاً، ولم يكن حاداً في موقفه منهم، وإن كانوا ينتظرون منه الحرب والقتال والإبادة جزاء نقضهم العهود، ولكن علاقاتهم المتشابكة في المدينة وأثرهم البالغ في نفوس كثير من الناس، جعل النبي ﷺ يختار عدم القتل والإبادة خشية من أن يترك ذلك أثراً سلبياً في نفوس الناس وصورة للإسلام تقترب بالقتل والقسوة وسفك الدماء. ولكن عندما رفضوا الخروج سلماً اضطر إلى الضغط عليهم عسكرياً من أجل تنفيذ ذلك.

وقد سار إليهم بعد العصر، وكانت الراية بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، ممّا زاد في رعب اليهود وزرع الخوف في نفوسهم⁽²⁾.

واستمر حصار بني النضير واحداً وعشرين يوماً، وقرّر رسول الله، بعد أن أبوا النزول على شروطه، تشديد الحصار عليهم، وحاصرهم خمسة عشر يوماً، ومرة أخرى انتصرت إرادة خاتم النبيين ﷺ، وفشل اليهود، فاقترحوا على خاتم النبيين الحل الذي كان هو

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص258، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص160، البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص10، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص253، العيني، بدر الدين العيني، عمدة القاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج17، ص126، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص74، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص9 - 145، السهيلي، الروض الأنف، ج3، ص250، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص255.

(2) وهو مكان مسجد الفضيخ، وهو جنوب مشربة أم إبراهيم في الشارع الموصل بين شارع العوالي وخط الحزام على طريق مستشفى المدينة الوطني، كما ذكره عبد الرحمان خويلد في كتابه: المساجد والأماكن الأثرية المجهولة، راجع: ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج1، ص69.

قد طرحه عليهم أولاً ورفضوه، وقالوا: «كما كنت تريد، نخرج ولنا ما حملت الإبل». وهنا، رفض رسول الله القبول بما كان هو قد طرحه أولاً، لأنّ الموازين قد تغيّرت، فهم خسروا جولة جديدة، وعليهم أن يتنازلوا بما يساوي هذه الخسارة الجديدة. فكان الاقتراح بأن يحملوا النساء والصبيان فقط، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وغير ذلك.

نتائج المعركة

خرج بنو النضير من المدينة المنورة، من دون قتال. فإن أرض بني النضير لم تفتح عنوة بالعمل الحربي المعروف، فأفاء الله أراضيهم على رسوله، وسوّغه أموالهم، فأصبحت خاصّة برسول الله يضعها كيف يشاء كما أراد الله تعالى، فجمع رسول الله ﷺ الأنصار، واقترح عليهم أن يعطي المهاجرين ما غنمه من بني النضير، فيخرج المهاجرون من مساكنهم وأموالهم، فقبل الأنصار بذلك، وقسم تلك الغنائم بين المهاجرين، وأعطى ثلاثة من الأنصار فقط لفقيرهم⁽¹⁾.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص360، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج9، ص35.

المفاهيم الرئيسية

- لقد استخدمت حركة النفاق أساليب المكر والخداع، ولم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم، ويظهروا شركهم، فتوقوا الشرّ بإظهار الإسلام.
- لم يذهب رسول الله ﷺ إلى كشف حقيقة المنافقين؛ بل ترك للناس أن تكشف حقيقتهم، ويتبين لهم كذبهم وخداعهم.
- لقد شكّل اليهود العدو الداخلي للنبي محمد ﷺ والإسلام، وقد التقت مصالح اليهود مع مصالح المنافقين داخل المجتمع الإسلامي، واتخذ اليهود إجراءات عدّة كان من شأنها الإساءة إلى الإسلام والمسلمين.
- يُعتبر يهود بني قينقاع من أشهر القبائل اليهودية، وهم أول من نبذ العهد مع النبي ﷺ بعدما اعتدوا على امرأة مسلمة في أحد الأسواق، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فرفضوا ذلك، وأعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين، وتحصّنوا في حصونهم، فسار إليهم النبي ﷺ بجيشه، وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وبعد ذلك نزلوا على حكم النبي ﷺ بأن تكون أموالهم له ﷺ، ولهم الذرية والنساء.
- بعد أن أصيب المشركون في معركة بدر، قام كعب بن الأشرف بهجاء النبي ﷺ وأصحابه، وكان يشبّب بنساء المسلمين، وخرج إلى مكة، وأجمع رأيهم على حرب النبي ﷺ، فقرر أن يدعو رسول الله ﷺ إلى حيّهم، ثم يقوم بقتله ﷺ غيلة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأمر بقتل كعب، فقتل في اليوم التالي، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهز لقتال بني النضير.
- سار رسول الله ﷺ إليهم في جيشه، فدخل اليهود إلى حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ واحداً وعشرين يوماً، فلما يئسوا نزلوا على حكم النبي ﷺ كما جرى مع بني قينقاع، وخرجوا من المدينة.

الدرس الرابع عشر

معركة أحد (1) (اختبار الطاعة والولاء)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يحلّل أسباب معركة أحد.
2. يبيّن استعدادات جيش المسلمين لمعركة أحد.
3. يعرف أحداث المعركة وسبب انتصار المسلمين ثمّ هزيمتهم في أحد.

تمهيد

شكّلت معركة بدر مرحلة حاسمة في حياة الإسلام والمسلمين، وأثّرت تأثيراً كبيراً على هيبة ومكانة قريش بين القبائل العربيّة. وكان من عادة الجاهليّة أن لا تبيت قبيلة ولها دم مع قبيلة أخرى إلا أن تأخذ بثأرها. ولذا، سعت قريش منذ وقوع الهزيمة بحقّها في معركة بدر أن تتأّر لقتلاها من جهة، ومن جهة أخرى أن تعيد مكانتها بين القبائل العربيّة؛ فعملت على لملمة صفوفها لقتال المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ يترقّب الأحداث، ويستجمع المعلومات عن قريش وتحركاتها، وكان يعلم أنّ قريشاً لن تسكت حتّى تتأّر لقتلاها، ولو مع مرور الزمن. وقد استعدّت قريش، وحشدت المقاتلين، وخرجت بنفسها لقتال رسول الله ﷺ، ومواجهة الدولة الإسلاميّة.

تعريف عامّ بالمعركة

قال الحمويّ: «أحد: بضم أوّله وثانيه معاً: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليّها⁽¹⁾، وسمّي أحدُ أحدًا لتوحّده من بين تلك الجبال»⁽²⁾.

ومعركة أحد هي من المعارك المهمّة في تاريخ الإسلام، فقد وقعت بين المسلمين

(1) الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج1، ص109.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج4، ص11.

وقبيلة قريش، وهي الغزوة الثانية في وجه قريش، وقد حصلت بعد معركة بدر بسنة تقريباً، حيث وقعت في السابع من شهر شوال من العام الثالث للهجرة، وسميت بأحد نسبة إلى جبل أحد بالقرب من المدينة المنورة، والذي وقعت الغزوة عنده. وكان السبب الرئيس لمعركة أحد هو رغبة قريش في الانتقام والأخذ بالثأر لقتلها في معركة بدر. وقد حشدت قريش عدداً كبيراً من المقاتلين من القبائل العربية، وكان عدد المشركين حوالي ثلاثة آلاف، بينما كان عدد المسلمين حوالي سبعمئة مقاتل. وقد قُتل سبعون من المسلمين، فيما قُتل من المشركين اثنان وعشرون مشركاً، وكانت نتيجة المعركة عدم تحقيق النصر على المشركين.

استعدادات قريش للمعركة

إن نتائج حرب بدر كانت قاسية على مشركي قريش، ومفاجئة لليهود والمنافقين في المدينة. فقريش لا يمكن أن تهدأ بعد الآن حتى تثأر لكرامتها، ولمن قُتل من أشرفها، وكانت الصدمة كبيرة فلم يتحملها المشركون، وانعكست على أعصابهم وقراراتهم فوترتهم، حتى أعلنوا المنع عن بكاء قتلهم غضباً وحنقاً. ولكنهم عادوا فترجعوا عن هذا القرار، وسمحوا للنساء بالبكاء؛ لأن ذلك يثير المشاعر، ويذكر الرجال بالعار الذي لحق بهم، وقد يحرضهم على الانتقام.

ومن جهة النبي الأعظم ﷺ ومن معه من المسلمين، استمروا بمحاصرة قريش بمعاهدات مع القبائل التي تتواجد في المنطقة، وموادعات لها، وأصبحوا يسيطرون على طريق تجارتها، ولم يعد هذا الطريق آمناً لها؛ لأنه قد أقفل عليها تماماً. فكان على قريش أن تبادر إلى عمل عسكري مباشر يفك الحصار عنها، ويعيد إليها هيبتها واحترامها، وإلى طريق الشام الأمن والاستقرار.

فبدأت قريش تتصل بالقوى المعادية للنبي؛ كاليهود في المدينة الذين أصبحوا يخافون على مركزهم السياسي والاقتصادي في المنطقة، وعلى هيمنتهم الثقافية أيضاً، فتحرك منهم كعب بن الأشرف واتصل بقريش وحرّضها كما تقدّم. وكان معهم أبو عامر،

عبد عمرو بن صيفي الأوسي الفاسق، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح⁽¹⁾، حيث جعل يحرض قريشاً على رسول الله ﷺ. ولما سمع رسول الله بخبره، قال: «لا تقولوا: 'الراهب'، ولكن قولوا: 'الفاسق'»⁽²⁾. وكانت من مصادر الميزانية الحربية أرباح العير التي نجت من المسلمين، وكانت هزيمة بدر بسببها، كذلك قاموا بمحاولة حشد للقبائل، واستطاعوا الحصول على مناصرين.

جيش المشركين إلى أحد

كان عمدة جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش الذين كانوا من المقاتلين أيضاً، فأصبحوا خمسة آلاف، كلهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر. وقد أخرجوا معهم النساء، منهن هند بنت عتبة، لئلا يفروا وليذكرنهم قتلى بدر، فيغنين ويضربن بالدفوف، حتى يحركن عندهم رغبة الانتقام ويقوينها، ويرغبنهم بمواصلة الحرب حتى يستطيعوا أن يقفوا بشجاعة في مقابل المسلمين. سارت قريش حتى نزلت بذي الحليفة مقابل المدينة في يوم الأربعاء، وكانت المعركة يوم السبت، وسرحوا إبلهم في زروع المدينة التي كان المسلمون قد أدخلوها من آلة الزرع قبل ذلك⁽³⁾.

استعدادات المسلمين للمعركة

1. أخبار قريش عند رسول الله ﷺ:

كان نفرٌ من خزاعة حلفاء عبد المطلب، فيهم عمرو بن سالم، قد سروا من مكة أربعاً، فوافوا قريشاً، وعسكروا بذي طوى، فلما وصلوا المدينة أخبروا رسول الله ﷺ

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج2، ص234.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص235.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص117، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص70، الواقدي، المغازي، ج1، ص203، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص176، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص191، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج1، ص202.

الخبر ثم انصرفوا، فلقوا قريشاً ببطن رابح على أربع مروا بهم راجعين إلى مكة. فقال أبو سفيان: «أحلف بالله، إنهم جاؤوا محمداً فأخبروه بمسيرنا وعددنا، وحذروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيمهم»⁽¹⁾.

وسمع بهم رسول الله أنهم نزلوا حيث نزلوا، وأرسل بعض العيون لمراقبتهم، وأرسل أيضاً الحباب بن المنذر سراً، وقال له: «إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين، إلا أن ترى في القوم قلة». فرجع إليه فأخبره خالياً، وأمره الرسول ﷺ بالكتمان⁽²⁾؛ كي لا يعرف المسلمون بعددهم وعدتهم خوفاً من هبوط معنوياتهم، ولكن الخبر فشا بعدتهم وعددهم، ووقعت الأراجيف في المدينة.

2. النبي ﷺ يستشير أصحابه:

بث النبي ﷺ الحرس حول المدينة وحول المسجد، وجمع أصحابه للتشاور في الأمر، وأخبرهم أن قريشاً قد تجمعت تريد المدينة، وكان رأيه أن لا يخرج من المدينة وأن يقاتل الرجال على أفوه السكك، ويرمي الضعفاء من فوق البيوت، واستشار أصحابه، وكان يحب أن يوافقوه على مثل ما رأى وعبر عن ذلك برؤيا رآها⁽³⁾.

فقد كان المشركون يمتلكون قوة اقتحام ضاربة، وهي المئات من الفرسان الذين يستطيعون تشتيت أي قوة للمشاة مهما كان عددها لو كانت المواجهة في البادية والصحراء، بخلاف ما لو كان القتال في أزقة المدينة، فسوف تخسر قريش قوتها، ويضطر الفرسان إلى الترجل وخوض القتال مشاة.

وأما ابن أبي والمنافقون فما كانوا ليجرؤوا أن يخونوا قومهم، ويعرضوا أبناءهم وإخوانهم للقتل، بل سيجد الجميع أنفسهم مضطرين للقتال. لذلك كله، كان النبي ﷺ يرجح البقاء داخل المدينة ويكره الخروج، وهذا ما وافق عليه عبد الله بن أبي، كذلك كان ذلك

(1) الصياصي، هي البيوت المترصة العالية الجدران، المنيعة التي تشبه الحصون.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص207.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص111، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص67.

رأى بعض أصحاب رسول الله⁽¹⁾. ولكنَّ الجوّ العامّ الذي سيطر على اجتماع المشاورة كان يشدُّ باتجاه آخر، وهو اتّجاه الخروج من المدينة، وكان يمثّله كثير من الصحابة ممّن لم يشهد بدرًا وطائفة من الشباب المتحمّسين الذين ذاقوا حلاوة النصر في بدر، واحتجّوا لذلك بأنّ إقامتهم في المدينة ستجعل عدوّهم يظنّ فيهم الجبن، فيجرؤ عليهم. فنزل خاتم النبيّين ﷺ على رأي غالبية الناس، وكانت روح الطاعة والانضباط والولاية لله ورسوله ما زالت في أوائل تكوينها في نفوسهم، فخشي رسول الله أن يوجّه إليهم أمرًا صارمًا بالبقاء في المدينة، فينعكس ذلك سلبيًا عليهم.

3. الخروج من المدينة المنورة:

بعد اتّخاذ قرار الخروج من المدينة، صلّى خاتم النبيّين ﷺ الجمعة بالناس، ثمّ وعظهم، وأمرهم بالجدّ والجهاد، وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا. وأمرهم بالتهيؤ لعدوّهم، ففرح الناس بذلك، وكرهه كثير من أصحابه ممّن رغب بالصمود فيها، وحضر الرجال وقد لبسوا السلاح لصلاة العصر فصلّى بهم رسول الله. ثمّ دخل بيته، واصطفّ له الناس ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه.

وفي خطوة مفاجئة، ندم الناس على استكراههم لرسول الله، فكلموه بذلك، فقال: «دعوتكم إلى هذا فأبيتهم، ولا ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين أعدائه⁽²⁾. انظروا ما أمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم». واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم، ثمّ أعطى اللواء لعليّ بن أبي طالب ﷺ⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي ج1، ص205، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص218.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص67، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص188، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج1، ص324، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص25 و26، الواقدي، المغازي، ج1، ص202 - 214.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص15، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج5، ص288، البلاذري، أنساب الأشراف، ج2، ص106، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص112، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص48، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص111، ص137، ص500، الخوارزمي، المناقب، ص21 - 22، ص258، محب الدين الطبري، وذخائر العقبى، ص75.

4. الثبات وعدم التردد:

لَمَّا صار رسول الله ﷺ على الطريق، قال له بعض المترددين: «نرجع؟». فقال خاتم النبيين ﷺ: «ما كان لِنبيِّ إذا قصد قومًا أن يرجع عنهم». وكانوا ألف رجل، فلمَّا كانوا في بعض الطريق انخزل عنهم عبد الله بن أبي بن سلول، شيخ المنافقين، بثلاث الناس، وقال: «والله، ما ندري على ما نقتل أنفسنا والقوم قومه!». فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب. وقد ترك ذلك أثرًا معنويًا سيئًا في نفوس المسلمين، حتَّى أن بعضهم همَّ بالانسحاب أيضًا كبني حارثة وبني سلمة، ولكنهم عادوا قبل فوات الأوان⁽¹⁾.

المواجهة بين المسلمين والمشركين

وقعت معركة أحد سنة ثلاث من الهجرة، يوم السبت، للنصف، أو لسبع خلون من شوال⁽²⁾، وإليك تفاصيل المعركة:

1. تقسيم القوَّات المقاتلة:

أ. جيش المشركين:

قسَّم أبو سفيان المشركين إلى ثلاث مجموعات: قريش في الوسط وهي ثلاثة آلاف رجل من المشاة، وعلى اليمينه مئتا فارس بقيادة خالد بن الوليد كمينًا. وقال لهم أبو سفيان: «إذا رأيتمونا اختلطنا بهم، فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتَّى تكونوا من ورائهم»، وعلى الميسرة، عكرمة بن أبي جهل⁽³⁾. وكانت خطة المشركين تعتمد على استدراج المسلمين لكي يتعدوا عن الجبل، ويتقدّموا إلى وسط ميدان المعركة، ثم تقوم الخيالة بالالتفاف بسرعة وراء المسلمين، لوضعهم بين مطرقة الفرسان وسندان المشاة.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص112، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص176، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص340، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص191، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص68.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص106، الواقدي، المغازي، ج1، ص199 و334، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص183.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص112، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص70.

ب. الجيش الإسلامي:

أما الخطة النبوية فكانت دفاعية إستراتيجية. فلما وصل إلى منطقة القتال، اختار أن ينزل إلى جانب أحد؛ بحيث يكون ظهرهم إلى الجبل⁽¹⁾، فيكون الجبل ملاذًا مفترضًا للانسحاب. كذلك كان الجبل مانعًا قويًا وصعبًا يحد من قدرة فرسان المشركين على تحقيق حركة تطويق للمسلمين. ثم انتقل خاتم النبيين ﷺ إلى الجنبه التكتيكية، وكان على يسار المسلمين جبل، فيه ثغرة، فأقام عليها خمسين رجلًا من الرماة المهرة في إصابة الهدف، عليهم عبد الله بن جبير، وأوصاه وأصحابه أن يردوا الخيل عنهم، لا يأتوهم من خلفهم، وقال لهم: «إن كانت لنا أو علينا، فاثبتوا مكانكم لا نؤتين من قبلكم، إن رأيتمونا تخطفنا الطير، قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة؛ فلا تبرحوا من مكانكم هذا، ولا تعينونا، ولا تدفعوا عنا، وإن قتلنا عن آخرنا، وارشقوا خيلهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل. والزموا مراكزكم حتى أرسل إليكم، فإنما نؤتى من موضعكم هذا، اللهم، إني أشهدك عليهم. وإن رأيتمونا هزمننا القوم وأوطأناهم حتى أدخلناهم مكة، فلا تبرحوا هذا المكان حتى أرسل إليكم. اتقوا الله، واصبروا»⁽²⁾.

2. القتال والاشتباك:**أ. الجولة الأولى: انتصار الإسلام وهزيمة الشرك**

كانت ألوية قريش في بني عبد الدار، وكانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، فبرز. عندها أرسل رسول الله إلى عليّ ﷺ، وأمره ﷺ بالتقدم. فتقدم عليّ وبرز إليه، وقتله. وهكذا كلما حمل اللواء مشرك، انقضَّ عليه عليّ ﷺ وقتله،

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص 111، ابن اسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص69، الواقدي، المغازي، ج1، ص219.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص80، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص192، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص112، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص176، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص341.

وبقي لواؤهم مطروحاً على الأرض، حتى أخذته إحدى نساتهم، وانهمز القوم، وكان عدد أصحاب اللواء الذين قتلوا أحد عشر رجلاً⁽¹⁾. ولما قتل علي بن أبي طالب عليه السلام أصحاب اللواء، انتكست راية المشركين، وصاروا كتائب متفرقة. ومن جهة أخرى، صمد الرماة أصحاب الثغرة، وردّوا محاولات الالتفاف من الخلف التي كان يحاول القيام بها خالد بن الوليد. واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأمعن المسلمون في صفوف المشركين، فجعلوا يضربون وجوههم حتى انتقضت صفوفهم، وأبعدوهم عن معسكرهم، ولم يبقَ في وسط ساحة المعركة إلا نساء قريش اللواتي كنّ يولولن منهزمت، وقد انصرف المسلمون عنهنّ، ولو شأؤوا أسرهنّ لفعلوا، وأنزل الله نصره على المسلمين، وأخذ المقاتلون المسلمون ينتهبون ما تركه المشركون، وأكبوا على الغنائم، وأنزل الله نصره على المسلمين⁽²⁾.

ب. الجولة الثانية: خسارة الانتصار

لمّا رأى الرماة المقاتلين المسلمين يغنمون، قرّر بعضهم النزول عن الجبل، فخطبهم أميرهم عبد الله جبير، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله، وأن لا يخالفوا أمر رسول الله، فتركوا أمره وعصوه، وأقبلوا على الغنائم حتى لم يبقَ منهم معه إلا نفير ما يبلغون العشرة⁽³⁾، فنظر ضرار بن الخطاب الفهريّ إلى الجبل الذي يتواجد عليه المقاتلون الرماة، فوجده خالياً منهم، فقال لخالد: «انظر وراءك!». فلما رأى خالد بن الوليد ذلك، أمر بالتحرك، وانضمّ إليه عكرمة من جهة ميمنة المسلمين، فانتهوا إلى الجبل، ولم يجدوا عليه القوة التي تستطيع صدّهم، فحملوا عليهم، وقتلوهم. ثم دخلت خيل المشركين

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص293، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص513، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص113، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص52، الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص121.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص52، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص84، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص153، الواقي، المغازي، ج1، ص229، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص239، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص513.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص112، الواقي، المغازي، ج1، ص231، ص283.

على قوم غارين آمنين ينتهبون، فأقحموا الخيل عليهم؛ وتطايروا في كل وجه، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وتفرق المسلمون في كل وجه، وخلصوا أسرى المشركين⁽¹⁾.
 رأَت قريش المنهزمة عودة رجالها إلى الحرب، ورفعت عمرة بنت علقمة الحارثية لواءهم، فتراجعت قريش إلى لوائها وعادوا إلى الحرب من جديد.
 وبعد تراجع المسلمين من ساحة المعركة، لم يثبت في أرض المعركة إلا رسول الله ﷺ، والإمام عليّ ﷺ وحده⁽²⁾ يدفع عن النبي ﷺ، ولكن خلس العدو إلى رسول الله ﷺ، وكثر المشركون على النبيّ.
 فقال جبريل: «يا محمد، إنّ هذه المواساة، لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى!». فقال ﷺ: «وما يمنعه، وهو مّتي وأنا منه؟!». فقال جبريل: «وأنا منكما»⁽³⁾.
 ثمّ سمع منادياً من السماء، فقال النبيّ ﷺ لعليّ ﷺ: «أما تسمع يا عليّ مديحك في السماء، إنّ ملكاً ينادي: 'لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا عليّ'». فبكى عليّ ﷺ سروراً، وحمد الله سبحانه على نعمته⁽⁴⁾.
 ورأى المسلمون ثبات رسول الله ﷺ والإمام عليّ ﷺ، فبدأ بعضهم بالرجوع

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص113، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص81، الواقدي، المغازي، ج1، ص231، ص302، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص82، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص177.
 (2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص48، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص69، الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، تعليق وملاحظات: السيد محمد باقر الخراسان، دار النعمان، النجف الأشرف، العراق، 1966م، لا.ط، ج1، ص199، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص111، الخوارزمي، المناقب، ص21.
 (3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص116، روضة الكافي، للكليني، ص320، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص70، الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص556، الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا ﷺ، ج1، ص85، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص24، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج3، ص286.
 (4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص251، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص194، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص124، ابن الأثير، أسد الغابة، ج4، ص21، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص167، الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، 1379هـ لا.ط، ص119، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص514، أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، ج15، ص192.

إلى أرض المعركة⁽¹⁾، زرافات ووحداً، إلى أن تكاثروا، وأصبحوا ثلاثين تقريباً، فأحاطوا بالنبي ﷺ، واستطاعوا الوصول به إلى فم الشعب⁽²⁾. فعاد النبي ﷺ ينظمهم، وأرجعهم إلى مراكزهم الأولى ومواقعهم التي كان قد عينها لهم قبل المعركة⁽³⁾، وعاد بقية من كانوا في السفح، ولكن الذين كانوا على الجبل فوق الصخرة، لم يعودوا، أو أكثرهم، إلى القتال، ولا تركوا مركزهم، إلا بعد انتهاء المعركة وتوقف القتال. وتحاجز الفريقان، وقنع المشركون بما وصلوا إليه من قتل من قتلوه في الحرب، وأملوا يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر بالنبي ﷺ⁽⁴⁾.

محاولة أبي سفيان في اكتساب النصر

أراد أبو سفيان أن يعتبر هذا النصر الظاهري، وإن كان ينطوي على الرعب القاتل، مؤيداً لدينه ولإلهه هبل. فقد تقدم من بين صفوف المشركين؛ بحيث يسمع المسلمون صوته، وصرخ بأعلى صوته: «أعلُّ هُبَل». فأمر النبي ﷺ بإجابته؛ فصرخ علي: «الله أعلى وأجل». فقال أبو سفيان: «يا علي، إنه قد أنعم علينا»، فقال علي ﷺ: «بل الله أنعم علينا».

فقال أبو سفيان: «إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر». فقال علي: «لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار». ثم قال أبو سفيان، وكأنه يريد أن يتأكد من أن خاتم النبيين ﷺ ما زال حياً: «يا علي، أسألك باللات والعزى هل قتل محمد؟»، فقال له علي ﷺ: «لعنك الله، ولعن الله اللات والعزى معك، والله ما قتل محمد، وهو يسمع كلامك»⁽⁵⁾.

(1) التستري، محمد تقي، قاموس الرجال، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، 1419هـ ط1، ج5، ص7، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص83، الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1992م، ط1، ص833 - 834.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص280.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص116، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص54.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج14، ص246.

(5) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص117، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص245.

الحفاظ على المدينة

وأراد رسول الله ﷺ استطلاع وضع المشركين، فقال ﷺ: «هل من رجل يأتينا بخبر القوم؟». فلم يجبه أحد، فقال عليّ ﷺ: «أنا آتيك بخبرهم». قال ﷺ: «اذهب! فإن كانوا ركبوا الخيل، وجنبوا الإبل؛ فهم يريدون المدينة. والله، لئن أرادوا المدينة لا يأذن الله فيهم، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأنجزنَّهم، وإن كانوا ركبوا الإبل وجنبوا الخيل؛ فإنهم يريدون مكة». فمضى عليّ ﷺ على ما به من الألم والجراحات، حتى كان قريباً من القوم فرآهم قد امتطوا الإبل، وجنبوا الخيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال النبي: «أرادوا مكة»⁽¹⁾.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص205، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص161، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص244، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج1، ص124، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص181، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص100، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج7، ص51.

المفاهيم الرئيسية

- إن معركة «أحد» من المعارك المهمة والمفصلية في تاريخ الإسلام، وقد حصلت بعد معركة بدر بسنة تقريباً في السابع عشر من شهر شوال من العالم الثالث للهجرة، وكان السبب الرئيس لهذه المعركة هو رغبة قريش في الانتقام والأخذ بثأر قتلها في معركة بدر.
- إن قريش استعدادت بكل قوتها لمواجهة الإسلام في هذه المعركة، فقد حشدت المناصرين؛ فاتصلت بالقوى المعادية للإسلام في المنطقة، وقد رصدت أموال ما ربحته من العير التي نجت من أيدي المسلمين قبيل معركة بدر، وقد بلغ عديد جيشهم خمسة آلاف مقاتل من العرب والأحباش.
- استعد رسول الله ﷺ للمعركة، وأعد المسلمين لذلك، وقام بإجراءات عدة، وهي:
 - أ. رصد كل تحركات قريش.
 - ب. استشارة الأصحاب بالبقاء داخل المدينة أو الخروج.
 - ج. خرج رسول الله ﷺ من المدينة، ووعظ الناس وحثهم على الجهاد، وملافاة العدو.
 - أثر المنافقون في الجيش الإسلامي بعد أن انسحبوا في الطريق وعادوا إلى المدينة.
 - قام رسول الله ﷺ بتقسيم الجيش الإسلامي إلى مجموعات ثلاث. وبخطة مفاجئة لقوى الشرك، قام رسول الله ﷺ بحماية ظهور المسلمين بوضع خمسين رامياً على جبل أحد.
 - بعد أن انهزم المشركون، وفرّوا هارين؛ لحق بهم المسلمون، فانغر بذلك الرماة على جبل أحد، فنزل أكثرهم لجلب الغنائم، فالتفت مجموعة من المشركين خلف المسلمين، وبدأت بقتل المسلمين، فاختلط الأمر على المسلمين، فنظر الهاربون من قريش إلى ذلك، فأعادوا الكرة عليهم، وبدأت الأمور تميل لصالح المشركين، فهرب المسلمون من أرض المعركة إلى الجبال، فلم يبق سوى رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام ونفر من بني هاشم، وثبتوا في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون ذلك عاد فريق منهم، حتى استقرت الأمور بين الطرفين، وتراجع رسول الله ﷺ إلى الجبل، وحمى ظهر الجيش الإسلامي.

الدرس الخامس عشر

معركة أحد (2) (النتائج والآثار، غزوة دومة الجنديل)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الآثار والنتائج المادية والمعنوية لمعركة أحد.
2. يستنتج خمس عبر من معركة أحد.
3. يتعرف إلى أهداف غزوة دومة الجنديل وأسبابها وآثارها.

تمهيد

لم تحقّق قريش أهدافها من معركة أُحد بشكل كامل، وإن كانت هذه المعركة قد أظهرت وجود بعض الثغرات في الصفّ الإسلاميّ، ممّا هيأ الفرصة لتسديد ضربة موجعة للمسلمين. ولكنّ قريشاً على الرغم من ذلك عجزت عن تحقيق نصرٍ حاسم، بل هي قد خسرت، بالإضافة إلى معنوياتها، كثيراً من رجالها، فإذا بمعركة أُحد تزيد من قوّة الإسلام والمسلمين، وتمعن في إضعاف شوكة الشرك والمشركين.

نتائج معركة أُحد وآثارها

1. الخسائر البشرية:

انتهت معركة أُحد بسبعين شهيداً من المسلمين، وهذا ما وعدهم به النبيّ حين فداء الأسرى بعد واقعة بدر⁽¹⁾، ومثّل نساء المشركين في جثث شهداء المسلمين. وأمّا خسائر المشركين فقد بقيت مجهولة، إلا أنّ المتيقن أنّ عليّاً والحمزة قد قتلا منهم مقتلة عظيمة بلغت على ما يقولون قرابة الخمسين رجلاً.

2. الآثار المعنوية والروحية:

يمكن التوقّف عند مجموعة من الدروس والعبر التي نستخلصها مما حدث مع جيش المسلمين في معركة أُحد، وكان لها آثار سلبية على المستويين المعنويّ والروحيّ.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص291.

أ. **عدم إطاعة أوامر القيادة:** إنَّ القوَّة التي كانت بقيادة عبد الله بن جبير لم تطع أوامر القيادة، وتركت مواقعها، ممَّا سبَّب هجوم العدوَّ بسرعة على المسلمين من الخلف. فإنَّ السبب الأوَّل لما لحق بالنبِيِّ ﷺ وللهزيمة التي لحقت بالمسلمين، وما جرى عليهم من النكبات، والقتل الذريع، حتَّى لقد قتل منهم سبعون، وجرح أعداد هائلة هو أنَّهم عصوا أمر الرسول الذي كان صريحًا معهم في أن لا يتركوا مراكزهم، حتَّى يرسل إليهم.

ب. **الاغترار بالنفس:** كان لاغترارهم بأنفسهم، وبكثرتهم، أثر كبير في حلول الهزيمة بهم. والاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة شعور الاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل، واللامسؤولية. فقد قالوا للنبِيِّ ﷺ: «قد كنت في بدر في ثلاثمئة رجل، فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنَّى هذا اليوم، وندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه»⁽¹⁾.

ج. **الطمع في الدنيا:** إنَّهم لمَّا شاهدوا من مكان استقرارهم أن المسلمين يجمعون الغنائم، وبسبب طمعهم بالحياة الدنيا، خافوا أن يفوتوا شيئًا منها، فتركوا مواقعهم، ممَّا هيأ لاختراق العدوِّ لثغورهم الخلفية ومباغتتهم. فكان لا بدَّ في هذه الحالة من إعادة التمحيص لهم، وابتلائهم، ليرجعوا إلى الله تعالى، وليميز الله المؤمن من المنافق، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا؛ لأنَّ الإنسان ربَّما يغفل عن حقيقة العنايات الإلهية، والإمدادات الغيبية، حين يرى الانتصارات تتوالى، فينسب ذلك إلى قدرته الشخصية. ولأجل ذلك، نجد أنَّهم حين غلبوا شكَّوا في هذا الأمر، وقالوا: «هل لنا من الأمر شيء؟» فجاءهم الجواب القاطع: «قل: إنَّ الأمر لله». نعم، لا بدَّ إذًا من إعادتهم إلى الله تعالى، وتعريفهم بحقيقة إمكاناتهم، وقدراتهم.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص211.

د. **عدم الانضباط:** الانضباط أساس النجاح، خصوصاً حينما يكون القائد نبياً حكيماً، ولربما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بكامله، كما كان الحال في قضية أحد.

هـ. **الجبن والخور:** وعدم الشجاعة في القتال؛ لأنَّ عناية الله تعالى ليست أمراً مطلقاً غير مشروط. فهي لا تعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعية، بل هي مشروطة قطعاً بالسعي نحو الهدف الأسمى، وبالبذل والتضحيات التي تؤهل المقاتلين لأن يكونوا موضعاً لعنايات الله وألطافه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾⁽¹⁾. ولذلك كان ينبغي لهم الثبات في مراكزهم، والالتفاف حول قائدهم، وعدم اللجوء إلى الفرار العشوائي الذي ربّما كان هو السبب في تكبيدهم هذه الخسائر الفادحة، وربّما كان ثباتهم في وسط المعركة أقلّ خسارة. فلا بدّ، لاستمرار العناية الإلهية، من حفظ الحد الأدنى من الصبر، وعدم الفرار والارتباط بالقيادة، وتنفيذ أوامرها.

و. **سوء الظن:** إنّ الذين تركوا مراكزهم قد ظنّوا أنّ رسول الله ﷺ سيغلّ، أي يخونهم، فلا يقسم لهم. وهذا يدلّ على أنّ من بين هؤلاء من لم يكن على درجة حسنة من المعرفة والوعي، ولربّما الإيمان أيضاً. ولو كان كذلك، فلا أقلّ من أن أخلاقيّاته وروحيّاته، بما في ذلك الإعراض عن الدنيا والإيثار، لم تكن بالمستوى المطلوب. ولعلّ الآية تشير إلى ظنهم السيئ هذا، وتقرعهم عليه بأنّه ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

(1) سورة محمد، الآية 7.

(2) سورة آل عمران، الآية 161.

ز. طمع المسلمين في معركة بدر: عندما قرّر الرسول ﷺ في معركة بدر أن لا يأخذوا أسرى، ثم خالفوه وأسروا من قريش، ثم شرع النبي ﷺ بقتل الأسرى، طمع المسلمون بالفدية وطلبوا منه أن لا يقتلهم، وأن يأخذ منهم الفدية. وقد قبل الله تعالى هذا الطلب من المسلمين، مع ما فيه من مخالفة لله وللرسول ﷺ، ولكنه رتب عليه آثاراً وضعيّة، فنزل جبرائيل على رسول الله، واشترط أنه إذا أخذتم الفدية من المشركين، فإنه سوف يقتل منكم في العام القادم بعدد الأسرى الذين افتديتموهم، وقبل المسلمون هذا الشرط، وبسبب هذا القبول فقد قُتل في أحد سبعون نفرًا وجرح مئة وخمسون⁽¹⁾.

3. الآثار العسكرية والأمنية:

لقد فرضت معركة أحد واقعاً جديداً على الظروف العسكرية التي أحاطت بالمدينة. فقد أظهرت النكسة الجزئية التي أصيب بها المسلمون في أحد ضعفاً فيهم أطمع أعداءهم من قبائل العرب وأغراهم بغزوهم والاعتداء عليهم، فأخذوا يعدّون العدة لذلك، ما وضع النبي ﷺ في حالة ضرورة اتخاذ إجراءات احترازية، والمبادرة إلى أعمال وقائية، تمنع المشركين من تسديد ضربة جديدة للمسلمين، وغزوهم في عقر دارهم، ممّا سوف يؤدّي أيضاً إلى المزيد من إضعاف أمرهم، وإطماع أعدائهم فيهم. فاتخذ النبي ﷺ قرارات خطيرة بالمبادرة إلى مبادأة أعداء الإسلام هؤلاء في عقر دارهم، فإن ذلك أبعد للسمع، وأنكى للعدو، وأقوى لقلوب المسلمين.

وحتى إن استطاع النبي ﷺ دفع بعض المخاطر بهجمات احترازية؛ كالهجوم الاستباقي على بني أسد، واغتيال زعيم بني لحيان، واستئصال يهود بني النضير، لكنه لم يستطع تلافي الخسائر التي نجمت عن غدر الأعراب به وبالمسلمين في الرجيع، وبئر معونة، مستغلين الدوافع السامية عنده وعند أصحابه في الدعوة إلى الله على الرغم من المخاطر والمخاوف.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج1، ص270.

غزوة دومة الجندل

1. تعريف بالغزوة:

دومة الجندل، حصن، أو مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وتبعد عن المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة، وهي بقرب تبوك⁽¹⁾، وصاحبها يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم⁽²⁾.

2. أسباب الغزوة:

إن دومة الجندل طرفٌ من بلاد الشام، وهي بؤابة يتمّ منها العبور إلى بلاد الشام. فأراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام، كمناورة استباقية تزرع الفزع في قلب قيصر الروم⁽³⁾، وليثبت لأطراف الجزيرة المتاخمة لحدود الشام، وجود حضارة إسلامية جديدة تمثلها الدولة النبوية في المدينة، وليدخل في عملية تواصل مع القبائل العربية المنتشرة في بادية الشام، والتي كانت على علاقة قوية بالروم، بل شكّلوا فيالق عسكرية في الجيش البيزنطي، وكان دورهم تشكيل حزام أمني يدفع غارات الأعراب عن المدن السورية.

وكان السبب المباشر للحركة العسكرية العميقة للجيش الإسلامي في عمق بلاد الشام، معلومات متواترة نقلها التجار، تفيد بأنّ جمعاً من قبيلتي قضاة وغسان اللتين تشكّلان قوّة ضاربة في الجيش الروماني، احتشدوا بكثرة في دومة الجندل، بقيادة أكيدر الكندي، عامل هرقل عليها، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة. وكان في دومة الجندل سوق عظيم، وحركة تجارية نشطة، فكان الغساسنة والقضاعيون يظلمون من يمرّ بهم، ويعترضون المسافرين إلى المدينة وتجارهم، فشكا التجار والسابلة أكيدراً للنبي ﷺ⁽⁴⁾.

(1) الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص277، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص112، ابن سعد، الطبقات الكبرى،

ج2، ص62، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص214.

(2) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص215.

(3) الواقدي، المغازي، ج1، ص403، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص177، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص92.

(4) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص215.

وهكذا، تجمّعت دوافع القيام بحركة إستراتيجية باتجاه بادية الشام، هدفها المباشر الحفاظ على حرية طرق المواصلات والإمدادات والتموين، والذي يأتي عن طريق التجارة مع المناطق الشماليّة كسورية وما والاها، بعد أن أصبح هذا الطريق غير آمن.

الخروج إلى دومة الجندل

تحرك خاتم النبيين في السنة الخامسة في شهر ربيع الأول منها⁽¹⁾، مع ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار؛ ليتمكن من مفاجأة العدو، وأخذه على حين غرة، من دون أن يتكبد المسلمون خسائر قد تقع لو أنّ المشركين كانوا يعلمون بمسير المسلمين إليهم ومستعدّين للحرب. وقد غاب عن المدينة مع ألف من أصحابه في هذه الرحلة، قرابة شهر كامل، إلى مكان بعيد، مسافة تزيد عن خمسة عشر يوماً، مع أنّ الأعراب كانوا حول المدينة لا يزالون على الشرك، وهم يترقبون المسلمين، ويستغلّون الفرصة المناسبة للوقعة بهم، ومع أنّ فيها من المنافقين ما لا يقلّ عدداً عن المسلمين، وكانوا على اتصال دائم بقريش وأحلافها من المشركين. ومع ذلك، فقد كان النبي مطمئناً إلى عدم وجود أخطار حقيقية على المدينة. فقد كانت أجهزة استخباراته قويّة وفاعلة، لا يفوتها رصد أية تحركات أو تجمّعات مريبة، بل وحتى تستطيع رصد المؤامرات والنوايا أحياناً. وكانت عيونه مبثوثة في مختلف الأنحاء والأرجاء. كما أنّ مهاجمة المدينة في غياب الرسول ﷺ تحتاج إلى جمع قوى كثيرة من مختلف القبائل، ولن يخفى ذلك على عيون خاتم النبيين ﷺ، مع أنّه كان قد احتاط وعقد تحالفات ومعاهدات كثيرة في المنطقة. وإذا كانت قريش قد عجزت وفشلت، فكيف بقبائل لا تملك ما كان لقريش من قوّة وشوكة؟

(1) ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص177، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص92، الفيرواني، الجامع، ص281، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص232، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص341، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص112، الواقدي، المغازي، ج1، ص402، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص62.

رسول الله ﷺ في دومة الجندل

نكب دليل النبي ﷺ عن طريقهم، فلمّا كان بينه وبين دومة الجندل يوم، قال الدليل: «يا رسول الله، إنّ سوائهم ترعى عندك؛ فأقم حتّى أنظر». وسار حتّى وجد آثار النعم، فرجع وقد عرف مواضعهم. ثمّ قام المسلمون بالاستيلاء على ماشيتهم، وأصابوا من أصابوا من أعوان أكيدر، وهرب من هرب في كل وجه.

جاء الخبر إلى دومة الجندل، وأحسّ بذلك أكيدر الكنديّ فهرب، واحتمل الرجل، وخلّى السوق، وتفرّق أهلها. ووصل رسول الله ﷺ ونزل بساحتهم، فلم يلقَ أحدًا، ولم يجد إلاّ النعم والشاء، وقد هرب من هرب، وقام المسلمون بالاستيلاء على ماشيتهم وأموالهم، ليس حبًّا بالسلب والنهب، بل محاولة من النبي ﷺ والمسلمين لإحداث ضغط معنويّ كبير على القضاعيين والغساسنة يجرّ في النتيجة إلى عدم سفك الدماء، والاكتفاء بالضغط الماديّ عبر الاستيلاء على مواشيهم، الذي هو أبلغ عند الأعراب، ووسيلة ناجحة في إضعافهم، وردعهم عن الاشتراك في المكائد ضدّ الإسلام.

لقد كان الهجوم الإسلاميّ على دومة الجندل مخطّطًا له؛ بحيث يترك آثاره في المنطقة كلّها. فلم يكن النبي ﷺ مستعجلًا ولا قلقًا، ولذلك فقد أقام في دومة الجندل أيامًا، وبثّ السرايا والبعوث أيامًا عدّة في الاتجاهات المختلفة، وفرّقها بحثًا عن قاطعي الطريق الهاربين، ثمّ رجعت ولم تصادف منهم أحدًا⁽¹⁾.

لقد تركت غزوة دومة الجندل آثارًا مهمّة على صعيد تطور الأحداث لمصلحة انتصار الإسلام. فإنّ سرعة تحرّك الجيش الإسلاميّ إلى مسافة بعيدة، وإظهاره ثقة عالية بنفسه، واطمئنانه إلى عدم جراءة أحد على مهاجمة المدينة في غيابه، أثبت أنّ هذا الجيش قادرٌ على ضرب أعدائه، وأنّ عليهم أن يحسبوا ألف حساب قبل أن يقوموا بأيّ عدوان.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص62، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص341، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص232، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص215، الواقدي، المغازي، ج1، ص403، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص92، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص177، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج10، ص104.

المفاهيم الرئيسية

- انتهت معركة أحد بسقوط سبعين شهيداً من المسلمين، ومثل نساء المشركين بجثث شهداء المسلمين.
- إن لمعركة أحد آثاراً ونتائج معنوية عدّة، وهي: عدم إطاعة أوامر النبي ﷺ بالبقاء على جبل أحد بقيادة عبد الله بن جبير، الاغترار بالنفس، الطمع في الدنيا، وذلك عبر جمع غنائم الحرب، عدم الانضباط، الجبن والخور، سوء الظن.
- لقد كان لمعركة أحد آثار عسكرية وأمنية؛ فقد فرضت هذه المعركة واقعاً جديداً على الظروف العسكرية التي أحاطت بالمدينة المنورة، وأدى ذلك إلى اغترار عدد من القبائل بذلك، والتجهز لقتال المسلمين.
- دومة الجندل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وصاحبها يدين بالنصرانية، وهي تابعة لهرقل ملك الروم.
- نظراً إلى حساسية موقع دومة الجندل، حيث تعتبر بوابة العبور إلى بلاد الشام، أراد رسول الله ﷺ أن يدنو بقواته من بلاد الشام، وذلك كمناوره استباقية تزرع الفزع في قلب قيصر الروم، وهذا هو السبب البعيد للمعركة.
- لقد كان لغزوة دومة الجندل هدف مباشر؛ وهو أن معلومات وصلت إلى النبي ﷺ بأن أعداداً كبيرة من قبيلتي قضاة وغسان، احتشدت في دومة الجندل بقيادة أكيدر الكندي للهجوم على المدينة المنورة.
- تحرك رسول الله ﷺ مع ألف من أصحابه متوجهاً إلى دومة الجندل، فلما وصل إليها، وجد بعض ماشيتهم فأخذها، ووقع اشتباك بسيط بينه وبين أعوان أكيدر، وهرب آخرون، فوصلت الأخبار لأكيدر فهرب مع جيشه إلى ديارهم.
- كان هدف النبي ﷺ من أخذ هذه الأموال هو إحداث ضغط نفسي ومعنوي على القبيلتين لجرهما إلى الاستسلام، وعدم سفك الدماء، والاكتفاء بالضغط المادي.

الدرس السادس عشر

معركة الخندق (الأحزاب)(1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف قوى الشرك والأحزاب من معركة الأحزاب.
2. يشرح الخطوات الدفاعية والوقائية التي قام بها النبي ﷺ للدفاع عن المدينة.
3. يفهم أسباب عدم تحقيق الأحزاب أهدافهم في معركة الخندق.

تمهيد

إنَّ الخطوات السياسيَّة والاجتماعيَّة التي اتخذها النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنورة، والتي كانت تهدف إلى بناء مجتمع مترابط داخلها، أثرت بشكل كامل على الوجود اليهوديَّ في المدينة. فبعد الخيانة التي قام بها بنو القينقاع وبنو النضير، وقيام رسول الله ﷺ بمحاسبتهم على هذه الخيانة، تمَّ إجلاؤهم عن المدينة المنورة. وقد أثر ذلك بشكل واضح على مستقبل اليهود في شبه الجزيرة العربيَّة، ومع هذا حاول اليهود توجيه الأذى للمسلمين، -وإن كانت بطريقة غير مباشرة-. لذا اتَّصلوا بقريش والقبائل العربيَّة الأخرى؛ مُحاولين تشجيعهم على قتال الإسلام. وقد نجحوا في ذلك، فقام الآلاف من المقاتلين المشركين لقتال الإسلام، وكانت معركة الخندق التي منعت اليهود والمشركين معاً من تحقيق الأهداف المرجوة.

تعريف بالمعركة

حصلت معركة الخندق في المدينة المنورة، حيث حفر المسلمون الخندق حول المدينة. والمشهور أنَّ هذه المعركة كانت في ذي القعدة من أواخر السنة الرابعة⁽¹⁾،

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص20، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص191، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص29، الهيتمي، مجمع الزوائد، ج9، ص345، يوسف المزي، تهذيب الكمال، تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1985م، ط4، ج10، ص31، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج4، ص76، عبدالله بن أسعد، مرآة الجنان، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، 1997م، ط1، ج1، ص9.

وامتدَّت إلى أوائل السنة الخامسة للهجرة، وكان اليهود هم الذين خطَّطوا لها، واتَّصلوا بقريش وبغطفان، وسائر القبائل، وحرَّضوهم وساعدوهم على التفاهم والاتِّفاق، ثمَّ المبادرة إلى غزو خاتم النبيين ﷺ، والمسلمين في المدينة⁽¹⁾.

وبعد وصول الأحزاب إلى المدينة، صدموا بوجود الخندق حولها، فضربوا حصاراً عليها، وأدَّى الحصار إلى تعرُّض المسلمين للأذى والمشقة والجوع، وانتهى الحصار بانسحاب الأحزاب. وقد استشهد من المسلمين تسعة أشخاص، وقتل من الأحزاب أربعة بسبب بعض المحاولات للهجوم والمناوشات الجزئية والمحدودة.

تحالف قوى الشرك ضد المسلمين

ابتدَّت في خيبر فصول أضخم حشد وأقوى هجوم سوف يقوم به تحالف الشرك واليهوديَّة ضدَّ الإسلام. وبما أنَّ رأس حربة الشرك ضدَّ الإسلام كان قريش الحاقدة، فقد كانت هي المحطَّة الأولى لليهود. حيث مضى ساداتهم ووجوههم إلى مكة يدعون قريشاً إلى حرب النبي، وكان أوَّل من قابلهم أبو سفيان، فطرحوا عليه مشروعهم. ظنَّ أبو سفيان أنَّها فرصته التاريخية، فحرَّضهم على المضيِّ في مشروعهم، ودعاهم إلى توسيع دائرة اتِّصالاتهم، وبذل الجهد في إقناع قريش بحرب النبي، ولو بإعطائها العهود والمواثيق⁽²⁾.

تجاوز اليهود كلَّ حدٍّ، وأسقطوا كلَّ المثل والقيم، واستجابوا للمشركين، وسجدوا للأوثان. وبعد الانتهاء من قريش، توجَّه اليهود إلى قبائل العرب، ثمَّ سار اليهود إلى غطفان، فدعوهم إلى حرب رسول الله، وفي سخاء غير معهود، جعلوا لغطفان تمر خيبر سنة، أو نصفه كلَّ سنة.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص440، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص224، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص47، ج4، ص60، عبد الرزاق الصنعاني، المصنَّف، ج5، ص367، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص50، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص233، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمِّي، ج2، ص176، البغدادي، المجبر، ص113، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص219، السمهودي، وفاء الوفاء، ج1، ص300، القيراواني، الجامع، ص279، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص115، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص343، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص208، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص302 ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص180، الحموي، فتوح البلدان، ج1، ص23.

(2) إذ كان موضع بني قريظة بئر المطلب على ميلين من المدينة، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمِّي، ج3، ص176.

لقد كانت دعاية اليهود ووعودهم إلى درجة أنها استطاعت أن تعبئ كل قبائل العرب ضد دولة الإسلام، فكانوا عشرة آلاف رجل⁽¹⁾، وهكذا نجحوا في التخطيط للحرب، ثم نفذوا مخططاتهم، ونجحوا في تنفيذها.

التخطيط النبوي لمواجهة الأحزاب

قام المسلمون بإجراءات دفاعية ووقائية عدّة لحماية المدينة من غزو قوى الشرك المفترض، وهي:

1. استطلاع أخبار الأحزاب:

أخبر جبرائيل النبي ﷺ بما عزم عليه اليهود والعرب⁽²⁾، وكانت أيضاً عيون النبي المنتشرة حول يثرب، وعلى طول المنطقة الممتدة منها إلى مكة، وخصوصاً عيون حلفاء عبد المطلب من بني خزاعة، تنقل إليه الأخبار. فجمع النبي المهاجرين والأنصار وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالجدّ والجهاد، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتقوا، وأمرهم بطاعة الله ورسوله.

2. مشورة الأصحاب:

استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقد كان يريد أسلوباً دفاعياً محدداً يجهض الحركة العسكرية للأحزاب، فقال ﷺ: «أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها ونخندقها علينا، أم نكون قرييين ونجعل ظهورنا إلى الجبل؟». وأخذ أصحاب رسول الله ﷺ يطرحون الاقتراحات، ولكنّ سلمان المحمّديّ تدخل مبيّناً أهميّة فكرة حفر الخندق، والحكمة منها، فقال: «يا رسول الله، إنّنا إذ كنّا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا!، فهل لك، يا رسول الله، أن نخندق؟»⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص444، وقيل ثمانية عشر ألفاً، راجع: مناقب آل أبي طالب، ج1، ص197، وقيل: أربعة وعشرين ألف رجل، راجع: المسعودي، التنبيه والإشراف، ص216.

(2) الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص268، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص244.

(3) الواقدي، المغازي، ج2، ص444، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص311، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص514، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص197، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص51، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص202.

فلاقت الفكرة إعجاباً لدى المسلمين، فإن حضارة الفرس، وتراثهم الحربي، وشهرتهم في مقارعة الروم كانت ماثلة في أذهان العرب، فأحبّ المسلمون الثبات في المدينة، وأعلنوا موافقتهم على المقترح، وتحملوا بذلك مسؤوليّة الخيار والاختيار، وهذا بالذات هو ما أراه خاتم النبيين ﷺ من استشارتهم⁽¹⁾.

3. حفر الخندق:

انطلقت عملية تنفيذ مشروع دفاعي كبير، فركب رسول الله فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، وارتاد موضعاً كان ينزله. كانت فكرة الرسول ﷺ أن يجعل جبل سلع⁽²⁾ خلف ظهره، فيأمن عدم إمكانية تطويقه والالتفاف عليه، ثمّ يخندق ما بين جبل بني عبيد من المذاذ⁽³⁾، إلى ذباب، إلى راتج⁽⁴⁾، فيكون الخندق أمامه، ومعسكره في حوض الجبل، تحت جبل سلع، في الجانب المكشوف للخندق الذي امتدّ على طول الجهة الغربيّة الشمالية للمدينة، والتي كانت تتخللها فتحات واسعة صحراوية مكشوفة للبيداء، يمكن أن تستوعب ألوف الفرسان، وتصلح ساحة للحرب وللحركة السريعة للجيوش. وأمّا الجهتان الشرقيّة والجنوبيّة فقد تمتعتا بموانع طبيعيّة من جهة وجود جبال وصخور بركانيّة وتضاريس، وأشجار نخيل كثيفة ومتشابكة، تحدّ من حركة الجيوش الفاعلة، وبموانع اصطناعيّة أخرى، كبيوت المدينة التي كانت متشابكة ومتراصة من تلك الجهات. فقد كان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان، والنخيل من كلّ ناحية، وهي كالحصن لا يتمكن العدو منها⁽⁵⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص226، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص55، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج1، ص292.

(2) جبل سلع، ويسمى أيضاً جبل ثواب في الشمال الغربيّ للمسجد النبويّ الشريف، هو جبل معروف بسوق المدينة، السهمودي، وفاء الوفاء، ج2، ص324.

(3) المذاذ: اسم اطم لبني حرام من بني سلمة غربيّ مسجد الفتح، راجع: السهمودي، وفاء الوفاء، ج2، ص370.

(4) راتج: هو جبل غربيّ بطحان، السهمودي، وفاء الوفاء، ج2، ص310، الواقدي، المغازي، ج1، ص450.

(5) الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص315، الواقدي، المغازي، ج2، ص446، السهمودي، وفاء الوفاء، ج4، ص1205، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص524.



وعلى الرغم من الفقر المدقع، وبدائية الوسائل وأدوات الحفر، فقد استطاعوا القيام بعمل ضخم في أيام عدة. ويبدو أنّ خاتم النبيين ﷺ طلب من بني قريظة أن ينفذوا بنود الوثيقة والمعاهدة التي عقدها معهم بالنسبة إلى تقديم المعونة إلى المسلمين. فاستعار منهم آلات كثيرة، من المساحي والفؤوس والمكاتل للحفر، ثمّ وزّع المسافة المطلوب حفرها على المهاجرين والأنصار، وجعل على كلّ عشرين خطوة وثلاثين خطوة أو أربعين ذراعاً عشرة من المهاجرين والأنصار⁽¹⁾.

وكان النبيّ شخصياً الذي افتتح الحفر⁽²⁾؛ فحفر في موضع المهاجرين. وأخذ عليّ بن أبي طالب ينقل التراب الذي يخرج بالحفر، وجعل رسول الله يعمل معهم في الخندق لينشط المسلمين، فكانوا يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص177، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص235، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص427، ص341، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص179، قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1، ص152، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص305.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص177.

وكان المسلمون ينقلون التراب بالمكاتل، ويرجعونها مملوءة بالحجارة؛ فقد كانت من أسلحتهم الناجحة في تعطيل حركة المشركين، وردعهم عن عبور الخندق. وكان علي بن أبي طالب وشيعته، ومنهم عمّار بن ياسر، وسلمان المحمّديّ، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاريّ، أكثر الناس عناءً وعملاً في الخندق⁽¹⁾.

وفي اليوم الثاني من بدء حفر الخندق، ظهرت في باطن الخندق صخرة كسرت حديد المعول، فطلبوا من سلمان أن يخبر النبي ﷺ بأمرها، فهبط النبي ﷺ وبطنه معصوب بحجر بسبب الجوع، ومعه علي بن أبي طالب عليه السلام، فتناول رسول الله ﷺ المعول، وضرب به ضربة برق منه برق أضاء منه بين لابتي⁽²⁾ المدينة، فكبر النبي ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها ثانية، فكبر وكبروا كذلك، ثم الثالثة فكذلك أيضاً، فصدعها وتفتتت.

وكان إذا ما فرغت مجموعة من حصّتها في الحفر، انتقلت إلى حصة مجموعة أخرى لم تفرغ بعد، فأعانتها عليها، حتى تمّ حفر الخندق بأسرع وقت. وقد بلغ طول الخندق نحواً من خمسة آلاف ذراع (ألفين وخمسمئة متر تقريباً)، وكان عرضه تسعة أذرع (أربعة أمتار ونصف تقريباً)، وعمقه سبعة أذرع (ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريباً)، وأصبحت المدينة بسبب حفر الخندق كالحصن⁽³⁾.

ولعل مدة حفره لم تتجاوز أربعة وعشرين يوماً. وفرغوا منه قبل وصول الأحزاب بثلاثة أيام، ثم إن النبي جعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً. فقد وزع الحراس

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص445، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص226، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص95، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص234، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص55، السمهودي، وفاء الوفاء، ج4، ص1407، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص301، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص50، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج1، ص292.

(2) اللابة: الحرّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود قد غطتها بكثرتها والمدينة بين حرتين.

(3) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1 ص190، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص119، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص727، وح8، ص534، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص230، قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1، ص66.

على أبواب الخندق الثمانية⁽¹⁾، وذلك حتى يقطع الطريق على أي عملية اختراق أميني لصالح المشركين.

وكان الانضباط العام بأوامر النبي ﷺ مسيطراً على الموقف، ولكن برزت عناصر عديدة أدت إلى زلزلة هذا الموقف المتّحد، حيث تخلّفت طائفة من المنافقين كانوا يعتذرون بالضعف، وكانوا يستأذنون لحاجات وهمية، كالذين كانوا يتسلّلون زاعمين أنّ بيوتهم عورة.

4. التعبئة العسكرية لمواجهة المشركين:

بلغت رسول الله ﷺ الأخبار عن قرب وصول جيش الأحزاب، فندب المسلمين ودعاهم إلى القتال، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أعطى رايته لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه⁽²⁾. وجمع النساء والصبيان، وجعلهم في حصون وآطام، وهي البيوت المتراصة الخلفية للمدينة. وجعل حراساً يطوفون في المدينة حذراً من تسلل المشركين أو غدر بني قريظة. وخرج لثمان خلون من ذي القعدة، أو شوال، في سبعمئة من المسلمين.

وما إن وصل إلى ناحية الخندق، ارتاد لعسكر المسلمين موضعاً من سفح جبل سلع مكشوفاً للخندق، يؤمّن الحماية للمسلمين في حال اختراق العدو. وجعل مركز قيادته في موضع عال يمكنه من مراقبة الحركة العامة لساحة المعركة⁽³⁾.

(1) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص57، السمهودي، وفاء الوفاء، ج1، ص1208، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص179، الواقي، المغازي، ج2، ص452، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص312، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص50، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص515.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص191، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج6، ص289.

(3) البلخي، أحمد بن سهل، البداء والتاريخ، ترجمة: كلمان هوار، برطرنند - شهر باريس، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، العراق، 1899م، ج4، ص217، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص29، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص231، ابن قيم الجوزية، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص117، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص343، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص237، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص180، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص307، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص102، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص342، السيد ابن طاووس، علي بن موسى، سعد السعود، منشورات الرضا، قم، إيران، 1363هـ ش، لا، ص138. الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص340، ج5، ص46.

جيش الأحزاب والمفاجأة الكبرى

وصل الأحزاب إلى المدينة بعد أن فرغ المسلمون من حفر الخندق⁽¹⁾، في موسم صيف في زمان حصاد، وكان الناس قد حصدوا قبل قدومهم بشهر، وأدخلوا حصادهم أتبانهم، فقدم الأحزاب وليس في الوادي زرع، بل كانت المدينة حين قدموا جديية، وهذا ما أثر كثيراً بالخييل والإبل، ووقف المشركون أمام التخطيط العسكري للنبي ﷺ بحفر الخندق والتوزيع العسكري عليه، وقد فوجئوا مدهوشين من هذا الإجراء الدفاعي، فأنكروه، وقالوا: «ما كانت العرب تعرف هذا».

فجعلوا يصلون ويجولون على جانبه المحاذي لهم بعساكرهم وخیلهم، ورجلهم، ويدعون المسلمين للقتال وللمبارزة. فأمر النبي ﷺ المسلمين بالثبات في أماكنهم، ولزوم الخندق وعدم الانجرار وراء الاستفزاز، وعدم التحرك من دون أوامر منه، فكانوا لا يجيئون أحداً من المشركين، ولا يردون عليهم شيئاً، ولزموا مواضعهم كما أمرهم النبي. وكان لذلك أثر معنوي، فتهيب المشركون العبور إليهم⁽²⁾.

تحليل الموقف العام للمعركة

1. طبيعة تركيبة جيش المشركين:

حقَّق تحالف الشرك واليهودية أوسع إجماع يمكن الحصول عليه من القبائل المختلفة، يسودهم جميعاً حقد أسود على الإسلام والمسلمين. فسيطرت على معسكر الشرك والكفر في أول أيام نزولهم عند الخندق حالة من الزهو والغرور، بسبب ما استشعروه من القوة والتفوق في العدة والعدد، والاطمئنان بإحراز النصر. ولذلك فقد احتفلوا فور وصولهم، وعقدت في خيامهم حلقات العزف، والغناء، وشرب الخمر. وأرسل أبو سفيان

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص262، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص197.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص50، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص315، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص530، الواقدي، المغازي، ج2، ص470، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص182، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص52، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص202، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص100، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج1، ص292.

كتباً إلى النبي ﷺ مهدداً إياه بما جمعه من الأحزاب لقتاله (1).
 إلا أن عناصر الخلل كانت قوية داخل صفوفهم، ولكنها لم تظهر في الفترة الأولى للحرب، إذ كانت تحتاج إلى ظروف موضوعية، وإلى تطوّر في سير الحرب. وقد كانت كثرة أعداد الأحزاب مشكلة في حدّ ذاتها، ولكن هذه المشكلة لم تظهر لهم في الطريق، بل ابتدأت بالظهور فور اصطدامهم بالإجراء الدفاعي الذي أعده المسلمون، فانقلبت الكثرة من عنصر إيجابي في المعركة إلى عنصر سلبي، وأخذت هذه الأعداد الهائلة التي تراوحت بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألفاً، والآلاف من الدواب التي تحتاج إلى كمية هائلة كل يوم من التموين والعلف، تضغط كل يوم باتجاه التراجع والانسحاب بعد أن أجهض الخندق فكرة الحسم العسكري.

كذلك كانت القبليّة والتمزق الذاتي مفسداً ذاتياً يظهر في كل مناسبة، وبمجرد توقف حركة الجيش عن التقدم، وانشغاله عن الحرب الحاسمة بالانتظار، أخذ الشقاق والخلاف ينبث بعشوائية في صفوف لم تكن أصلاً متّحدةً إلا خلال أيام منوا أنفسهم فيها بنصر حاسم، يحصلون بعده على الغنائم والأسلاب والأموال والتمور والثروة. ثمّ إذا بالخندق يوقظ هؤلاء جميعاً من أحلامهم؛ فيعودون إلى واقعهم الذي سرعان ما أثمر يأساً، ثمّ قراراً بالانسحاب والعودة إلى أهلهم ومضاربهم وديارهم.

2. خيارات جيش الأحزاب:

بعد أن شاع بين صفوف المشركين خبر الإجراء الدفاعي الذي نفّذه المسلمون بحفر الخندق، تلاشت فكرة خوض معركة حاسمة سريعة ضدّ المسلمين. إلا أن رؤساء الكفر والشرك ابتدؤوا في جوّ من الشعور بالتفوق يحاولون إعادة الإمساك بزمام المبادرة، فقد اعتقدوا أن الحصار الذي أحكموه على المدينة قد جمّد أوصال المسلمين، وقطع مددهم، بينما كان المدد والشوكة إلى جانبهم.

(1) الشوكة: السلاح، وراجع: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص198، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص272.

فأخذت خطتهم العسكرية بالضغط على المسلمين تتضح ملامحها عبر ثلاثة محاور: المحور الأول: محاولة الاستفادة من الحالة اليهودية في داخل المدينة. وكان العائق أمامهم هو العهد الذي وقَّعه اليهود مع النبي، والذي كان يقضي بعدم مدِّ يد العون إلى أعداء المسلمين، فكانت خطة رؤوس الشرك والكفر تقوم على حمل يهود بني قريظة على نقض هذا العهد.

المحور الثاني: محاولة فتح ثغرة في الخندق يعبر منها المقاتلون، ويندفعون منها إلى قلب المدينة مستفيدين من تفوقهم العسكري، ومسقطين اللخط الدفاعي الأساسي الذي اعتمده المسلمون.

المحور الثالث: الاعتماد على طول الحصار، وتضييق الخناق على المدينة، والمراهنة على عناصر الشقاق والجوع والخوف في إحداث زلزال في صفوف المدافعين قد يؤدي إلى انهيارهم. فانتشرت مظاهر الفرح والسرور في أوساط المشركين، وكانت مجالس الخمر والغناء إحياءً منهم لأنفسهم بأن طول النفس والمكوث الطويل سلاح ماضٍ في هذه المعركة.

النبي ينتزع زمام المبادرة

برزت نتائج الأسلوب الدفاعي الذي اتبعه النبي بحفر الخندق، فقد نجح في تغيير وجهة المعركة؛ إذ اعتمد المشركون واليهود والأحزاب على القدرة على حسم المعركة عبر المبادرة إلى الهجوم بقوات كبيرة متفوقة عدّة وعدداً. ولكن حفر الخندق جمّد هذه القوات، وقيد قدرتها على الحركة واختيار ساحة المعركة ووقتها. وأصبح عليها مواجهة هذه العقبة الاصطناعية مع ما يفرضه ذلك من الدخول في قتال جزئي متفرّق هنا وهناك، ولن تستطيع الأحزاب الاستفادة من كامل قوتهم فيها إذ سوف تجبرهم على عدم استعمال الآلاف في هجوم واحد ضاغط، والاكتفاء بعناصر محدودة في أمكنة محدّدة قد يحددها النبي، ويمنع عليهم استعمال أمكنة أخرى، حتى يستطيع تكبيدهم خسائر في المواضع التي يختارها.

وليس معنى هذا إلا أن النبيّ قد انتزع زمام المبادرة من الأحزاب في الحركة على الأرض، بعد أن حرّمها من حرّية الحركة التي يوفّرها لها عنصر التفوّق في العدة والعدد، وأصبح النبيّ هو الذي يفرض عليهم المعركة، وإذا ما اخترقوا الخندق، واستطاعوا تحقيق ثغرة؛ فسوف يكون قادراً على التحكّم فيها بكلّ قوّته، وخوض معركة جزئية في موقع الثغرة فقط، فيستفيد من قوّته إلى أقصى حدود الاستفادة، بينما ستكتفي في بقية قوّاتهم المشلولة عن الحركة بالانتظار.

المفاهيم الرئيسية

- وقعت معركة الخندق (الأحزاب) في السنة الرابعة للهجرة في ذي القعدة، وامتدت إلى أوائل السنة الخامسة للهجرة، وكان المحرك الرئيس لها هم اليهود.
- لقد تحالفت قوى الشرك في المنطقة ضد المسلمين، فبعد أن تحرك يهود خيبر نحو قريش، جرى حشد القبائل العربية ضد الإسلام، فكانوا عشرة آلاف رجل.
- قام رسول الله ﷺ بإجراءات دفاعية ووقائية عدّة لحماية المدينة المنورة، منها:
 - أ. استطلاع أخبار جيش الأحزاب عبر خزاعة وعيونه المنتشرة في المنقطة.
 - ب. حفر الخندق حول المدينة. وقد شارك رسول الله ﷺ بنفسه في ذلك. وحفر الخندق بحيث لا يستطيع الإنسان أن يسلكه بسهولة، وكذلك تعجز الخيل عن سلوكه، وقد أحاط بالمدينة من جهة تهديد الأعداء.
 - ج. تعبئة المسلمين لمواجهة جيش الشرك، فقد حثهم ﷺ على الجهاد، وقاتل العدو، وأمن على النساء والذرية، وجعلهم في حصن، ووضع عليهم الحراسة، ووضع الحراسة على اليهود.
- وصل المشركون إلى المدينة المنورة، ففوجئوا بالإجراءات التي قام بها المسلمون، فأحبطت بذلك خطّتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين.
- يمكن تحليل الوضع العام لجيش المشركين بالآتي:
 - أ. إن طبيعة تركيبة جيش المشركين غير منسجمة، فهو مشكّل من قبائل مختلفة ومتنوعة.
 - ب. إن كبر حجم جيش العدو أثر مباشرة على وسائل الإمداد والدعم الماديّ.
 - ج. لم يعد أمام المشركين خيار سوى الحصار، واعتبروا أن الحصار سوف يؤدي إلى ضعف إرادة المسلمين وقوّتهم، وبقي أمامهم خيارات عدّة، ومنها: الاستفادة من اليهود في الداخل، محاولة فتح ثغرة في الخندق، والاعتماد على طول الحصار.

الدرس السابع عشر

معركة الخندق (2) (الهزيمة النهائية لقوى الشرك)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الخطر الداخلي على المدينة من بني قريظة.
2. يشرح خريطة الدفاع النبوية في مواجهة الأحزاب.
3. يحلل أسباب صمود المسلمين وانتصارهم في معركة الخندق.

تمهيد

نَجح رسول الله ﷺ في إيقاف الحشد العسكري للأحزاب من خلال حفر الخندق، وبُهِتت قريش ومن معها من اليهود والعرب بأنَّ محمداً ﷺ قد قام بخطوة أفلست كلَّ مخططاتهم، وذهبت بأحلامهم إلى الأبد، وخصوصاً أنَّ هذا الحشد قد كلف اليهود وقريش الكثير من العناء والتعب لحشد هذا الكمِّ من المقاتلين، وإذا ما خسر اليهود وقريش حربهم، فلم يعد بمقدورهم الحشد في المرَّة الثانية لقتال النبي ﷺ، وهذا ما حصل فعلاً.

فقد أدت معركة الخندق إلى هزيمة قريش واليهود والقبائل العربيَّة المتحالفة معهم هزيمة كبيرة جدًّا، وفقدوا كلَّ ما يملكونه من مقوِّمات لمواجهة الإسلام والمسلمين، فرجعت قريش خائبة خاسرة تجرُّ أذيالها، وحققت هذه المعركة للمسلمين انتصاراً حقيقياً في وجه الأحزاب.

يهود بني قريظة والخطر الداخلي

1. نقض العهد:

جاء حبي بن أخطب في جوف الليل إلى بني قريظة، فكرهوا في بادئ الأمر دخوله إلى دارهم، ثمَّ فتحوا له الباب، فقال: «ويحك يا كعب، جئتك بقريش وبغطفان على قادتتهما وسادتهما حتَّى أنختهم بالمدينة. يا كعب! انقض العهد الذي بينك وبين محمَّد ولا تردَّ رأيي، فإنَّ محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، فإن فاتك هذا الوقت فلا تدرك مثله أبداً!»، فأبى كعب، وقال: «جئتني بذلَّ الدهر...».

لقد كان كعب بن أسد يدرك أن تلك الجيوش الزاحفة على المدينة لن تكون قادرة على تحقيق ما تسعى إليه. وكان حيي بن أخطب يعلم جيداً أن يهودياً ككعب لا يلتزم بعهده بدافع أخلاقي، ولا يحترم الوفاء والصدق، ولذلك أخذ حيي يزيّن له نقض العهد، ويبين له المصلحة في ذلك، حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً أن يكون معه إذا فشلت الأحزاب في إنهاء محمد، فرفض كعب أيضاً، ولجأ حيي إلى الكذب والخداع، فقال: «لا تقاتل حتى تأخذ سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهاناً عندكم»، فأجابه شيوخ بني قريظة ممن كان يرغب أصلاً بنقض العهد، ولكن بعضهم لم يقبل هذا الأمر، فخرج إلى رسول الله والتحق به وأسلم⁽¹⁾.

2. النبي يواجه خيانة بني قريظة:

بلغ رسول الله ﷺ نقض بني قريظة للعهد، فغمه ذلك غمّاً شديداً، وشقّ عليه أن يفتر ذلك أعضاء المسلمين، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وبعث إلى بني قريظة وفداً من الأوس بقيادة سعد بن عبادة، فكان موقفه ﷺ منصفاً معهم، إذ مدّ إليهم يده ثانية، مؤكداً لهم أنه ما زال على حسن الجوار وحفظ العهد. وطلب رسول الله ﷺ من الوفد أن يستخبروا له الأمر، فجاؤوا إلى باب الحصن، ووجدوهم مكاشفين بالغدر والنيل من رسول الله، فدعوهم إلى المودعة، فرفضوا، وانهاه اليهود بسيل من الشتائم والسباب على المسلمين. أخبر الوفد النبي ﷺ بذلك، فقام النبي وتفتّح بثوبه واضطجع، ومكث طويلاً، ثم رفع رأسه، وكبر يبشّر المسلمين بالنصر الأكيد، وقال: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، بفتح الله ونصره وعونه، إنّي لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وأخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر، ولتنفقن أموالهم في سبيل الله»⁽²⁾.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج4، ص103.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص459، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص238، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص104، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص342، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص6، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص118، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص528، الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج2، ص317.

3. المسلمون في مواجهة نقض بني قريظة للعهد:

نجح الأحزاب في تحويل بني قريظة إلى قوّة معادية للمسلمين داخل المدينة، فاستحكم الحصار وتمّ من جميع الجهات. فمن جهة الشرق، كان بنو أسد وهوازن وفزارة واليهود من بني قريظة والنضير، ومن جهة الغرب كانت قريش وكنانة وغطفان. فعظم البلاء، واشتدّ الخوف، حتّى ظنّ المؤمنون كلّ ظنّ، ونجم النفاق، وشغلّتهم أنفسهم، فلا يستريحون ليلاً ولا نهاراً. وكانوا يبيتون في الخندق خائفين، فإذا أصبحوا أمنوا⁽¹⁾. وكان الخوف العامّ عند المسلمين من يهود بني قريظة أشدّ من الخوف من قريش، فلم يكن هناك خندق ولا حتّى حشد عسكريّ قبالتهم، بل كانت الآطام والبيوت، حيث الذراري والأطفال والنساء والأموال، ممّا زرع الخوف والرعب في قلوبهم، وجعل عيونهم بدلاً من أن تكون على الخندق تنحرف إلى الخلف، وتنظر بقلق إلى الآطام. وبدأت ألسن المنافقين تشكّك في قدرتهم على المواجهة. ولقد حاول النبي ﷺ مواجهة ضغط المنافقين فكان ينفخ روح الحماسة، ويبثّ السكينة والطمأنينة في القلوب، وانتقلت عدوى النفاق إلى كثير من الناس، ولم يبقَ مع رسول الله إلاّ القليل، فبعضهم انهارت عزائمهم، وبعضهم الآخر استأذن الرسول، واعتلّوا بأنّ منازلهم عورة، فأذن لهم⁽²⁾.

خريطة الدفاع النبويّة

توزّعت خريطة الدفاع النبويّة على مجموعة محاور، وهي:

المحور الأوّل: البعد الروحيّ

كان رسول الله ﷺ في تلك الظروف يتوجّه إلى الله تعالى؛ حيث جثا على ركبتيه،

(1) الجوزي، عبد الرحمن بن علي، الوفا بأحوال المصطفى، مطبعة السعادة، مصر، 1386هـ ل.ط، ص693، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص528، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص2، ص30، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص317 و318.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص467، ص468، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص186، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص30، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص118، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص347.

باسطاً يديه، باكية عيناه، ينادي بأشجى صوت: «يا صريخ المكروبين، يا مجيب دعوة المضطربين، اكشف همّي، وكربي، فقد ترى حالي»⁽¹⁾.

المحور الثاني: الحراسات وسدّ الثغرات

من أجل سدّ الثغرات التي قد تتحوّل إلى رأس جسر للعبور إلى داخل تحصينات المسلمين، قام ﷺ بتسيير الدوريات الأمنية والحراسات الليلية على طول الخندق. وكانوا ثلاثمئة، وعلى رأسهم عليّ بن أبي طالب. وتوزعت مواقع الحراسة بحيث تستطيع المرصد أن ترى الجانب الآخر من الخندق، واهتمّ المسلمون بحراسة مقرّ قيادة النبيّ كلّ ليلة، فكانوا يتناوبون على الحراسة.

وكان النبيّ ﷺ يحرس بنفسه، ويشارك في كلّ الأنشطة العسكريّة، وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يشرف على العسكر كلّ في الليل، يحرسهم من غدر قريش، فإن تحرك أحد من قريش كان هو من يتصدّى له وينابذه. وكان ينفذ لمواقع العدو ليلاً، فيجوز الخندق ويصير إلى قرب قريش حيث يراهم، ويرصد تحركاتهم، فلا يزال الليل كلّ، فإذا أصبح رجع إلى مركزه.

في المقابل، كان المشركون عند الخندق يطبّقون إجراءات حذر ودفاع، فتوزّعوا الحراسات والكمائن، وسيّروا دوريات متحرّكة، وكانوا يُطيفون بالخندق طوال الليل حتّى يصبحوا⁽²⁾. وهكذا كانت العيون الحذرة من الجانبين؛ فلم يكن سهلاً اختراق الخندق.

المحور الثالث: مراقبة حصون بني قريظة

حرص النبيّ على رصد تحركات ومواقع وحصون بني قريظة لمعرفة مواضع الخلل، واحتمالات الهجوم من قبلهم، فأرسل العيون والمستطلعين. وقد حصل بسبب ذلك كثير

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج1، ص198، ج3، ص134.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص343، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص529، دحلان، السيرة النبوية، ج2، ص10، الواقدي، المغازي، ج2، ص464، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص324، ج3، ص327، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص58، ص316، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص163، الواقدي، المغازي، ج2، ص465.

من الاحتكاكات، وقتل يهود في اشتباكات متفرقة كالذي قتلته صفيّة، والذي قتلته رجل من بني حارثة. وقد كان هذان اليهوديان إماماً في مهمة استطلاعية أو بهدف السطو⁽¹⁾. وكانت الدوريات مكثفة، تبلغ الدورية الواحدة مئتي رجل يحرسون المدينة من جهة بني قريظة، وكانوا طوال الليل يظهرون التكبير حتى الصباح⁽²⁾.

المحور الرابع: قوّة التدخل

في الوقت نفسه، شكّل النبي ﷺ بقيادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام قوّة ضاربة متحرّكة سريعة من بضعة وثلاثين فارساً، كانت تتحرّك باستمرار على طول الخندق ما بين طرفيه، وذلك لمنع العدو من القيام بأيّة محاولة اختراق للخندق عبر استغلال مسافة عمياء بين مواقع الحراسة الثابتة.

الاشتباك والافتتال

صار المشركون يتناوبون على الخندق كل يوم، يقودهم في كلّ مرّة رأس من رؤوس الكفر كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، فلا يزالون يجولون بخيلهم، يفترقون مرّة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون المسلمين، ويقدمون رجالهم فيرمون؛ فيبادلهم المسلمون الرماية، وتنشب معارك تراشق جزئية هنا وهناك بالحجارة والنبل. وكانت الاشتباكات أحياناً تدور في الليل. وكانت تلك المناوشات تتكرّر كلّ يوم. وقد حاول المشركون رصد مواضع ضيقة كما فعل أبو سفيان وعمرو بن العاص؛ فرماهم المسلمون بالنبل والحجارة حتى ولوا. وقد بادر سلمان المحمّديّ إلى توسعة تلك المواضع⁽³⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص239، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص241، ابن الأثير، أسد الغابة، ج2، ص6، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص267، السمهودي، وفاء الوفاء، ج1، ص301، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص208، تاريخ الإسلام، ص240، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص181، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص109، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص347.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص460، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص315، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص58. (3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص226، الواقدي، المغازي، ج2، ص468، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص58، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص51، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص198، الأربلي، كشف الغمة، ج1، ص202، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص180، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص200، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص301.

رسول الله وتفتيت معسكر الأعداء

لقد أدرك النبي ﷺ منذ اللحظات الأولى للحصار، أنه ينبغي له تفتيت معسكر الأعداء، وعليه أن يعمل على الاستفادة من عنصر الفرقة، فإن الثقة معدومة بين اليهود وحلفائهم، كذلك القبائل المختلفة التي حشدتها قريش. ولذلك، فإن النبي رسم خطته لتفكيك معسكر الأعداء على محورين، وهما:

الأول: تحويل الشك والريب الموجود بين اليهود والمشركين إلى عدا، أو على الأقل إلى نحو من تعطيل اتحادهم في أي عمل عسكري.

الثاني: هو محور تفكيك العلاقة الواهية بين قريش وأقوى حلفائها من المشركين، ألا وهي غطفان. ولم تمض أيام على وصول الأحزاب إلا وقد أخذت عوامل الإحباط تبرز هنا وهناك، فبادرت غطفان إلى الاتصال بالنبي ﷺ عارضة عليه الانسحاب مقابل بعض تمرور المدينة. وقد استفاد النبي من هذا أمرين:

1. الأمر الأول: رفض عرض غطفان:

رفض رسول الله ﷺ وبشكل مباشر عرض غطفان، وأجابهم إنه لن يعطيهم إلا السيف. ثم دبر أمر إشاعة ذلك بين صفوف الأعداء، فأحدث ذلك أثراً سلبياً في معنويات اليهود والمشركين.

2. الأمر الثاني: الاتفاق بين قريظة والأحزاب:

كان الاتفاق بين قريظة والأحزاب أن يأخذوا منهم رهناً سبعين رجلاً حتى يخرجوا لقتال المسلمين⁽¹⁾. وأخذ ينتظر الفرصة المناسبة، حتى جاءت تلك الفرصة عندما أبصر نعيم بن مسعود الغطفاني. وكان نعيم رجلاً نماماً مهذاراً، كثير الكلام، لا يكتفم حديثاً، فاختره ليلقي إليه كلاماً ينتهي بتخذيل الأحزاب، فاستدعاه إليه، وقال له: «ما وراءك؟»، فقال نعيم: «بعثت قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك»، فقالت قريظة: «نعم، فأرسلوا إلينا بالرهن!». فقال له رسول الله:

(1) الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص527، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص103، ص113.

«فلعلنا نحن أمرناهم بذلك! إني مسرٌّ إليك شيئاً فلا تذكره، إن بني قريظة قد أرسلوا إليّ يدعونني إلى الصلح، وقالوا: 'إن كان يرضيك عنا أن نأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرفهم، فندفعهم إليك فتقتلهم، وأننا إذا التقينا نحن وأبو سفيان أمدونا وأعانونا على أن أردّ بني النضير إلى دورهم وأموالهم»⁽¹⁾. فانصرف نعيم بن مسعود من عند رسول الله ﷺ عامداً إلى غطفان وقريش، فأخبرهم ذلك، فتفاجأت الأحزاب بذلك، وعلموا أنّ حيي هو الذي وعد قريظة من دون تنسيق معهم في شيء، فاعتبر أبو سفيان أنّ ذلك غدرٌ منه، وتشابكت عليهم الأخبار، وحقائق الأمور⁽²⁾.

نهاية جيش الأحزاب

بعد مضيّ شهر كامل تقريباً على الحصار⁽³⁾، لم يبقَ أمام المشركين إلا خوض مغامرة عسكرية. فأجمع رؤساء المشركين على أن يغدوا جميعاً إلى الخندق، وجاؤوا يريدون مضيقاً يقتحمون منه، فوجدوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون، فلم تدخله خيولهم. وقد نجحت في اقتحامه ثلّة منهم عمرو بن عبد ودّ العامري⁽⁴⁾. فلما طفروا الخندق صاروا قبال رسول الله مباشرة، والمسلمون خلف ظهره. فأمر النبيّ عليّاً بن أبي طالب بأن يمضي بمن خفّ معه؛ ليأخذ الثغرة عليهم حتّى لا يمكنهم الرجوع، وليمنع بقيّة قوى الأحزاب من عبورها، فخرج عليّ رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتّى أخذ الثغرة، وسيطر رضي الله عنه على الموقف.

-
- (1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص181، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص223، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج3 ص232، الواقدي، المغازي، ج2، ص458.
- (2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص309، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص113، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج3، ص216، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص267.
- (3) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص216، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج1، ص293، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص30، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، ص11.
- (4) الواقدي، المغازي، ج2، ص470، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج3، ص235، تهذيب السيرة النبويّة، ص193، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص239، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص52، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص197، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص181، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص342، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص202، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص61، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19، ص62، الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، ص693، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص105.

في الوقت نفسه، كان المشركون الذين عبروا يجولون من جهة المسلمين، والمسلمون وقوف لا يقدم أحدٌ منهم على المشركين. وجعل عمرو بن عبد ودّ يدعو للبراز، وكان من مشاهير الأبطال وشجعان العرب وفارسها، ويعرف بفارس قريش⁽¹⁾، فقال النبي ﷺ: «من لهذا؟»، فلم يقم إليه أحد.

فقال علي بن أبي طالب ﷺ: «أنا له يا رسول الله». فأمره النبي بالجلوس. فقال رسول الله ﷺ: «أيكم يبرز له، وأضمن له على الله الجنة؟»⁽²⁾، فلم يجبه أحد، فقام علي بن أبي طالب ثانية، وقال: «أنا له يا نبي الله». فقال له النبي: «إنه عمرو، اجلس». ثم توجه النبي ﷺ إلى المسلمين، وقال لهم: «من يقوم إلى مبارزته فله الإمامة بعدي؟»، فنكل الناس، فقام علي ثالثة، وقال: «أنا له يا رسول الله». فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو». فقال علي ﷺ: «وأنا علي». فقال له النبي: «ادن مني يا علي»، فدنا منه، فقبله وعممه بعمامته، وقلده سيفه ذا الفقار، وخرج معه خطوات كالمودع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه، وقال ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله!»⁽³⁾.

ثم لم يزل رسول الله رافعاً يديه إلى السماء، والمسلمون صموت حوله، وهو يقول: «اللهم إنك أخذت مني عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، فلا: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾»⁽⁴⁾، اللهم احفظه

(1) الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص368، الشيخ المفيد، الاختصاص، ص167، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار ج1، ص287، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص342، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص237.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج4 ص106، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص204، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج3، ص135، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج1، ص61، السهيلي، الروض الأنف، ج3، ص27، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص261، ج19، ص63، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص32، الخوارزمي، المناقب، ص104، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، ص95، الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، قم، إيران، 1369 هـ ش، ص137.

(3) الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج2، ص10، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص59، وابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص61، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص194 و195، الواقدي، المغازي، ج2، ص470، الأربلي، كشف الغمة، ج1 ص204، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص60.

(4) سورة الأنبياء، الآية 89.

من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدميه». فدعا عليّ عليه السلام بدعاء علمه إياه رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم بك أصول، وبك أجول، وبك أدرا في نحره». وخرج عليّ عليه السلام راجلاً، بينما كان عمرو فارساً، فسخر به عمرو، ودنا منه عليّ⁽¹⁾، وعرض عليه الإمام عليّ عليه السلام الإسلام أو الرجوع إلى بلاده، أو المبارزة، فرضي بالثالثة. وهنا وجد عمرو بن عبد ودّ نفسه وجهاً لوجه أمام قاتل الأبطال في بدر وأحد، فعلم أنه مقتول، فاستحيا أن يظهر الفشل، فبارزه الإمام عليّ عليه السلام، وانقضّ عليه كالأسد، فسقط صريعاً⁽²⁾، فقال رسول الله ﷺ: «لمبارزة عليّ لعمر بن عبد ودّ أو ضربة عليّ يوم الخندق خير من عبادة الثقلين، أو أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»⁽³⁾. وبمقتل عمرو، انكشف المشركون الذين عبروا الخندق معه، وفرّوا عائدين. وانقضّ عليّ عليه السلام خلفهم، يقتل منهم. فلما رأى النبيّ ذلك قال: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم».

وتوجّه النبيّ ﷺ إلى ربّه بالدعاء والعبادة، فأتى ﷺ مسجد الفتح، فصلّى ركعتين، ثمّ قال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد في الأرض بعدها»، واشتغل بالدعاء: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم وزلزلهم. اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد».

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج13، ص285، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص343، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص203، وج41، ص88.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص181، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج19، ص63، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص203، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج1، ص295 و296، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج3، ص139، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، من 533.

(3) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص115، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج13، ص19، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص32، الخوارزمي، المناقب، ص58 الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف، مطبعة السعادة، 1907م، ط1، ج8، ص371، الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج2، ص14، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج32، ص31، القندوزي الحنفي، ينباع المودّة، ص94، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص139، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص60، أبي الفتح الكراچي، كنز الفوائد، ص137، شرح المقاصد، ج5، ص298، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص343، الدميري، كمال الدين دميري، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ ط2، ص274.

وفي ليلة السبت، قام رسول الله يصلي، وكان ذلك في أيام شاتية، وبرد شديد، فأرسل الله تعالى ملائكة وريحاً صرصراً عاتية على الأحزاب، فهتكت القباب، وقلعت خيم المشركين، وكفأت القدور وأطفأت النيران، وقلعت الأوتاد، حتى لا يقرّ لهم قدر ولا بناء، وأرسل عليهم ظلمةً دامسةً وجالت خيل المشركين بعضها على بعض تزجرها الملائكة، فانطلقوا هاربين لا يلوي أحد على أحد حتى ما كان في الأرض منزل أشدّ عليهم، ولا أكره إليهم من منزلهم ذلك، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، وغشيتهم الملائكة تطمس أبصارهم، ورأوا أنّ لا خلاص لهم إلا بالفرار⁽¹⁾.

(1) قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1، ص156، 230، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص186، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج5، ص143، عبد الرزاق الصنعاني، المصنّف، ج5، ص367، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص104، البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص22، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص60، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص115، الواقدي، المغازي، ج2، ص488، القيرواني، الجامع، ص281، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص545، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص339، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص138، البلاذري، أنساب الأشراف، ص345، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج10، ص123.

المفاهيم الرئيسية

- سعى يهود بني قريظة لنقض العهد مع النبي ﷺ، خصوصاً مع مجيء حُيَي بن أخطب، وسعيه لتأليبهم ضده ﷺ والمسلمين، وأعطاهم العهد على نصرتهم وحمايتهم، والدفاع عنهم، فوافقوا على نقض العهد مع رسول الله ﷺ، فعلم رسول الله ﷺ بنقض بني قريظة العهد، فأرسل لهم سعد بن عبادَةَ للحفاظ عليه، إلا أنهم رفضوا ذلك.
- عمل رسول الله ﷺ على إحكام خطته في حماية المدينة من خلال:
 - أ. تقوية البعد الروحي للمسلمين عبر الدعاء والتوسُّل.
 - ب. الحراسات وسدَّ الثغرات: وكان ذلك في طول الخندق وعرضه، ليلاً نهاراً.
 - ج. مراقبة حصون بني قريظة بشكل مستمرّ.
 - د. قوَّة التدخل المباشر بقيادة الإمام عليّ ﷺ عند حصول أيّ خرقٍ أو خلل في مكان ما.
- عمل رسول الله ﷺ على تفتيت جبهة الشرك من خلال تحويل الشكِّ والريب بين اليهود والمشرِّكين إلى حقيقة وواقع، وتفتيك العلاقة بين قريش والقوى الأخرى المشاركة معها.
- عرضت غطفان على النبي ﷺ الانسحاب مقابل بعض تمور المدينة، فاستغلَّ رسول الله ﷺ ذلك، عبر رفض عرض غطفان من جهة، ومن جهة أخرى نشره بين قوى الشرك لإحداث التفرقة في صفوفها، وعمل أيضاً على زعزعة الاتفاق بين قريظة والأحزاب.
- سعت الأحزاب للنفاذ عبر الخندق، فنجح عمرو بن ود العامري بذلك، فتصدَّى له الإمام عليّ ﷺ وقتله، فخسرت بذلك قريش قوتها المعنوية، وانهزمت نفسياً، وأثر ذلك بشكل مباشر على قوى الجيش عندها.
- تدخلت الإرادة الإلهية لكسر شوكة قوى الشرك، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الريح الصرصر الشديدة، والشتاء البارد، فهتكت القباب، وقُلعت خيم المشرِّكين، وفرَّوا هاربين.

الدرس الثامن عشر

حماية المدينة وتفتيت جبهة قريش (يهود بني قريظة)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح أهم الخطوات التي اعتمدها النبي ﷺ في مواجهة قوى الشرك.
2. يعرف كيف تخلص المسلمون من خطر يهود بني قريظة.
3. يفهم الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني قريظة.

تمهيد

إنَّ جميع المعارك الكبرى التي خاضها رسول الله ﷺ في وجه قريش أثرت بشكل مباشر على الإسلام، حيث ارتفعت رايته خفاقة في شبه الجزيرة العربيّة، وأصبح يشكّل تهديداً خطيراً على مستقبل قريش والقبائل العربيّة المؤيِّدة لها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنَّ تلك المعارك أثرت سلبيّاً على جميع القوى المعادية للإسلام في ذلك الوقت، وأدّت إلى زعزعتها من الداخل، وسقوط هيبتها أمام القبائل العربيّة الأخرى، وكان من أبرز تلك القوى قريش، واليهود.

وكان رسول الله ﷺ يعمل على محاولة أن لا يواجه قريشاً بشكل مباشر، وكان عليه في الوقت نفسه أن يحذر من اليهود في المدينة المنورة؛ لأنهم يشكلون خطراً واضحاً على مستقبل الدعوة الإسلاميّة. ولذا سعى رسول الله ﷺ إلى إنهاء وجودهم والتخلّص من خطرهم بطريقة سلميّة، وكذلك إلى إنهاء الوجود اليهودي في المدينة المنورة لتأمين استمراريّة الرسالة وعدم زعزعة استقرارها من الداخل.

الإستراتيجية النبويّة في قلب موازين القوى في المنطقة

1. التحوّل من الدفاع إلى الهجوم:

كانت غزوة الأحزاب آخر ما يمكن لتحالف الشرك واليهوديّة أن يفعله في مقابل دعوة الإسلام من أجل التغلّب عليه وهزيمته. وعندما قتل عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عمرو بن عبد ودّ العامريّ، قال رسول الله ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»، تعبيراً عن

انتهاء دور الهجوم عند الشرك والدفاع عند المسلمين، ووصول الإسلام إلى دور الهجوم لإبادة الشرك في جزيرة العرب.

2. قلب موازين القوى وآثاره على قريش:

كان من الواضح أن ميزان القوة قد مال إلى مصلحة الإسلام لا إلى مصلحة الشرك. فمعسكر الإسلام يقوى بتوسيع الدعوة كمًّا ونوعًا، ومعسكر الكفر في حالة تراجع على المدى الطويل، ولم يعد مصير المواجهة بين الإسلام والكفر مرتبطًا بالمواجهة العسكرية فقط، وإنما بكسب تلك القبائل العربية، وسوف يشكل انضمامها إلى أحد الطرفين عاملاً أساسياً في المرحلة القادمة. ولكن حتى يستطيع الرسول استقطابها، كان بحاجة إلى الاعتراف بها أو الهدنة مع قريش.

وذلك لأن لقريش مكانة عالية عند العرب، وصلت إلى حدّ التقديس. فهي ذرية إسماعيل وإبراهيم، وهي الحامية للكعبة والأصنام، وفي أرضها حرم الله ومكة، ممّا أعطاهما مكانة سياسية واجتماعية ودينية جعلها تستكبر الخضوع لدعوة خاتم النبيين ﷺ، الأمر الذي وضع بقية العرب الذين كانوا يراقبون المعركة بين النبي ﷺ وبينها في حالة من الانتظار ومراقبة من سوف ينتصر فيها⁽¹⁾. وكان العرب يتابعون بدقة أخبار قريش ومحّمّد، والمعارك الجارية بينهم، فشاهدوا هزيمة قريش في بدر، ثم سقوط هيبتها في أحد، وكذلك فشلها الذريع في معركة الأحزاب، فأصبحت قريش في وضع الاستعداد للتسليم بوجود الإسلام، وباستحالة استئصاله، فقد استنفدت كل خطتها، واستعملت كل قواها، وقد أصبحت جاهزة لخطوة رسول الله ﷺ، ولكن كان عليه هو أن يساعدها على قبولها بهذه الحقيقة، دون أن يخذش كبرياءها وغطرستها، وبحيثية لا تخرجها، وتبقي لها على شرفها وسمعتها بين العرب، فلا بدّ من جرّ قريش إلى مائدة المفاوضات، وإخراجها من حيرتها، لإيجاد حالة من المصالحة أو الهدنة معها للدخول في الإسلام.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص75، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص180، الحلبي، السيرة الحلبية، ج1، ص5.

3. إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة:

كان معسكر الشرك يتكوّن من قوّتين، هما: قريش واليهود. وكانت أمام رسول الله ﷺ مهّمتان:

الأولى: توسيع رقعة الإسلام من خلال إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة، وتقييد قريش واليهود من أجل إحداث الانقلاب في ميزان القوى. الثانية: إحداث شقّ في معسكر الكفر ما يسهّل القضاء على أطرافه واحداً تلو الآخر. فلقد كان رسول الله ﷺ يريد أن تنقلب الموازين، وأن يحسم الحرب لمصلحة الإسلام، ولكن كان عليه أن يصل إلى ذلك بأقلّ ما يمكن من سفك الدماء. إذاً لا بدّ من تقطيع أوصال قريش العسكريّة وتوسعة حركة المسلمين في نشر الدعوة.

4. الخروج إلى بيت الله الحرام:

إن الطريق إلى تحقيق أهداف النبي ﷺ هو البيت الحرام، فهو مثابة للناس وأمن، تقدّسه كل قبائل العرب، فكانت تزوره، وتحجّ إليه، ولم يصدف في تاريخ البيت الحرام، أن صدّ حاجّ أو راغب بزيارة البيت الحرام؛ لأنّ ذلك كان حقاً لكلّ واحد من الناس. فقرّر رسول الله ﷺ الخروج محرّماً، معظّماً للبيت، زائراً له، ولا بدّ أن تنتج عن الخروج إلى مكّة إحدى نتيجتين في طريق التأثير في تغيير موازين القوى، فهو من شأنه أن يطمئن أهل مكّة، ومن حولها إلى أنّه لا يريد الحرب، وسوف يفتح بالتالي طريقاً للحوار مع قريش، وربما جرّها إلى طاولة المفاوضات.

ومن جهة أخرى، سوف يكون تحديّاً لزعماء الشرك، وسوف يدلّ على شعور المسلمين بالقوّة والعزّة، هذا أولاً، وثانياً سوف يكسر هيبة قريش ويؤدّي إلى أن يشعر الناس بقوّة هذا الدين، فيتجرؤون على الدخول فيه.

وأما عن موقف قريش، فإنّ هذا الإجراء قد جاء في الأشهر الحرم التي يمنع القتال فيها. وأما موقفها تجاه النبي ﷺ فإنّها لا يمكن أن تردّ رسول الله، أو تقاتله، وقد جاءها مسالماً حاجّاً يسوق هديه، وإلا إذا رفضت دخوله لزيارة بيت ربّه، فماذا يكون جوابها لمن جاء معه من الأعراب ولغيرهم ممّن لم يأت معه، خصوصاً أنّه قصد مكّة في الأشهر الحرم؟

لم يكن أمام قريش سوى المفاوضات التي سوف تسمح بنزع فتيل المعركة بين الطرفين، سواء أ جاء الحلّ من قبل رسول الله ﷺ أم من قبل قريش. ولكنّ العنصر الحساس في هذه الخطة كان احتمال وقوع الاشتباك المسلّح، وكانت مواضع الخطر في معسكر النبيّ ﷺ نزع التمردّ والعصيان المحتملة. ولذلك وجّه النبيّ ﷺ أمراً صارماً بعدم الاشتباك وعدم القتال. وأمّا مواضع الخطر في معسكر قريش فقد كانت لا تعدّ ولا تحصى، ولكنّه اعتمد في استيعاب أخطارها على روح الطاعة والانضباط في صفوفه، وعلى أنّ قريشاً لا بدّ لها أن تحسب حساباً كبيراً لأيّ اشتباك مسلّح؛ لأنّها لا تريد أن تخرج نفسها أمام العرب عندما تقاتل زوّار بيت الله الحرام.

كذلك كان هناك جانب خطر في الخطة النبوية الجديدة لقلب موازين القوى في الجزيرة العربية لمصلحة الإسلام، وهو أنّ المدينة سوف تخلو من المدافعين عنها أمام الطامعين والحاقدين من قبائل الشرك، ولو تحرك النبيّ ﷺ بالمسلمين لحسم الحرب مع قريش، فسوف تخلو المدينة من المدافعين عنها أيضاً أمام يهود بني قريظة القريبين منها، ويهود خيبر، وغيرهم.

فلكي يتمكن النبيّ ﷺ من أن يتخذ قراراً بالخروج بأكثر المقاتلين إلى مسافة بعيدة لحسم الأمر مع قريش، عليه أن يقوم بخطوات احترازية لضمان حماية المدينة.

5. القضاء على قوّة يهود بني قريظة:

كان أمام رسول الله ﷺ خطوات تمهيدية عدّة من أجل قلب موازين القوى، والانتقال إلى الهجوم، ثمّ مواجهة قريش في النهاية وحيدة معزولة. من هذه الخطوات: إنهاء وجود بني قريظة، توجيه ضربة لبني المصطلق، توجيه ضربات عدّة لليهود، ضبط الوضع العامّ للأعراب حول المدينة.

أ. من هم بنو قريظة؟

وبنو قريظة من القبائل العربية التي كانت تسكن في بلاد الشام، وقد هاجروا منها بعد أن ظهرت عليهم الروم، فوطئوهم وقتلوهم، وخرجوا من بلادهم حتّى وصلوا إلى

بلاد الحجاز، فسكنوا بعالية المدينة على وادي مهزور⁽¹⁾. وكان بنو قريظة أهل شرف وأموال⁽²⁾.

وكانت لهم حصون عالية بعالية المدينة، على وادي مهزور؛ حيث يقع مسجد بني قريظة الذي يوجد بالعوالي على باب حديقة تعرف بحاجزة، شرقي مسجد الشمس، مسجد الفضيخ الذي يقع هو الآخر شرقي مسجد قباء في الحرّة الشرقيّة المعروفة بحرّة واقم، وتسمى حرّة بني قريظة أيضاً، لأنهم كانوا بطرفها القبلي⁽³⁾.

ب. التوجّه إلى بني قريظة:

بعد أن انتهت معركة الخندق التي عانى فيها المسلمون الخوف من مهاجمة ذراريهم ونسائهم من قبل بني قريظة، وكان من المستحيل تجديد العهد معهم بعد الخيانة التي ارتكبوها، فما الذي يمنعهم من نقضه ثانية؟ بعد ذلك بدأت عملية إنهاء وجود يهود بني قريظة في آخر ذي القعدة، يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة في السنة الرابعة من الهجرة، وحاصرهم المسلمون لمدة تتراوح بين عشرة أيام أو شهر⁽⁴⁾.

ولمّا انصرف ﷺ من الخندق ودخل المدينة، ووضع السلاح، وكان حينئذ في بيت فاطمة عليها السلام⁽⁵⁾، جاءه جبرئيل، وكان رسول الله يمسح الغبار عن وجهه، فقال له جبرئيل عليه السلام: «عذيرك من محارب، رحمك ربك! وضعت السلاح ولم يضعه أهل السماء! انهض إلى إخوانهم من أهل الكتاب، فوالله لأدقنهم دقّ البيضة على الصخرة!». واستبشر النبي ﷺ بالمعركة القادمة ضدّ يهود بني قريظة، فأمر بأن يدعوا له

(1) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج2، ص344.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج1، ص480.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص346، وح5، ص234، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص287.

(4) ابن حزم الأندلسي، جوامع السيرة، ص156، الواقدي، المغازي، ج2، ص496، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص217، العيني، عمدة القاري، ج17، ص188.

(5) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج5، ص275، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج1، ص448، وح3، ص155، محب الدين الطبري، ذخائر العقبى، ص37، البيهقي، السنن الكبرى، ج1، ص26، الزرندي، الحنفي، محمد بن يوسف، نظم درر السمطين، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة، 1958م، ط1، ص177، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ص93.

عليّاً عليه السلام، فجاء، وقال له: «ناد في الناس ألا لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة». فجاء عليّ عليه السلام فنادى فيهم، ثم أعطاه الراية واللواء، وقال له: «سر على بركة الله، فإن الله قد وعدكم أرضهم وديارهم». وبينما كان رسول الله في طريقه إلى بني قريظة، دنا عليّ عليه السلام من حصنهم، وغرز الراية عند أصل الحصن⁽¹⁾.

ج. الهزيمة المعنوية لبني قريظة:

لما رآه بنو قريظة أخذوا يتصارخون ويتصايحون بينهم: «أقبل إليكم قاتل عمرو!». فكان قتل عمرو سبباً لهزيمة بني قريظة. وتمت محاصرة بني قريظة، وكان الهجوم صاعقاً لدرجة أنه فاجأهم بشكل كامل. فلما دنا منهم رسول الله ﷺ، أمر أصحابه أن يستروه بحفهم؛ ليقوه الحجارة حتى يسمع كلام اليهود، ففعلوا، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا إلى الإسلام، وأشرفوا عليه وسبّوه، ثم أمر فضربت خيمته بإزاء حصونهم، وكان الناس قد أخذوا بالتلاحق به⁽²⁾.

د. الفتح على يد الإمام عليّ عليه السلام:

لم يبادر المسلمون للقتال، وكان اليهود يرمون المسلمين بالنبل من حصونهم. وبعد أيام عدة، ترك اليهود رمي المسلمين، وأرسلوا نباش بن قيس لمفاوضتهم، ثم رجع إلى قومه من بني قريظة واستمرّوا أياماً في العناد والإصرار، متباطئين في إجابة طلب النبي ﷺ بالتسليم، والنزول على حكمه، فاستنفر عليّ بن أبي طالب: «يا كتيبة الإيمان»⁽³⁾. وطلب رسول الله من عليّ عليه السلام أن يحسم الحرب، فأيقن بنو قريظة بالهلاك،

(1) الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج8، ص332، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي ج2، ص189، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص194-195، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص109.

(2) عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج5، ص370، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص245، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص245، تاريخ يعقوبي، ج2، ص52، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص207، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص63.

(3) الواقدي، المغازي، ج2، ص501، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص13، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص74، تاريخ يعقوبي، ج2، ص52، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص251-257، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص73، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص234.

وسرعان ما ظهرت آثار ذلك عليهم، فقد قتل عليّ عليه السلام عشرة من رجالهم، وأولي النجدة منهم، وظهر السرور على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لأصحابه المحيطين به: «يا معاشر قريش، إنني أوصيكم بوصية فاحفظوها عني، ومودعكم أمراً، فلا تضيعوه، إن علياً بن أبي طالب إمامكم من بعدي، وخليفتي فيكم، وبذلك أوصاني جبرئيل عن الله عز وجل». فانعكس الخوف سريعاً على بني قريظة، فقد فرّ بعضهم، واعتنق بعضهم الآخر الإسلام علناً، فأمنوا على أنفسهم، وأهلهم، وأموالهم⁽¹⁾.

ولما اشتد الحصار على بني قريظة، وخافوا من مهاجمة عليّ عليه السلام لهم، بعد أن جاءهم وقهرهم، وقد كان ذلك في الأيام الأخيرة من الحصار، أرسل اليهود إلى حلفائهم من الأوس أن يأخذوا لهم مثل ما أخذت الخزرج لإخوانهم بني قينقاع، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى إلا أن ينزلوا على حكمه، فسأله اليهود أن يرسل إليهم أبا لبابة زيد بن عبد المنذر، ليشاوروه في أمرهم، فأرسله إليهم، وقال له: «يا أبا لبابة أتت حلفاءك ومواليك، وقل معروفًا»⁽²⁾، إلا أنه أوحى إلى بني قريظة أن نزولهم على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني الذبح، فخافوا ورفضوا النزول على حكم رسول الله، وقالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فلم يسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم العفو، الأمر الذي يستبطن تشكيكاً بالنبى، وإعلاناً بعدم الثقة بحكمه بالعدل والحق، ولجؤوا إلى سعد بن معاذ نفسه لينقذهم من ورطتهم، وذلك استناداً إلى الحلف الذي كان بينهم وبين الأوس في الجاهلية. وقد حاول سعد معالجة هذا النقص للعهد لصالحهم، فلم يفلح، وأظهروا من الخبث ما جعله يعرفهم على حقيقتهم.

وكان سعد يدرك جيداً الفرق بين حلف جاهليّ أملتته ظروف العصبية، وعهد إسلاميّ أملتته القيم الإنسانية العالية. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما طلب منه الحكم في بني قريظة: «آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص503، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص15.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص190، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص175.

نتائج الحرب

بعد أن جهدهم الحصار، واستنزلهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام على حكم رسول الله ﷺ؛ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، أمر النبي ﷺ بأسراهم، ونحو ناحية، وجعلوا النساء والذرية ناحية، وكانوا ألفاً.

تنحى رسول الله ﷺ فجلس جانباً، ودنت الأوس إليه ﷺ، وطلبوا منه أن يهب لهم حلفاءهم من بني قريظة. وكان هؤلاء الأوس مجموعة من المنافقين، كشفتهم الحادثة، وأظهرت ولاءهم الجاهلي، وقد كان يمكن أن يكون نشاط هؤلاء مؤثراً في إثارة جوٍّ من التشكيك والبلبله، لولا حكمة رسول الله ﷺ، فأخرجهم، وتخلص من إلحاحهم، وأفقدهم إمكانية التأثير على السذج والبسطاء، فقال ﷺ: «أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟!»، قالوا: «بلى!»، قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ».

فجاءت الأوس إلى سعد، فحملوه على حمار، وطلبوا منه أن يحسن في مواليه من بني قريظة، وطفق سعد بن معاذ ينفلت إلى رسول الله ﷺ: «أتقرّ بما أنا حاكم؟!»، «نعم!»، قال سعد: «فإني أحكم فيهم أن يقتل كلّ من حزب عليه، وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال، وبأن تكون الديار للمهاجرين دون الأنصار». فكبر رسول الله ﷺ، وقال لسعد: «لقد حكمت بحكم الله عزّ وجلّ من فوق سبعة أرقعة».

ثمّ رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، في الأسبوع الأول من ذي الحجة. وسيق رجال بني قريظة إلى المدينة مقرّنين في الأصفاة، حتّى يرى ضعفاء الإسلام قوّة الدين، وعزّة ملة سيّد المرسلين. وحُبس الرجال في بعض دور الأنصار والنساء والذرية في دار ابنة الحارث⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص509، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص75، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص73، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص19، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص32، عبد الرزاق الصنعاني، المصنّف، ج5، ص370، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص317، الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، ص695، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج8، ص352، العين، عمدة القاري، ج17، ص192، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص317، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج10، ص311، ج12، ص7.

الدروس المستفادة من غزوة بني قريظة

كانت لغزوة بني قريظة نتائج عديدة، منها:

1. شراء السلاح ومضاعفة القوة التسليحية من أجل تقوية عامل الردع السلبي للمسلمين.
2. قَسَمَ رسول الله ﷺ الخيل والسلاح الذي اشتراه على المسلمين، الأمر الذي يعطي انطباعاً بأنَّ على الدولة أن تخطط للتسليح الكافي والوافي، ولا تقتصر على ما يتوفر لدى الناس العاديين.
3. النص على مشروعية التحكيم، وأنَّ تنفيذ الحكم الصادر منوط بأن لا يخالف حكم الله عزَّ وجلَّ.
4. لم يكن الإسلام مهتماً بالاسترقاق، لولا أنه يريد دفع غائلة الآخرين عنه. وقد عامل رسول الله ﷺ بني قريظة بالمثل، إذ لو أسروا المسلمين لاسترقوهم.
5. لم يكن الحكم في حق بني قريظة قاسياً، وذلك لأسباب عدَّة، وهي:
 - أ. أن بني قريظة أنفسهم قد رفضوا النزول على حكم رسول الله ﷺ، وقبلوا بالنزول على حكم حليفهم في الجاهلية، وكانوا يرون أنه أقرب إلى أن يعاملهم بالصفح وذلك حسب منطقهم الجاهلي.
 - ب. إن جريمة بني قريظة لا تقاس بجريمة بني النضير وقينقاع. فقد كانت خيانة بني قريظة إلى درجة التقدُّم في خطوات عملية تهدد أساس الإسلام وتعرض الوجود الإسلامي للإبادة.
 - ج. إن الدولة الإسلامية الناشئة كانت تعقد مع القبائل المشركة أو القبائل التي هي من أهل الكتاب عهداً واتفاقيات ومواثيق، وكانت تفي لهم بما تعهدت به، وكان من الواجب على تلك القبائل أن تفي للإسلام بما تعهدت به، ولكن بني قريظة لم يفوا بعهدهم، بل خانوا الله ورسوله.
 - د. إن حكم سعد بن معاذ قد جاء وفق ما يحكم به اليهود أنفسهم على الآخرين.

فاليهود هم الذين كتبوا في توراتهم المحرّفة عن المدينة التي يدخلونها عنوة: «وإذا دفعها الربّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف. وأمّا النساء، والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة، كلّ غنيمتها، فتختنمها لنفسك. وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك»⁽¹⁾.

(1) سفر التثنية، الإصحاح العشرون - الفقرة رقم 13 - 14، سفر العدد، الإصحاح 31 الفقرة 7 - 10 و 13 - 16.

المفاهيم الرئيسية

- عمل رسول الله ﷺ على بناء استراتيجية في قلب موازين القوى في منطقة شبه الجزيرة، وذلك عبر الآتي:
 1. التحوّل من الدفاع إلى الهجوم؛ وذلك بعد معركة الأحزاب.
 2. قلب موازين القوى وآثاره على قريش.
 3. إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة.
 4. الخروج إلى بيت الله الحرام.
 5. القضاء على قوة بني قريظة داخل المدينة المنورة، وتوجيه ضربة لبني المصطلق، والقبائل اليهودية المتفرقة.
- يعدّ يهود بني قريظة من القبائل التي كانت تسكن بلاد الشام، ثم هاجرت إلى يثرب بعد إلحاق الأذى بها من قبل الروم.
- بعد أن انتهت معركة الخندق قرّر رسول الله ﷺ التوجه إلى بني قريظة، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة، وقد جاءه الأمر الإلهي بالخروج إلى بني قريظة، وكان لا يزال غبار معركة الخندق على المسلمين.
- لمّا وصل رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، وغرز الإمام عليّ عليه السلام الراية عند الحصن، تصارخ اليهود وتصايحوا في ما بينهم.
- لم يبادر المسلمون إلى القتال، وبعد محاصرة بني قريظة أياماً عدّة، استمرّوا أياماً في العناد والإصرار، ثم بدأوا بالتفاوض مع رسول الله ﷺ. وبعد أن قتل الإمام عليّ عليه السلام عدداً منهم، وأسلم آخرون، نزل اليهود على حكم النبي ﷺ، فحكم فيهم سعد - بطلب منهم - بقتل المقاتلين منهم وسي ذراريهم وأخذ أموالهم.
- يمكن استفادة دروس عدّة من هذه المعركة، منها: تضاعف قوة المسلمين المادية، النصّ على مشروعية التحكيم، توزيع السلاح على كلّ المقاتلين، وغير ذلك.

الدرس التاسع عشر

حماية المدينة وتفتيت جبهة قريش وقوّة اليهود

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف ونتائج غزوة بني المصطلق.
2. يشرح كيف قضى المسلمون على قوى اليهود الأخرى.
3. يبيّن أهم الإجراءات في ضبط الأعراب حول المدينة.

تمهيد

أمّن رسول الله ﷺ الحماية الكاملة للمدينة من الداخل، من خلال إنهاء وجود بني قريظة، نظراً لعدم وفائهم بعهدهم له ﷺ، وارتكابهم خيانة عظيمة بالتحريض ضدّ المسلمين، ومحاولة قتلهم مع الأحزاب، فكان لذلك أثرٌ مباشرٌ في حماية المدينة المنورة من الداخل.

وكان على رسول الله ﷺ استكمالاً لخطواته الأساسيّة لمحاولة تعديل موازين القوى مع قريش، وجربها للاستسلام من دون سفك الدماء، أن يستكمل حماية المدينة المنورة؛ ليستعدّ للخروج إلى قريش مطمئناً عليها. ولذا، قام بخطوات عدّة في وجه القبائل العربيّة واليهوديّة التي تتربّص بالمدينة شراً من الخارج، وقد نجح رسول الله ﷺ في تطبيق خطته، وتحقيق الأهداف المرجوة منها، واستكمل خطواته بشكل متسلسل.

غزوة بني المصطلق

1. سبب غزوة بني المصطلق:

وهي المعروفة بغزوة المريسيع، وكانت بعد الخندق وبني قريظة، في شعبان في السنة السادسة⁽¹⁾، وهي ماء لبني خزاعة، وتسمّى هذه الغزوة أيضاً بغزوة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص231، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص217، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص289، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص81، ج8، ص125، ص157، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص351، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص293.

وكان سببها أن بني المصطلق كانوا ينزلون على بئر يقال لها المريسيح، من ناحية قديد إلى الساحل. وكان سيدهم الحارث بن أبي ضرار قد دعا قومه، ومن قدر عليه من العرب، إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتجمعوا، وابتاعوا خيلاً وسلاحاً، وتهيؤوا للحرب، والمسير معه. فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي ليتحقق من ذلك، فأتاهم، ولقي الحارث، وكلمه، ومظهِراً أنه منهم، وقد سمع بجمعهم، ويريد الانضمام بقومه ومن أطاعه إليهم، وعرف منهم صدق ما بلغهم عنهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بأنهم يريدون الحرب.

لما أخبر بريدة النبي ﷺ بصحة ما بلغه، دعا ﷺ الناس فأسرعوا الخروج، وخرج معه سبعمئة، ليلتين من شعبان، وخرجت معهم زوجته، عائشة وأم سلمة، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وجعل راية المهاجرين مع عمّار بن ياسر، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة. أما لواء الجيش ورايته فقد كانا مع عليّ ﷺ؛ حيث كان صاحب لواء وراية رسول الله ﷺ في المواطن كلها، باستثناء غزوة تبوك.

وخرج معه بشر كثيرون من المنافقين، لم يخرجوا في غزوات قبلها، ولم تكن بهم رغبة في الجهاد، إلا أن يصيبوا من عرض الدنيا، ولكن قرب عليهم السفر⁽¹⁾.

2. المعركة والقتال:

سار رسول الله ﷺ باتجاه بني المصطلق، وبلغ الحارث مسير رسول الله ﷺ إليهم، وبلغه أيضاً قتل عينه الذي كان يأتيه بأخبار المسلمين، فسيء بذلك هو ومن معه. وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق الأعراب الذين كانوا معه فما بقي أحد سواهم. وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيح، وتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله ﷺ أصحابه، وأمر ﷺ أن يقال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوا»⁽²⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج1، ص407، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص297، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص92، الحلبي، السيرة الحلبية، ج2، ص279.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص65، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص215.

فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر النبي ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة واحدة، قتل منهم عشرة، قتل عليّ ﷺ منهم رجلين. وقُتل أبو قتادة صاحب لواء المشركين، وقُتل في المعركة زعيم بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار وأخوه وصهره زوج ابنته جويرة، وأسر الباقون، ولم يفلت منهم أحد. وكان الفتح ولم يُقتل من المسلمين سوى رجل واحد. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً، فوصلها لَهلال شهر رمضان المبارك⁽¹⁾.

3. نتائج غزوة بني المصطلق:

إذا كانت غزوة المريسيع قد أسفرت عن نتائج حاسمة إلى هذا الحد، فإن ذلك يعتبر ضربة موفقة ضد نفوذ قريش؛ لأنها قد جاءت في منطقة كانت تقع في نطاق النفوذ المكي.

ومن جهة ثانية، فإن الطريقة التي تمت بها هذه الضربة القاسية، والنتائج التي أسفرت عنها، لا بد أن تقنع قريشاً وغيرها بأن الوقوف في وجه الإسلام أشبه بالمستحيل.

القضاء على قوى اليهود الأخرى

تفرغ المسلمون بعد ذلك للقضاء على الخطر المحتمل من باقي قوى اليهود، لذلك قرروا التخلص منهم بإضعاف قوتهم أو القضاء عليهم، فوجهوا السرايا إليهم، ومنها:

1. سرية عليّ ﷺ إلى فدك:

كان أهل خيبر يتوقعون وقوع الحرب مع المسلمين، فأخذوا يسعون لإقامة تحالفات مع من يحيط بهم، لضمان أن يكونوا إلى جانبهم، ولتقوية موقعهم في الحرب المقبلة ضد المسلمين. والظاهر أن بني سعد بن بكر في فدك استجابوا لهذه الرغبة.

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص53، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص263، الواقدي، المغازي، ج1، ص407، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص306، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص158، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص302، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص65، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص215، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج12، ص233.

وفي شعبان، سنة ست، بلغ رسول الله ﷺ أن بني سعد هؤلاء يحشدون جمعهم، يريدون أن يمدوا يهود خيبر، وكان بين فدك وبين المدينة ست ليال، فبعث ﷺ علياً بن أبي طالب ﷺ في مئة رجل، سار إليهم الليل وكمن النهار. وفي الطريق نزل بمن معه محلاً بين خيبر وفدك، فوجدوا به رجلاً، سألوه عن القوم، فقال: «لا علم لي»، فشدوا عليه، فأقر أنه عين لهم، وأنه مرسل من قبلهم إلى خيبر، يعرض على يهودها نصرهم مقابل التمر، ثم استنطقوه عن مكان تجمعهم، فقال: «أخبركم على أن تؤمنوني»، فأمنوه، فدلهم على موضع تجمعهم.

فسار علي ﷺ بمن معه، فأغاروا عليهم، وهم غارون بين فدك وخبير، فأخذوا خمسمئة بعير، وألفي شاة، وهرب بنو سعد بالظعن، ثم عزل علي ﷺ الخمس، وقسم الباقي على السرية، وقدم بمن معه المدينة، ولم يلقوا كيداً⁽¹⁾.

2. سرية أبي عتيك إلى خيبر:

كان أبو رافع، سلام بن أبي الحقيق، اليهودي بخيبر، ممن حزب الأحزاب يوم الخندق. وقد كانت أم عبد الله بن عتيك بالرضاعة يهودية في خيبر، فكان عبد الله يرطن باليهودية، فقدمه النبي ﷺ لذلك، وأرسل معه أربعة رجال هم: عبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، وخزاعي بن الأسود، ومسعود بن سنان، وأمرهم بقتله، ونهاهم عن أن يقتلوا امرأة أو وليداً⁽²⁾، وخرجت هذه المجموعة الخاصة من المدينة حتى انتهوا إلى خيبر.

فدخلوا على أبي رافع في بيته وعلوه بأسياهم، وخلال تناوشهم بسيوفهم في العتمة، صاحت امرأة أبي رافع، ولما تصايحت امرأته تصايح أهل الدار، ولكنهم لم يفتحوا أبوابهم طويلاً خوفاً ورعباً، حتى نزل رجال المجموعة الخاصة من البيت واختبؤوا في منهر خيبر⁽³⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2 ص90، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص107، الواقدي، المغازي، ج2، ص562، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص97.

(2) الواقدي، المغازي، ج1، ص391، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص286، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص196.

(3) المنهر النافذ من خارج الحصن إلى داخله يجري منه الماء في وقته، لسان العرب، ج7، ص95.

ثم خرج اليهود وفي أيديهم النيران في شعل السعف يطلبون المسلمين وهم في بطن المنهر واليهود على ظهره فلا يرونهم. وتفرقت دورياتهم تبحث عنهم، فلم يتركوا زاوية أو مغارة أو مكاناً إلا فتشوه، سوى المكان الذي اختبأ فيه الرجال قرب البيت، ولمّا لم يجدوهم ولم يروا شيئاً رجعوا إلى امرأته.

ومكث المسلمون في مكانهم يومين حتى سكن عنهم الطلب، ثم خرجوا مقبلين إلى المدينة، فقدموا على النبي ﷺ وهو على المنبر، فلما رآهم، قال: «أفلحت الوجوه!»، فقالوا: «أفلح وجهك يا رسول الله». ثم مسح النبي ﷺ على يد ابن عتيك، فتعافت بحيث إنها لم تكن تعرف من اليد الأخرى، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة ست قبل صلح الحديبية⁽¹⁾.

ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة

في هذه الحقبة من الدعوة النبوية، وردت في كتب الأخبار والروايات الكثير من قصص السرايا التي كان يقوم بها المسلمون، فيقتلون وينهبون ويسلبون، أو يقومون ببطولات فيها الكثير من المبالغة والشطط والتناقض، من دون ذكر واضح لأسباب تلك السرية ودوافعها الأمنية والسياسية، ممّا يوحي بكثير من الشك في نسيج هذه القصص، والظن أنّها وضعت في مرحلة التزوير الأموي أو العباسي من أجل الإيحاء ببطولات قام بها بعض الأشخاص الذين أراد الحاكم أن يبيّض صفحته على صفحات التاريخ، أو للإيحاء بأن سياسة الغزو والفتوحات التي قامت بها دولة الخلفاء وتبعتها عليها الدولة الأموية، وما حصل في هذه الفتوحات من سلب ونهب وسبي، هو منهج نبوي، وأن النبي ﷺ كان يغزو الآمنين ويسلبهم وينهبهم ويسبي بناتهم وزوجاتهم ظلماً وعدواناً، ممّا حدا بنا

(1) الواقدي، المغازي، ج1، ص391، البخاري، صحيح البخاري، ج4، ص23، وج5، ص26، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص746، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج5، ص408، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص184، البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الفكر، لات، لاط، ج3، ص222، وج9، ص80، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج1، ص81، وج4، ص358، ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج2، ص465، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص156، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج15، ص17.

إلى التوقف في شأن هذه السرايا، والإشارة إليها بالعنوان لما فيها من الإشكالات الخطيرة التي تمس الشخصية النبوية ومكانتها وقداستها.

فهذه السرايا تعطي صورة مشوهة عن السرايا النبوية، فتظهر أنها كانت لرصد الآمنين، والإغارة عليهم، وقتل رجالهم، وأسر وسبي ذراريهم، ونسائهم، وغنم أموالهم، من دون أي مبرر، وهذا يتنافى مع خلقه ﷺ ومع تعاليم الدين الحنيف التي كان يدعو إليها.

فجميع الغزوات والسرايا التي يصح اعتمادها ونسبتها إلى رسول الله، إذا صحّت هذه الروايات عن حدوث هذه السرايا فعلاً، لا بد أن تكون أهدافها إما دفاعاً عن النفس، أو لردّ عدوان، أو لإحباط تدبير معاد، أو تفريق جموع الأعداء احترازاً، أو إضعاف قدرتهم على تنفيذ ما يخططون له، أو معاقبة مجرمين أو قطاع طرق، أو مفسدين في الأرض، وكل ذلك في سياق الخطوة الكبرى الآتية التي سوف يقوم بها رسول الله باتجاه قبيلة قريش، فقد كان يحتاج وهو يزعم على الشروع في إعادة ترتيب موازين القوى بعد فشل هجوم الأحزاب، وقلبها لمصلحة الإسلام، كان بحاجة إلى أن تكون الأوضاع السياسيّة والأمنيّة حول المدينة مستقرّة وهادئة، بحيث لا يفكر واحد من الأعراب بشنّ هجوم على المدينة، فلم يكن رسول الله، بما عُرف قطعاً من شخصيته، يهتمّ بشنّ الغارات على الناس الآمنين، رغبة في قتلهم، والحصول على أموالهم، وأسر واستعباد من يتمكن من أسرهم واستعبادهم. ومن تلك السرايا: سرية القرطاء، سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة، سرية «أبي عبيدة» إلى ذي القصة، سرية زيد بن حارثة إلى بني بدر، سرية زيد إلى بني سليم، وغيرها⁽¹⁾.

(1) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ج2، ص71، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص85، ابن حبان، محمد بن حبان، الثقات، مؤسسة الكتب الثقافية، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، 1393هـ، ط1، ج1، ص283، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص219، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص96، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج16، ص285، وج30، ص316، وج65، ص125، الحموي، معجم البلدان، ج4، ص366، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص157.

المفاهيم الرئيسية

- وقعت غزوة بني المصطلق - هي غزوة المريسيع، والمريسيع ماء لبني خزاعة، والمصطلق بطن من خزاعة - في السنة السادسة للهجرة.
- كان سبب هذه الغزوة أن بني المصطلق كانوا ينزلون على المريسيع، فاجتمعوا مع بعض الأعراب على قتال رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم بريدة بن الحصيب الأسلمي، فجاءه بخبرهم، وأنهم يريدون الحرب، فدعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الجهاد، وأخرج معه سبعمئة مقاتل، وخرج ليلتين من شهر شعبان.
- بعد أن سار رسول الله ﷺ خاف بنو المصطلق خوفاً شديداً، وتفرق الأعراب الذين كانوا معهم، وانتهى رسول الله ﷺ إليهم، وبعد التجهز للقتال، وقع الاشتباك بين الطرفين، فقتل منهم عشرة، وهزموا بأجمعهم، ووقعوا بأجمعهم في أسر المسلمين، ورجع النبي ﷺ إلى المدينة.
- تعدد هذه المعركة ضربة قوية لقريش، فقد كانت تقع هذه المنطقة ضمن نطاق نفوذها، وشكلت نصراً للإسلام، مدخلة الرعب في قلوب قبائل أخرى.
- عمل رسول الله ﷺ على القضاء على قوى يهودية أخرى، من خلال:
 - أ. سرية الإمام علي عليه السلام إلى فدك.
 - ب. سرية أبي عتيك إلى خيبر.
- ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة: لقد سعى النبي ﷺ لضبط الوضع العام لدى الأعراب حول المدينة المنورة، من خلال إرساله سرايا عدة، كان لكل منها هدفٌ محدّد، ولم يكن غرض النبي ﷺ من هذه السرايا أذية الناس، أو السلب والنهب، أو الإغارة على الآمنين كما صورت بعض الروايات المختلفة، وكان من جملة تلك السرايا: سرية محمد بن مسلمة، سرية أبي عبيدة، سرية زيد بن حارثة، وغيرها.

الدرس العثرون

استدراج قريش نحو صلح الحديبية (موازين القوى بين رسول الله ﷺ وقريش)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف النبي ﷺ من التوجه إلى العمرة.
2. يشرح الأحداث التي حصلت بين المسلمين وقريش على أطراف مكة.
3. يتعرف إلى أهمية وآثار ونتائج صلح الحديبية.
4. يبين الهدف من بيعة الرضوان.

تمهيد

في السنة السادسة للهجرة، شرع خاتم النبيين في تنفيذ خطته الإستراتيجية لإحداث انقلاب في موازين القوى استعداداً لشنّ الهجوم العامّ على القاعدة الأساس للشرك في الجزيرة العربيّة وعاصمة الوثنيّة في مكة، وهذه هي الخطوة الخامسة في خطته. وكانت مراحل هذه الخطّة هي: تجميد قريش أولاً، وقلب موازين القوى لمصلحة الإسلام ثانياً، ثمّ شنّ الهجوم العامّ على الشرك واستئصاله نهائياً من جزيرة العرب ثالثاً. وكان من أهم الوسائل المساعدة على ذلك إحراج قريش بقضيّة أداء مناسك الحجّ. فقريش لا يمكن لها أن تمنع أحداً من ممارسة مناسك الحجّ، فهي المدافعة عن ذلك، وهي التي ترعى شؤون الحجيج في كلّ سنة، وبهذه الوسيلة يمكن لرسول الله ﷺ أن يخرج قريشاً؛ فإمّا أن تسمح له مباشرة بدخول الكعبة حاجاً، وإمّا أن تضطرّ للتفاوض معه خوفاً من وقوع الحرب بين الطرفين. وبهذه الخطوة، استطاع رسول الله ﷺ أن يجرّ قريشاً إلى الصلح وإعلان الهدنة بين الطرفين.

إعلان التوجّه إلى العمرة

أراد الله عزّ وجلّ أن يطمئن النبي ﷺ، وحتى لا يشكّ أحدٌ من الصحابة بالفتح، فرأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه⁽¹⁾، عندئذ اتّخذ النبي ﷺ قراره بأداء العمرة، وأخبر

(1) مجاهد بن جبر، تفسير مجاهد، تحقيق: عبد الرحمن طاهر بن محمد السورتى، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، لات، لا، ط، ج2، ص603، النحاس، أحمد بن محمد، معاني القرآن الكريم، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة القرى، المملكة العربية السعودية، 1409 هـ ط1، ج6، ص511، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص33.

أصحابه بذلك، وأمرهم بالخروج. وذاع خبر الرؤيا المباركة مع القرار، ففرح أصحابه ﷺ بما رأى، وظنوا أنهم يدخلون مكة في عامهم ذلك.

إن رؤيا رسول الله ﷺ كانت مصدر الانعطاف الكبير في حياة الإسلام، والذي سوف يغيّر وجه التاريخ، وانتشر الخبر في المدينة وجوارها، وأرسل رسول الله ﷺ الوفود إلى غير المسلمين يدعوهم إلى الخروج معه. وخرج من المدينة يوم الاثنين لهلال ذي القعدة، وكان المسلمون ألفاً وأربعمئة⁽¹⁾. أعلن النبي ﷺ أنه سيذهب إلى مكة معتمراً لا غازياً ولا محارباً، وترك عيون قريش وجواسيسها ينقلون إليها نيته المعلنة.

وأعطى النبي ﷺ لواءه لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج معه المسلمون، وساق الهدى معه، حتى وصلوا إلى ذي الحليفة⁽²⁾، فأحرم المسلمون ملبين بالعمرة مشعرين⁽³⁾.

وإنما ساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة؛ ليُعلم الناس أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له، فيأمن الناس من حربه. وكان في طريقه يستنفر العرب، ومن حوله من أهل البوادي ومن الأعراب في ما بين المدينة إلى مكة. ودعا رسول الله ﷺ بشر بن سفيان الكعبي ليستطلع له خبر قريش⁽⁴⁾.

استعداد قريش للحرب

بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ فراعهم ذلك، ولم يستقبلوا الأمر كما يستقبلون

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص179، خليفة بن خياط العسقري، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، لات، لاط، ص48 و49، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص203، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص322، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص171، ص271، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص114.

(2) ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه لأداء المناسك الحج.

(3) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص108، الحموي، معجم البلدان، ج5، ص155، الواقدي، المغازي، ج2، ص573، الحميري، عبدالله بن جعفر، قرب الإسناد، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إيران، 1413هـ ط1، ص59.

(4) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص322، الشيخ الطبرسي، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، 1418هـ ط1، ج1، ص627، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص240، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص66، ص114.

الحجاج؛ فاجتمعوا وتشاوروا، وأجمعوا على صده ﷺ عن المسجد الحرام، وقطع الطريق عليه قبل دخوله مكة. فقدّموا على خيلهم خالد بن الوليد، ووضعوا العيون على الجبال. ولمّا وصل رسول الله ﷺ إلى غدير الأشاط، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، وقد علم خبر مكة والقوم، فقرر رسول الله ﷺ تغيير طريق القافلة؛ لكي لا يقع قتال معهم في الأشهر الحرم، فتستثمر قريش هذا الموقف سياسياً، فأخذ طريقاً وعرّاً، والتفّ بذلك حول كتيبة خالد، فلمّا رأت خيل قريش قفرة الجيش، وأنّ المسلمين قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش⁽¹⁾. ثمّ نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية⁽²⁾.

المفاوضات وتبادل الرسل

استقرّ رسول الله ﷺ بالحديبية، ونصب المسلمون خيامهم، وتوزّعوا على حراسة مداخل ومخارج المعسكر. ولم يكن ﷺ بعجلة من أمره، وهو ينتظر الخطوات التي سوف تُقدم عليها قريش، فهي محرّجة قطعاً، وتبحث عن مخرج. ولم يمضِ اليوم الأوّل إلاّ وجاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، منهم المسلم، ومنهم الموادع. ولعلّ رسول الله ﷺ هو الذي أرسل وراءهم لكي يقوموا بدور الوسيط بينه وبين قريش، فطرح رسول الله ﷺ أصل مشروعه السياسيّ، وهو دعوة قريش إلى الهدنة، فوعى بديل مقالة رسول الله، وخرج إلى قريش مبلّغاً الرسالة، فرفضت الاستماع إليه. وصادف أن كان مجيء عروة بن مسعود الثقفيّ إلى مكة، فشاهد استنفار قريش، وعدم استماعها لرسالة النبيّ ﷺ، فاستغرب هذا الموقف، وحاول إقناع قريش بالاستماع لرسالة النبيّ ﷺ، فرفضت قريش وقررت أن ترسله إلى رسول الله ﷺ، فجاء حتّى وصل إلى معسكر

(1) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج3، ص321، الواقدي، المغازي، ج2، ص517، الطبري، جامع البيان، ج26، ص124، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص200، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص270، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص37، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القميّ، ج2، ص310.

(2) الحديبية، بتخفيف الياء، تصغير حذاء، اسم بئر أو شجرة، سمي باسمها المكان الذي تقع فيه، قرية بقرب مكة على طريق جدّة دون مرحلة. ثمّ أطلق على الموضوع فسميت المنطقة على اسمه. وهذا المكان يقع على أطراف مكة، وهو أبعد أطراف الحرم عن البيت، ويقال إن بعضه في الحرم وبعضه في الحل. وأكثرها واقع في الحرم، وهناك المسجد المعروف بمسجد الشجرة، الحموي، معجم البلدان، ج2، ص229.

المسلمين، فأظهر له رسول الله الهدي، وأعلمهم بأنه إنما جاء لقضاء نسكه وزيارة البيت، فرجع عروة إلى قريش مبهوراً بشخصية النبي، وعمق العلاقة بينه وبين أصحابه، وأطلع قريش على حقيقة موقف النبي والغاية من قدومه. ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه بنحو ما كلم به بديلاً وعروة، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بما ردّ عليه رسول الله (1) ﷺ.

لقد كان رسول الله ﷺ حازماً في موقفه، يطالب بحق يقرب له به الجميع ألا وهو زيارة البيت، بينما كان موقف قريش مخالفاً لكل الأعراف السياسية والدينية في استقبال الناس لأداء مناسك الحج. والذي زاد في إضعاف موقف قريش الصورة التي نقلها عروة بن مسعود الثقفي عن طاعة أصحاب النبي ﷺ له، وتعظيمهم إيّاه. وسرعان ما ظهرت نتيجة صلابته وحزمه ﷺ، فقد كسب إلى جانبه رجالاً كباراً في قومهم كانوا في صف قريش، وأخذوا يسعون لإقناع قريش بقبول عروض النبي ﷺ، فتصدت صفوف المشركين من قريش، وظهر الخلاف العميق في ما بينهم.

خطة عمل النبي ﷺ

لقد أدى امتناع قريش عن الاستماع لنصائح الرسل التي أرسلتهم إلى ضرورة المبادرة من قبل النبي ﷺ لكسر هذا الجمود أمام الملأ في مكة. وكان أول من بعث رسول الله ﷺ إلى قريش خراش بن أمية، فقد دعاه رسول الله ﷺ وحمله على بغير له؛ ليبلغ أشراف قريش عن رسول الله ﷺ بما جاء به، إلا أنّ قريشاً تصرّفت خلاف الأعراف والسنن السائدة، فعقرت ناقة النبي ﷺ، وحاولت قتل خراش الذي عاد إلى رسول الله ﷺ وأطلعه على الواقع.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص593، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص274، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص145، الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص323، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص95، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص778، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص190، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص316، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص43.

لذلك دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى قريش، ولكن عمر رفض طلب النبي، واقترح عليه إرسال عثمان بن عفان لعصبته وكونه أمويًا، فبنو أمية بقيادة أبي سفيان هم الذين يقودون الحرب ضد الإسلام، فكان عثمان هو المناسب لإقامة الحوار الذي تنتظره قريش، فقبل رسول الله ﷺ بذلك.

انطلق عثمان إلى مكة، وأتى أشراف قريش، وأعلمهم بما أرسله به رسول الله، والظاهر أنهم أضافوه عندهم فطاف بالبيت، وأقام في مكة ثلاثة أيام يدعو قريشاً⁽¹⁾.

قريش تفجّر الموقف

في خطوة مفاجئة من قريش لمحاولة إشعال فتيل الحرب بعثت أربعين رجلاً، وأمرتهم أن يطوفوا بالنبي ﷺ والمسلمين رجاءً أن يصيبوا منهم أحداً. وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحراسة في الليل، ف وقعت تلك القوة كاملة بأيدي المسلمين بقيادة الإمام عليّ ع⁽²⁾، وجاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ. وبلغ قريشاً حبس أصحابهم، ف جاء جمع منهم إلى النبي ﷺ، حتى تراموا بالنبل والحجارة، وأسر المسلمون من المشركين اثني عشر فارساً، وقتل من المسلمين واحد فقط.

وكان عشرة من المسلمين دخلوا إلى أهاليهم في مكة بإذن رسول الله ﷺ، فنمي أمرهم إلى قريش⁽³⁾، فأخذتهم وحبستهم عندها، وبهذا وصلت الأمور إلى حافة الانفجار.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص325، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص70، الطبري، جامع البيان ج26، ص111، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص200، ابن حبان، الثقات، ج1، ص299، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج39، ص78، الواقدي، المغازي، ج2، ص600، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص278، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص191، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص780، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص318، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص46، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص119.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص119، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص358.

(3) الواقدي، المغازي، ج2، ص603، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص278، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص48، الطبري، جامع البيان، ج26، ص122، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص281، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص207.

قبول قريش بأصل التفاوض

لقد جعلت كل هذه الأحداث القرشيين يراجعون مواقفهم المتصلبة، ورأوا قريش أن من الخير لهم أن يصلحوا محمداً ﷺ، وأن يقبلوا بما يعرضه عليهم من مدة يأمن فيها الناس، ولكن في مقابل أن ينصرف عن مكة هذا العام، ويعود في العام المقبل حتى لا تظن العرب أن محمداً قد دخل مكة عنوة، وبعثوا سهيل بن عمرو وآخرين لعقد الاتفاق. وصل سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، وبين أسباب الخطأ الذي حصل بالاقتيال بين المسلمين وتلك القوة من قريش، وطالبه بأن يرد عليه أصحابه، فرفض رسول الله ﷺ ذلك حتى يرسل إليه أصحابه من المسلمين، فأرسل سهيل إلى قريش، يطالبها بفك سراح الأسرى. وعندما علم رسول الله ﷺ بأن قريشاً أطلقت أسرى المسلمين أرسل أصحابهم من المشركين.

وشرع سهيل في محادثات الصلح، وجلس رسول الله ﷺ متربعا، فبرك سهيل على ركبتيه، وكلم رسول الله ﷺ فأطال الكلام وتراجعا، وارتفعت الأصوات وانخفضت، والمسلمون حول رسول الله ﷺ جلوس. وبعد نقاش وحوار طويل بين الطرفين، رجع سهيل إلى قريش بأمر الصلح، وتم توقيع معاهدة الصلح⁽¹⁾.

كتابة معاهدة صلح الحديبية

دعا رسول الله ﷺ علياً ﷺ لكتابة الصلح، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». قال سهيل: «أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم»، فقال علي ﷺ للنبي ﷺ: «لولا طاعتك لما محوتها». ثم قال رسول الله: «واكتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سهيل بن عمرو»، فكتبها علي ﷺ. فقال سهيل: «فعلام نقاتلك يا محمد؟! لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، وأتبعتك». وقال سهيل لعلي ﷺ: «لو نعلم أنه رسول الله ما قاتلناه، امحها!!»، فغضب علي ﷺ ورفض طلب سهيل بالمحو وقال له: «هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، ولا والله لا أمحوها».

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج8، ص268، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص45، ابن أبي شيبة الكوفي، عبد الله بن محمد، المصنف، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1989م، ط1، ج14، ص436، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص221، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص205، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص314، الواقدي، المغازي، ج2، ص610.

واحتدم الجدل بين عليّ عليه السلام وبين سهيل بن عمرو، فأثار ذلك حفيظة المسلمين، وضجوا، حتى ارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج. فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم، ويومئ بيده إليهم، أن اسكتوا! ثم قال رسول الله لعليّ: «أرنيه»، فأراه إيّاه، فمحا رسول الله ﷺ بيده. وهكذا تغلب رسول الله على مشكلتين شكليتين كادت أن تنسفا المفاوضات كلها، وأن تضيّعا الفرصة الذهبية، وتمم الكتاب⁽¹⁾، وأخذ كل طرف نسخة من الاتفاق. وكان من أهم بنوده:

1. وضع الحرب بينهم عشر سنين.
2. إنَّ محمّداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه فلا يدخل عليهم مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها فدخلها بأصحابه؛ فيقيم فيها ثلاثة أيام من دون سلاح إلا سلاح المسافر، وأن ترفع الأصنام.
3. من أتى محمّداً من قريش من دون إذن وليه وإن كان على دينه ردّه إليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يرّدوه عليه.
4. لا يستكره أحد على ترك دينه، وأن يكون الإسلام ظاهراً في مكة، وأن لا يؤذى أحد ولا يعيّر.
5. من أحبّ من المشركين أن يدخل في عهد محمّد كان له ذلك، ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش دخل فيه⁽²⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص 118، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص 210، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص350، أمالي الشيخ الطوسي، ج187، ص315، وفي علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص313، والشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص204 و372، وقطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائح، ج1، ص116، وخصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام للنسائي، ص149، صحيح البخاري، ج5، ص357، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج4، ص328، و86 و5 و23.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص612، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص117، العياشي، تفسير العياشي، ج1، ص70، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص97، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص350، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص782، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص64، ابن البطريق، يحيى بن الحسن، عمدة يعون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدّسة، 1407 هـ، لا ط، ص163، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج4، ص325، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمّي، ج2، ص314، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص211، ابن حبان، الثقات، ج1، ص301، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص373، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص691، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص179، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص54، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج16، ص9.

نتائج صلح الحديبية

1. لقد فتح هذا الصلح الباب على مصراعيه لنشر الدعوة الإسلامية بين العرب وغيرهم، بالإضافة إلى سماحه بعقد التحالفات والاتفاقيات مع أي جهة كانت. ورؤي عن أهل البيت عليهم السلام: «فما انقضت تلك المدّة (وهي سنتا الهدنة) حتّى كاد الإسلام يستولي على أهل مكّة»⁽¹⁾.
2. إنّ تحديد مدّة الصلح بعشر سنين غير ملزم مطلقاً، فلو أنّ قريشاً أخلت بالاتفاق، فإنّ النبيّ سوف يكون بحلٍّ منه، ويحقّ له التصرف بما يريد.
3. لم يكن رجوع الرسول صلى الله عليه وآله هذا العام على أن يعود العام المقبل بنداً سلبياً؛ لأنّ العمرة سبب للمصالحة وطريقٌ إليها، وهي اعتراف من قريش بأحقية المسلمين بممارسة شعائرهم الدينية كغيرهم من العرب.
4. إنّ حرّية الرجوع إلى دين قريش فيه مصلحة الإسلام، فهو يفتح المجال لرجوع المنافقين، وفي المقابل بقاء المسلمين في مكّة يعني بداية ظهور الإسلام فيها، تمهيداً لفتحها.
5. إنّ وضع الحرب سوف يتيح للنبيّ صلى الله عليه وآله الفرصة لتصفية الوجود اليهودي في الجزيرة.
6. أعطى الصلح فرصة لانضمام خزاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذا يشكّل اختراقاً لقريش.

بيعة الرضوان (تجديد الولاء والعهد)

لقد ظهرت خلال هذه الرحلة التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وآله بعض حالات الاعتراض والتشكيك، واهتزّت صفوف أصحاب رسول الله بعد صلح الحديبية، وظهر حجم الارتياح والشك، وأنّ القوم ما زال ينقصهم الكثير من تعميق الإيمان في نفوسهم، خصوصاً أنّ بعضهم كان يرى أنّ بنود الاتفاق تصبّ في صالح قريش لا صالح المسلمين.

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص205، الكليني، الكافي، ج8، ص326، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص344، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج20، ص363.

ولكي لا تستمرّ حالة التزلزل هذه، ولا تؤدّي إلى الفرار وترك الإسلام، توهمًا أنّ ما جرى هو تنازل أساسي لقريش، وأن قريشًا هي المنتصرة في هذا الصلح، نزل الأمر الإلهي على قلب رسول الله يدعو إلى أخذ البيعة، ولذلك بادر ﷺ إلى دعوة المسلمين إلى البيعة على عدم الفرار، فنادى منادي النبي: «أيها الناس، البيعة البيعة، إنّ روح القدس قد نزل وأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله فبايعوا»، فساروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعوه، ولم يتخلف عنه إلا بعض المنافقين، ومن كان ما زال في مكة.

وطرح عليّ عليه السلام ثوبًا بينه وبين النساء، فبايعنه بمسح الثوب، ورسول الله يمسح الثوب ممّا يليه⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص604، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص119، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص632، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص330.

المفاهيم الرئيسية

- لقد رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه، وذاع خبر الرؤيا بين جميع المسلمين، وقد شكلت هذه الرؤيا بداية انعطافة كبيرة في صفوف المسلمين.
- أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للخروج إلى العمرة، فخرج ومعه ألف وأربعمائة مقاتل، وساق معه الهدى، وأحرم للعمرة؛ ليُعلم صدق نيته وتوجهه. وكان في طريقه يستنفر من لقيه من عرب البوادي والأعراب.
- بلغ المشركين مجيء رسول الله ﷺ معتمراً، فراعهم ذلك، واجتمعوا لأخذ القرار الذي يناسبهم، فقرروا صدّ النبي ﷺ والمسلمين عن البيت الحرام، وقدموا على خيلهم خالد بن الوليد، ووضعوا العيون على الجبال. وعلم رسول الله ﷺ بذلك فغيّر طريقه لكي لا يقع قتال مع قريش، حتّى نزل الحديبية.
- بعد استقرار النبي ﷺ في الحديبية بدأت المفاوضات بينه وبين وفود قريش، وأظهر رسول الله ﷺ حقيقته مجيئه، وحاول ﷺ إرسال وفود عدّة من قبله لتهدئة الأوضاع إلا أن تعنت قريش منعها عن التنازل.
- قررت قريش القبول بأصل التفاوض، فأرسلت مبعوثها سهيل بن عمرو. وبعد التفاوض مع رسول الله ﷺ اتفق الطرفان على عقد اتفاق عُرف بصلح الحديبية.
- كان لصلح الحديبية بنود عدّة، شكلت مفصلاً مهماً في الدعوة الإسلامية، منها وضع الحرب لمدة عشر سنوات، ولا يُستكره أحد على دينه، وأن يبقى مسلمو مكة فيها، وغيرها.
- إن لصلح الحديبية نتائج عدّة منها: سمح الصلح بنشر الدعوة الإسلامية، من دون أي معارضة. وقد علّق الاتفاق على عدم حصول خرق من قبل أحد الطرفين. وكانت العمرة سبباً للمصالحة، مع حرية إظهار دين الإسلام في مكة المكرمة.
- عقد رسول الله ﷺ مع المسلمين بيعة الرضوان بعد حصول تشكيكات من قبل البعض.

الدرس الواحد والعشرون

استثمار صلح الحديبية باتّجاه قلب موازين القوى (فتح خيبر - يهود فدك - أم القرى وتيماء)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح خطة المسلمين في معركة فتح خيبر.
2. يعرف أسباب وآثار انتصار المسلمين في خيبر.
3. يتعرّف إلى مصير يهود فدك ووادي القرى وتيماء.

تمهيد

إنَّ دخول قريش في عقد الصلح مع رسول الله ﷺ فتح أمام الإسلام الطريق إلى الدخول إلى مكة المكرمة بموافقة صريحة منها، وذلك عندما وافقت قريش أن يمارس المسلمون في مكة دينهم بشكل علني. وقد كان لصلح الحديبية النتائج الطيبة التي أرخت ذيولها على مستقبل الدعوة الإسلامية.

وبعد إنهاء قوة قريش بصورة سلمية دون قتال، تفرَّغ رسول الله ﷺ لإكمال خطته المتقدِّمة اتِّجاه تأمين محيط المدينة المنورة، وليعمل على نشر الإسلام بشكل أسرع بين القبائل العربية المنتشرة خارج المدينة المنورة.

ولذا، عمل رسول الله ﷺ على كسر شوكة القبائل اليهودية المنتشرة خارج المدينة، والتي من القويِّ جداً أن تقوم بالالتفاف على الإسلام مرّة أخرى مساندةً قريشاً في الوقوف في وجه الإسلام، أو أن تقوم هي بنفسها بمحاربة الإسلام والمسلمين، فخرج رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر، وفدك وتيماء، وغيرهم.

فتح خيبر

1. يهود خيبر:

وعد الله عزَّ وجلَّ رسوله بخيبر وهو بالحديبية، عندما نزلت عليه سورة الفتح، وبعد أن آمن رسول الله ﷺ جانب قريش، تفرَّغ لحرب يهود خيبر الذين جهَّزوا جيش الأحزاب ضده، واستمروا في حربه منذ وصوله إلى المدينة، وكانوا قد سكنوا خيبر، وبنوا فيها سبع قلاع، وثمانية حصون قويّة، وكانت التربة والمناخ في تلك المنطقة قد جعلت منها مكاناً

صالحًا للزراعة، وحصل سكانها على مهارة كبرى في أمور الزراعة، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال وإعداد السلاح. وكانوا لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمعتهم، وحصونهم، وسلاحهم، وعددهم⁽¹⁾.

2. الخطة العسكرية لفتح خيبر:

توجه رسول الله ﷺ إلى حرب اليهود في خيبر آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية في محرم سنة سبع⁽²⁾، وأمر أصحابه بالخروج فجداً في ذلك، واستنفروا من حوله ممن شهد الحديبية، يغزون معه، وانتشر الخبر بين الناس، فجاء المخلفون من الأعراب؛ ممن تخلف عن الذهاب معه إلى الحديبية، للانضمام إليه في غزو خيبر رجاء الغنيمة. ولمنعهم من ممارسة هذا العمل، قرّر رسول الله ﷺ حرمانهم، وتخصيص أهل الحديبية بالغنائم، حتى يشعر هؤلاء بالعرّة والكرامة، ويشعر المتخلفون بالخزي والذنب.

واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، ودفع لواءه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان أبيض، وأمره بالتوجه إلى خيبر. ولكي تُسرّع الإبل في سيرها، أذن لأحد أصحابه أن يحدو بالإبل، لأن الإبل تُستحث بالحداء، فقطع المسافة بين المدينة وخيبر بثلاثة أيام.

وأرسل عبد الله بن أبي بن سلول، شيخ المنافقين في المدينة، إلى اليهود يخبرهم بخروج المسلمين إليهم، فلما علموا بذلك أرسلوا وفدًا إلى غطفان يستمدونهم⁽³⁾.

3. الحركة العسكرية للجيش الإسلامي:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمئة مقاتل. وسار الجيش

(1) الواقي، المغازي، ج2، ص637، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص106، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص118، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص207.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص56، سيرة ابن هشام، ج3، ص342، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص37، ابن سيد الناس، عيون الأثر ج2، ص133.

(3) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، مصدر سابق، ج4، ص364، ج5، ص116.

الإسلامي في صدور الأودية، حتى يتحاشى الظهور على قمم الجبال، وعلى جوانبها التي تظهر لعيون خيبر، وجاءهم رسول الله ﷺ بجيشه من جهة الشمال الشرقي، فقطع الطريق بينهم وبين الشام، وهي الجهة التي يمكن مباغته خيبر منها، وقطع الإمداد من جهة غطفان؛ لأن اليهود كانوا يتوقعون الغزو من جهة الجنوب، فكانت عيونهم ومراصدهم تكثف سهرها هناك، وأمّا جهة الشمال، أي جهة الشام، فقد كانت آمنة بنظرهم، ولا تحتاج إلى الرصد والمراقبة.

وحاول رسول الله ﷺ أن يثني غطفان عن الوقوف إلى جانب اليهود، فأرسل إليهم أن لا يعينوهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً، إلا أنهم جمعوا لهم أربعة آلاف مقاتل، ثم خرجوا ليعاونوا اليهود عليه، فسار رسول الله ﷺ في طريق يصل إلى مساكن غطفان. وعندما نزل الجيش الإسلامي بالرجيع، ارتفعت الأصوات والصياح في مساكن غطفان، فخافت هذه القبيلة وفضلت أولادها ونساءها على تمر خيبر، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

ولمّا أشرف رسول الله ﷺ على خيبر، وكان وقت الصبح، قال لأصحابه: «قفوا»، فوقفوا. ثمّ توجّه إلى الله تعالى، فقال: «اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين السبع وما أقلن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، فإنّا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها. أقدموا باسم الله».

وكانت خيبر تنقسم إلى ثلاثة محاور: محور حصون النطاة، ومحور حصون الشق، ومحور حصون الكتيبة بما في كلّ حصن من بروج، وكانت مشيّدّة بحيث يسيطر سكانها على خارج الحصن سيطرة كاملة، عن طريق المجانيق⁽¹⁾، وغيرها من آلات الرمي⁽²⁾.

(1) وهي أجهزة حديدية تقذف الحجر أو الحديد.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص216، ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص330، الواقدي، المغازي، ج2، ص642، البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا، ج6، ص472، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص200، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص254، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص118، المفيد، محمد بن محمد، المزار، تحقيق: السيد محمد باقر الأبّطحي، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص52.

احتلال النقاط والطرق الهامة ليلاً:

كان القرار النبوي أن يفتح المسلمون خيبر حصناً حصناً، ولهذا فإن أول عمل قام به رسول الله ﷺ وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الهامة ليلاً، وتقطيع أوصال خيبر ومنع اليهود من التواصل في ما بينهم. وقد تم هذا العمل بسرعة؛ لأن أخبار الرسول ﷺ قد عميت عليهم، حيث إنهم لما كانت صبيحة تلك الليلة خرجوا وفتحوا حصونهم، غادين إلى مزارعهم، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ، وفوجئوا بالمسلمين وقد احتلوا جميع النقاط الهامة، أفرعهم ذلك وخافوا خوفاً شديداً، فولوا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله ﷺ وقد رفع يديه: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾»⁽¹⁾.

والمستفاد من المصادر التاريخية هو أن المسلمين حاصروا القلاع والحصون حصناً تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون الأخرى. ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء؛ لأنها كانت مرتبطة ببعضها بعضاً ارتباطاً وثيقاً، وكان آخر حصونهم القموص، وقد حاصره رسول الله ﷺ قريباً من عشرين ليلة. وخلال ذلك الحصار، كان المسلمون قد أحرقوا الحصن، وقد تصاعد منه الدخان الكثيف بسبب الأخشاب، فأصيب عليّ ﷺ برمد في عينيه، ولم يتمكن المسلمون أيضاً من مواصلة القتال، وعجزوا عن مقاومة اليهود، وخصوصاً مرحب، فالتجؤوا إلى النبي ﷺ وشكوا ذلك إليه، وسألوه أن يُخرج علياً ﷺ لمرحب⁽²⁾.

4. محاولة الصمود:

لما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة، وأصبح الناس، وتجمّعوا حول رسول الله ﷺ، وقام النبي ﷺ، فوعظ الناس، ثم دعا باللواء وقال: «لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب

(1) سورة الصافات، الآية 177.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص637، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص106، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص207، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص4، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم ج3، ص1426، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص123.

الله ورسوله» فاستشرف لها من استشرف، فدعا رسول الله علياً عليه السلام⁽¹⁾، وقال: «أين علي عليه السلام؟!»، فقالوا: «يشتكي عينيه»، قال: «فأرسلوا إليه! أرونيه، تروني رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». فلما جاء عليه السلام قال له رسول الله ﷺ: «ما لك؟»، قال: «رمدت حتى لا أبصر ما قدامي». قال: «ادن مني»، فوضع علي عليه السلام رأسه عند حجره، وبزق رسول الله ﷺ في آية يده، فذلك بها عيني علي عليه السلام⁽²⁾، فبرئ وعوفي من ساعته، ثم دعا له رسول الله ﷺ بخير، وألبسه درعه الحديد، وشدّ ذا الفقار في وسطه، ثم أعطاه الراية⁽³⁾، فخرج علي وهو يهرول هرولة، والمسلمون خلفه، حتى ركزها تحت الحصن عند الباب، فأطلع يهودي من رأس الحصن، فقال: «من أنت؟»، قال: «أنا علي بن أبي طالب»، فقال لليهودي: «غلبتهم، والذي أنزل التوراة على موسى». فتقدم إلى علي عليه السلام الحارث أبو زينب، أخو مرحب، في كتيبة من رجاله، فقتله وفرقهم⁽⁴⁾.

5. الإمام علي عليه السلام يفتح خيبر:

غضب مرحب لمقتل أخيه، وخرج سريعاً من الحصن، فخرج إليه الإمام علي عليه السلام، ولما بصر به مرحب يسرع إليه فلم يره يعبأ به، أنكر ذلك، وأحجم عنه، فحملت اليهود على علي عليه السلام ومرحب على رأسهم، فجعللا يقتتلان، ثم حمل عليه علي عليه السلام فبدره بضربة على هامته، ففلقت رأسه⁽⁵⁾، وسقط من الضربة لوجهه، فانهزم اليهود بين يديه،

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص30، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص126، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص201، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج42، ص93.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1، ص331، النسائي، خصائص أمير المؤمنين، ص8، محب الدين الطبري، ذخائر العقبي ص87.

(3) الحراني، الحسن بن شعبة، تحف العقول، ص346، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص220، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص124.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص798، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الجمل، الناشر: مكتبة الداوري - قم - إيران، لات، لاط، ص196، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص128، ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص153، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص57، ابن حبان، الثقات، ج2، ص13، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج42، ص89، ابن كثير، البداية النهاية، ج4، ص112، ج7، ص373.

(5) الواقدي، المغازي، ج2، ص657، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص157، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص30، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص185، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص38.

وفروا من فورهم، يقولون: «قتل مرحب». ولجؤوا إلى الحصن، وبقي جماعة، فحمل عليهم عليٌّ عليه السلام فقاتلهم حتى قتلهم جميعاً. وكان هناك خندق، فلم يستطع المسلمون عبوره معه، وكان باب الحصن حجراً منقوراً في صخر، فتقدم الإمام عليٌّ عليه السلام إلى الباب وجذبه إليه، فانهار الصخر المنقور، وفتح الباب، ثم جعله قنطرة على الخندق حتى دخل المسلمون الحصن، وبعث عليٌّ عليه السلام رجلاً يبشر النبي ﷺ بالنصر على اليهود⁽¹⁾.

أسباب انتصار المسلمين في خيبر

1. التخطيط النبوي والتكتيك العسكري الدقيق: لقد سلك المسلمون طريقاً قطعوا به ارتباط اليهود بأصدقائهم مع غطفان. وأحدث إظهار القوة أمام غطفان والنزول قرب منازلها، الرعب في قلوبهم، كذلك قطع جيش المسلمين طرق الإمداد الشمالية على خيبر، والتف حولها بحيث عمى على عيونها واستطلاعاتها. وكان للمباغثة، ومفاجأة العدو ليلاً، دور كبير في إيقاع الرعب والخوف في قلوبهم، ثم في حرمانهم من التخطيط والتفكير السليم بالحرب، والمبادرة إلى الهجوم.
2. تحصيل المعلومات حول العدو: بعث رسول الله ﷺ قبل محاصرة «خيبر» طليعة من المسلمين، ووجههم إلى «خيبر»، فالتقوا بيهودي قرب حصونها، فأسر وأخذ إلى النبي ﷺ، وأخذ منه رسول الله ﷺ الكثير من المعلومات عنهم، مما ساعده في فتح حصونهم.
3. تفاني الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: قال الإمام علي عليه السلام: «إننا وردنا مع رسول الله ﷺ خيبر، على رجال من اليهود وفرسانها، من قريش وغيرها. . . فأنهضني رسول الله ﷺ إلى دارهم، فلم يبرز إليّ منهم أحد إلا قتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته، ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته، حتى أدخلتهم جوف مدينتهم، مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي، حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي. . . حتى افتحتها وحدي، ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده»⁽²⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص654، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص4، ابن شعبة الحرائي، تحف العقول، ص346، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج17، ص67، ج18، ص7.

(2) الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص16، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص62، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص307.

آثار ونتائج فتح خيبر

لقد كان فتح خيبر حدثاً مفصلياً في تاريخ الإسلام والدعوة النبوية، وكانت لذلك آثار ونتائج أهمها:

أولاً: بعث اليأس في قلوب كل القوى المناوئة للإسلام في شبه الجزيرة العربية كلها، من أن تستطيع بعد هذا اليوم إحراز أي نصر عليه.

ثانياً: سوف تعلم قريش أن الإسلام قد وصل إلى نقطة من الثبات والقوة، وبالتالي فإن عليها أن تحرص على تنفيذ بنود عهد الحديبية، ولا تنقضه بحال.

ثالثاً: تضاعفت قوة ونفوذ المسلمين، سياسياً، واقتصادياً، وعددياً، وقدرة على استقطاب الناس وجذب الحلفاء، وأصبحوا هم القوة الطاردة في المنطقة بأسرها.

رابعاً: تخلص المسلمون من اليهود، كقوة تملك مالا وثقافة وسطوة تستطيع بها أن تثير الفتن والشبهات والشكوك، وتحوك الدسائس والمؤامرات على الإسلام.

يهود فدك ووادي القرى وتيماء

لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، واستمرراً لسياسة السيطرة على مواضع القوة اليهودية في شبه الجزيرة العربية، فقد أرسل سرية بقيادة أسامة بن زيد إلى يهود فدك ووادي القرى وتيماء، ليدعوهم إلى الإسلام. وكان رجل من اليهود يقال له نهيك بن مرداس، من أهل فدك، وكان مسلماً، ولم يُسلم من قومه غيره، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ؛ فألجأ غنمه إلى عال من الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فكبر ونزل، وهو يقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله. السلام عليكم»، فقتله أسامة، واستاق الغنم.

ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فوجد من ذلك وجداً شديداً، وقال لأسامة: «أقتلته إرادة ما معه؟! لا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في قلبه علمت». فقال أسامة:

«يا رسول الله، استغفر لي، فقال رسول الله: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!»⁽¹⁾.

(1) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1 ص272، الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1983، ط2، ج4 ص307، البيهقي، السنن الكبرى، ج4، ص115، ابن أبي شيبة، المصنف، ج6، ص577.

وبعد التصرف غير المقبول الذي قام به أسامة، أراد النبي ﷺ أن يبعث قوة عسكرية إلى حواط فذك. وكان يهود فذك قد سمعوا ما حلّ برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة، ويفاضونه على تنازلهم عن الأرض، وما يملكون مقابل حقه ﷺ دماءهم، فصالحهم رسول الله على أن يحقن دماءهم، وأتفق معهم على بقائهم في الأرض يعملون فيها بنصف الناتج. فكانت حواط فذك لرسول الله ﷺ ملكاً خاصاً خالصاً له ﷺ بحكم القرآن الكريم؛ لأنها ممّا لم يوجف عليه بخيل ولا سلاح بعد استسلام أهاليها للنبي ﷺ. ونزل جبرئيل وقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك أن تؤتي ذا القربى حقه». قال: «يا جبرئيل، ومن قرباي؟! وما حقها؟!»، قال: «فاطمة، فأعطها حواط فذك، وما لله ولرسوله فيها». فدعا رسول الله ﷺ ابنته الصديقة فاطمة الزهراء، وكتب لها كتاباً، ووهبها بأمر من الله تعالى فذكاً، وقال لها: «يا فاطمة، إنّ الله تعالى أمرني أن أدفع إليك فذكاً»، فقالت: «قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك، فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله ﷺ»⁽¹⁾.

وأما وادي القرى فقد بقيت عاصية، فتوجّه إليها الرسول ﷺ، وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، ولكنهم أصرّوا على القتال، وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة، وشدّد الحصار عليهم حتّى فتح بلدهم عنوة، وبقي أربعة أيام قسّم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها. ولمّا بلغت يهود تيماء أبناء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم⁽²⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص90، السمهودي، وفاء الوفاء، ج3، ص1280، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج30، ص300، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص219، الواقدي، المغازي، ج2، ص706، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج3، ص411، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج4، ص148، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج4، ص37.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص709، البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، نشر وإلحاق وفهرسة: الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1956م، لاط، ج1، ص39، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص151، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص148 و149.

المفاهيم الرئيسية

- بعد أن آمن رسول الله ﷺ جانب قريش، توجه لقتال يهود خيبر، فاستنفر من حوله من الأعراب.
- خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر وجاءهم من جهة الشمال الشرقي، ليقطع بينهم وبين الشام، وقطع الإمداد عنهم من جهة غطفان. وسار ﷺ بالقرب من مساكن غطفان، فخاف أهل القبيلة، وخلوا بينه وبين خيبر.
- ما إن وصل رسول الله ﷺ إلى مشارف خيبر حتى دعا الله سبحانه وتعالى، ثم قام المسلمون باحتلال المناطق الهامة بجوار خيبر، فأفزع اليهود ذلك، وخافوا خوفاً شديداً، ودخلوا إلى حصونهم. وتم فتح هذه الحصون ببطء، وفرق بينها، وحاول اليهود الصمود في وجه الحصار إلا أنهم فشلوا في ذلك.
- قرر رسول الله ﷺ إنهاء الحصار عن خيبر، فأمر الإمام علياً ﷺ بأن يخرج إليهم، وجهّزه للقتال، ودعا له تقدم الإمام علي ﷺ إليهم، فخرج له مرحب فقتله الإمام ﷺ، ثم تقدم إلى باب خيبر وقلعه وجعله جسراً للمقاتلين المسلمين، فأيقن اليهود عند ذلك بالهزيمة والخيبة.
- انتصر المسلمون في معركة خيبر لأسباب عدة، من أهمها: التخطيط النبوي الدقيق للمعركة، تحصيل المعلومات حول العدو، تفاني الإمام علي ﷺ في الجهاد والقتال.
- لقد كان لمعركة خيبر نتائج عدة: دبّ اليأس في قلوب المشركين، فرض الانتصار على قريش، تنفيذ بنود الصلح بدقة، تضاعف قوة المسلمين، تخلص المسلمين من أكبر قوة لليهود.
- توجه رسول الله ﷺ لمحاصرة آخر معاقل اليهود في فدك ووادي القرى وتيما، ودعاهم إلى الإسلام. وكانت أخبار هزيمة خيبر قد وصلت إليهم فخرجوا إلى رسول الله ﷺ طالبين الصلح، فصالحهم ﷺ.

الدرس الثاني والعشرون

الدعوة الإسلامية خارج المدينة المنورة وعمره القضاء

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرف إلى سياسة النبي ﷺ في دعوة القبائل والدول العربية إلى الإسلام.
2. يفهم أهداف النبي ﷺ من توجيه الكتب إلى ملوك العالم.
3. يعرف كيف عاد المسلمون إلى مكة في عمرة القضاء.

تمهيد

أدَّت السياسة الحكيمة للنبي ﷺ إلى ترسيخ فكرة قوَّة وسيطرة الدولة الإسلاميَّة في المدينة على الوضع العامِّ في المنطقة، وأنها تمكَّنت وضربت جذورها في الأرض، وأصبح من الخير لقبائل العرب أن تكون بينها وبين هذه الدولة الفتية هدنة، أو تحالف، أو أن تنزع، إلى الأبد، أيَّ تفكير بغزو المدينة أو بمحاربة الإسلام، أو التآمر عليه مع أعدائه. وكان يتطلَّب ذلك من رسول الله ﷺ العمل على نشر الدعوة الإسلاميَّة بين القبائل العربيَّة المنتشرة في جميع المناطق المحيطة بالمدينة المنورة، وكذلك العمل على توجيه رسائل إلى جميع بلدان العالم لإخبارهم وإعلامهم بأنَّ الإسلام أصبح يشكِّل قوَّة لا يُستهان بها، وأنَّ على جميع شعوب العالم أن تدعن وتخضع لهذا الدين الخاتم لكلِّ الأديان الإلهيَّة.

انتشار الإسلام في البلدان والقبائل العربيَّة

بعد انتصار الإسلام المدوِّي على اليهود في معركة خيبر، وحتَّى يؤتي صلح الحديبية ثماره المعقودة عليه، بعث النبي ﷺ سراياه وبعوثه في مهمَّة الدعوة إلى الله تعالى، فانتشرت بين العرب تنقل إليهم رسالة الإسلام، ولم تبق كورة في اليمن والبحرين واليمامة، إلَّا وفيها رسل النبي ﷺ، والناس يدخلون في دين الله أفواجًا، بعد أن زال محذور قريش، واعترفت بالإسلام، وساد السلم بينها وبين المسلمين، فقطف النبي الثمرة الأساس لصلح الحديبية⁽¹⁾.

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص283، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج5، ص257، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص194، ابن كثير، السيرة النبويَّة، ج3، ص324.

وكان الرصد الدقيق لتحركات وحشود، أو استعدادات، قبائل الأعراب واليهود وكلّ القوى المعادية التي كانت معنيّة بالوجود الإسلاميّ في شبه الجزيرة العربيّة، يساعد رسول الله على اتّخاذ القرارات المناسبة، والمبادرة للتحرك، وحسم الموقف بقوة وحزم، وتوجيه ضربات استباقية لأيّ تجمّع قبل أن يقوى ويهاجم.

لقد وضع هذا التكتيك العسكريّ لرسول الله قبائل العرب - الذين اعتادوا على شنّ الغارات وقطع الطرق - في حالة دائمة من الخوف والقلق، فكانوا يسارعون، بمجرد ورود أخبار إليهم بتحرك المسلمين نحوهم، بالفرار إلى رؤوس الجبال، والتمنّع فيها، وترك أموالهم، ومواشيهم، وحتى نسائهم وأولادهم.

وقد انعكس هذا الوضع على قريش وهيمنتها التاريخية على قبائل العرب، فضاقت أمرها عليها، وفقدت امتيازات سياسيّة وعسكريّة خطيرة، كانت إلى الأمس القريب رصيدها في السيادة والخطرة، وأصبحت وحيدة لا تجد من يعقد معها حلفاً ضدّ المسلمين، وتنتظر ذلك اليوم التاريخيّ الحاسم الذي سوف تجد فيه نفسها معزولة تستجدي رسول الله العفو.

وانتقلت، بسبب ما قدّمنا، أسباب الاضطراب والقلق من المدينة إلى خارجها، وارتاحت أجواء المسلمين، واطمأنّوا، فاستطاعوا مضاعفة أنشطة الدعوة إلى الإسلام، والتحرك بقوة وحرية، واندفاع وحماس، فانتشرت دعوة الإسلام، وبعّد صيتها، وأصبحت حديث الناس في كلّ أصقاع الجزيرة العربيّة، وأخذ الناس يقبلون عليها بلا خوف ولا وجل، فقد أصبح الإسلام عنواناً للقوة والمناعة ولم يعد من يعتنق هذا الدين يخاف أحداً. وأسلم كثيرٌ من العرب، ومنهم من بقي مقيماً على شركه.

غطفان وخرزاعة والدخول في الإسلام

قدم على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجذاميّ الضبيي، من غطفان، وأسلم، وأهدى رسول الله غلامه مدعماً، وكتب رسول الله كتاباً معه إلى قومه، فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة

بن زيد، أتى بعثته إلى قومه عامّة، ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين». وقدم رفاة إلى قومه فأجابوا وأسلموا، ولم يُعَيِّن الشهران للأمان، ولعلّهما شهرا محرّم وصفر من السنة السابعة، ولعلّ توقيته هذا كان لحين انتهائه من خيبر ليحسبوا حسابهم ليومئذ. وقد تقدّم في أخبار خيبر أنّ اليهود حاولوا أن يكتسبوا نصرة غطفان إليهم، فلعلّ هذه الدعوة من الرسول ﷺ كانت مبادرة منه إليهم قبل اليهود. وبعد أن عاد رسول الله ﷺ من الحديبية، لم يبق أحد من قبيلة خزاعة إلاّ مسلم مصدق به، قد اعتنقوا الإسلام، وهو في من حوله قليل، وقد أرسل لهم كتاباً، تولى كتابته الإمام عليّ بن أبي طالب. جعل فيه خزاعة، حتّى ولو لم يسكنوا مكة، وبقوا في أرضهم، بمنزلة المهاجرين إلى المدينة، من حيث الثواب، ومن حيث سائر الامتيازات التي تُعطى للمهاجرين، وأكّد في هذا الكتاب التزامه بعهدة معهم، وأنّه لن يسرع في مجازاتهم بالسوء، لو صدر منهم ما يوجب ذلك، بل سيعاملهم بالحلم والتأني⁽¹⁾.

دعوة شعوب المنطقة إلى الإسلام

1. رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العالم:

في سنة ستّ أو في سنة سبع بعد الهجرة⁽²⁾، بعد أن أصبح المسلمون في راحة من جهة قريش، وحتّى تقع دعوته في قلوب العرب موقعها، ويظهر أنّها عزيزة ومنيعة، وحتّى تتسامع الشعوب بأنباء بعثته، وتلتفت إلى دعوته، وحتّى يؤكّد هيبته في كلّ المحيط الذي يعيش فيه، قرّر رسول الله ﷺ القيام بخطوة استراتيجية سوف تترك أثراً عظيماً في نفوس العرب، وتلعب دوراً في استقطابهم وقلب موازين القوى مع قريش.

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج4، ص234 و260، الواقدي، المغازي، ج2، ص749، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص272، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج1، ص197، وج2، ص97، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص149، ص646.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص258، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص288، القيرواني، الجامع، ص287، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص262، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص289، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص225.

فقد كتب رسائل إلى ستة من ملوك وأباطرة زمانه، ممن كانوا يتحكمون في شعوب المنطقة، وكان اسمهم يزرع الخوف في النفوس، يدعوهم فيها إلى الإسلام. وطلب من بعض أصحابه أن يحمل هذه الرسائل، فأدهشهم قراره هذا، وترك رهبة شديدة وخوفاً عظيماً لديهم، فأظهروا تناقلاً عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ. فقد توقعوا أن يغضب أولئك الملوك غضباً شديداً منهم حين تسليم الرسائل إليهم، فخرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «يا أيها الناس، إن الله بعثني رحمة وكرامة؛ فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم...!!»⁽¹⁾.

فوافق أصحاب رسول الله ﷺ على الذهاب، وانطلق ستة منهم في ذي الحجة الحرام، أو في أواخره هم: عمرو بن أمية الضمري، رسولاً إلى النجاشي، ملك الحبشة، ودحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل، قيصر أو عظيم الروم، وكان في الشام، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، حاكم فارس والمدائن، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي القرشي إلى المقوقس⁽²⁾، صاحب الإسكندرية في مصر، وكان عاملاً للروم عليها، والشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، من غسانة الشام عمال الروم، والذي كان والياً على تخوم الشام ودمشق، وسليط بن عمرو العامري إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن عليّ الحنفيين، ملكي اليمامة. وكان خروجهم في يوم واحد مصطحبين يحملون رسائله التي كانت باللغة العربية، لغة القرآن والإسلام.

وكان رسول الله ﷺ في كتبه يقدم اسمه الشريف موصوفاً بوصف الرسالة أو النبوة، فيكتب: «من محمد رسول الله»، ثم يصرح بعد ذلك باسم المرسل إليه، تعظيماً منه للنبوة، وترفيحاً لمقام الرسالة.

وكان رسول الله ﷺ قد اتخذ خاتماً من فضة، فاقتدى به من شاء من أصحابه. فاتخذوا خواتيمهم من فضة. وكان يختم رسائله بعد طيها، ويجعل الختم على شيء

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص254، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج3، ص255.

(2) لقب عظيم القبط في مصر في تلك الأيام، دحلان، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج3، ص70.

رطب من الطين ونحوه، من أجل أن لا يفضّها حاملها أو غيره، أو يطلّع على ما فيها غير المكتوبة إليه، ولكي لا يُزاد فيها، ولا تحرّف بعض كلماتها⁽¹⁾.

2. مضامين كتب النبي ﷺ ونتائجها:

تضمّنت الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك الدعوة إلى الإسلام دين التوحيد. ولم تكن فيها إشارة إلى حرب، ولا حديث عن جزية، لو امتنعوا عن الإسلام، فقد كان حريصاً على هدفه الأوّل والأسمى، ألا وهو نشر الدين، وليس الاستيلاء على بلاد الناس وقهرهم، أو إذلالهم، أو سلبهم ونهبهم.

ولذلك كانت نتائج رسائله إيجابية بالجملة، فقد قبل الإسلام بعضهم، مثل النجاشي الثاني ملك الحبشة، والمنذر بن ساوى ملك البحرين، وجيفر وعبد ابنا جلندي، ملكي عُمان، وعمّال كسرى في البحرين واليمن، وفروة عامل قيصر على عُمان، فلما بلغ قيصر ذلك أخذه واستتابه، فأبى، فقتله. وأجابه ملوك حمير ووفدوا عليه.

وتردّد بعض هؤلاء الملوك، وأجاب بجواب لئيم، فيه تروّ ومرونة، وأرسلوا إليه بكتب نضحت بالإكرام والإعظام، وبعثوا إليه بالتحف والهدايا. وقد قال قيصر لأخيه حين طلب منه أن يرمي الكتاب من يده: «أترى أرمي كتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر؟!»، وقال المقوقس: «إنّي قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة، بإخراج الخبأ، والإخبار بالنجوى، وسأنظر». وأعطاه أساقفة نجران الجزية، وأجابه ملك أيلة ويهود مقنا، إمّا بالإسلام، أو الجزية⁽²⁾.

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص165، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج17، ص209، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص304، ج5، ص356، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص505، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص288.

(2) الزيعلي، عبد الله بن يوسف، نصب الراية، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1995م، ط1، ج6، ص564.

عمرة القضاء والعودة إلى مكة

انقضت الأيام والنبى ﷺ والمسلمون يعملون على تركيز دعائم الإسلام. ولم تحدث تحركات عسكرية بعد فتح خيبر سوى خروج سرايا التبليغ. ومضى عامٌ على صلح الحديبية، التزم خلاله الطرفان بنود الاتفاق، وحلَّ الوقت الذي أصبح النبي ﷺ والمسلمون فيه في حلٍّ من عهدهم عدم الدخول إلى مكة.

1. الأمر بالاستعداد للعمرة:

وهكذا، في السنة التالية للحديبية، وهي سنة سبع من الهجرة، وفي ذي القعدة، وهو الشهر الذي صدَّ فيه المشركون المسلمين عن المسجد الحرام، كانت عمرة القضاء، وذلك أن خاتم النبيين ﷺ أمر أصحابه، حين رأوا هلال ذي القعدة، أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلَّف أحدٌ ممَّن شهد الحديبية، فلم يتخلَّف منهم أحدٌ إلا من استشهد في خيبر، أو مات بين الحديبية وعمرة القضاء. وقد انضمَّ إليهم جمعٌ ممَّن لم يحضر الحديبية أيضاً، وكان منهم جعفر بن أبي طالب، كما أن بعض النسوة ممَّن شهدن الحديبية، قد اعتمرن معه ﷺ. فكان المسلمون في عمرة القضاء ألفين⁽¹⁾.

وساق النبي ﷺ في عمرته الهدي⁽²⁾، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وحمل معه السلاح، والدروع، والرماح، وقاد معه مئة فرس، وأحرم من مسجد الشجرة؛ لأنه هو ميقات أهل المدينة⁽³⁾. وكان خروجه إليها يوم الاثنين لست خلون من ذي القعدة⁽⁴⁾.

2. على مشارف مكة:

لَمَّا انتهى الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة، قدَّم الخيل أمامه، فقيل: «يا رسول الله،

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص 731، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص 120، العيني، عمدة القاري، ج17، ص 262،

ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج59، ص 67، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص 158.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص 109، الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص 435.

(3) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج2، ص 433، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج2، ص 200.

(4) البغدادي، المحبر، ص 115.

حملت السلاح». فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريباً منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا». فعلمت بذلك عيون لقريش، خرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً، فأخبروهم بالذي رأوا من الخيل والسلاح. فأرسلت قريش مكرز بن حفص بن الأخيف فلقية بمر الظهران، ثم رجع مكرز سريعاً إلى قريش فأخبرهم، وقال: «إنَّ محمداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم».

فلما دنا رسول الله ﷺ من مكة وعلمت قريش بخروجه، خرج كباروهم ومن تبعهم من مكة إلى رؤوس الجبال والتلال المجاورة المطلّة على مكة، زاعمين أنهم لا يريدون النظر إليه يطوف بالبيت هو وأصحابه، عداوة وبغضاً وحسداً لرسول الله ﷺ، وأخلوا مكة ثلاثة أيام، وخلفوا فيها حويطب بن عبد العزى.

وجعل خاتم النبيين الكتيبة التي تحمل السلاح في بطن يأجج، وهو موضع قريب من الحرم خارجه. وكان عدد أفراد هذه الكتيبة مئتين من المسلمين. وكانت الخطة النبوية أن يقضي الذين كانوا معه مناسكهم، ثم يأتي هؤلاء المئتان بعدهم فيحلّوا محلّ أولئك، فيتمكّنون من السعي والطواف، وأداء مناسكهم أيضاً.

3. رسول الله ﷺ والمسلمون في مكة:

دخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكة من الشية بطلعة الحجون، وانتهى إلى البيت وهو على راحلته، وأصحابه محدقون به، قد توشّحوا السيوف يلبّون، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمام ناقته. فلم يزل رسول الله ﷺ يلبّي حتى استلم الركن بمحجته، وأمر بلالاً فصعد على ظهر الكعبة، يعلن نداء التوحيد، مؤذناً لصلاة الظهر، وحتى لو أذن بلال فوق الكعبة يومئذ مرة واحدة، ولم يعد بعد، ولكن ذلك كان كافياً لإغاظة رؤوس الكفر من قريش.

وقعد جمع من المشركين، واصطفوا عند دار الندوة، لينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه معه وهم يطوفون بالبيت، وتحذّثوا بينهم أنّ محمداً وأصحابه في عسر وجهد وحاجة، وأنّ المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب، فنزل جبرئيل ﷺ على النبي ﷺ

فقال: «إنَّ المشركين على الجبل، وهم يرونكم، امشوا بين اليمانيِّ والأسود». فلَمَّا دخل رسول الله المسجد، اضطبع⁽¹⁾ بردائه، وأخرج عضده اليمنى ففعلت الصحابة كذلك. ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّة»، وأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ليُروا المشركين أنَّ لهم قوَّة. وكان أهل مكة من الرجال والنساء والصبيان، والعرب الذين جاؤوا إلى مكة للحجِّ أو للعمرة أو للتجارة، ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت.

وكان رسول الله قد قال لقريش: «ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتَّى أسعى»، فرفعوها، فسعى ﷺ بين الصفا والمروة وقد رُفعت الأصنام، وأقام ﷺ في مكة ثلاثاً.

وقد كانت كلُّ مكة تحت تصرّف المسلمين بكلِّ مرافقها، وتفرَّق المهاجرون يصحبون الأنصار يعودون دورهم التي غادروها في سبيل الله، ويلتقون بأهليهم وذويهم بعد طول فراق. وبعد أن تتأمَّ الناس، أدلج النبي ﷺ من سرف حتَّى قدم المدينة⁽²⁾.

(1) اضطبع بردائه: تأبط به أي جعله تحت إبطه ورمل: هرول.

(2) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص158، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص40، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص284، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص827، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص227، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج1، ص373، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج2، ص923، البخاري، صحيح البخاري، ج7، ص581، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص192، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج84، ص276، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج19، ص151.

المفاهيم الرئيسية

- بعث رسول الله ﷺ سراياه وبعثاته في مهمة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فانتشر الإسلام بين قبائل العرب، ولم تبق كورة في اليمن والبحرين واليمامة إلا وفيها رسل النبي ﷺ.
- دخل الإسلام إلى قبيلة غطفان وخزاعة، فقد جاء وفد من كل منهما إلى رسول الله ﷺ، وأرسل رسول الله ﷺ مع كل وفد منهم أصول الإسلام ومبادئه، وانعكس ذلك لصالح صلح الحديبية، وأثر ذلك مباشرة على هيمنة قبيلة قريش التاريخية.
- بعد عقد صلح الحديبية قرر رسول الله ﷺ إرسال رسله ورسائله إلى ملوك المنطقة من أجل أن ينشر الإسلام بشكل أوسع، ولكي تتسامع بدعوته شعوب هذه المنطقة، فكتب رسائله إلى ستة من ملوك وأباطرة زمانه، وانطلق رسله في شهر ذي الحجة الحرام، وكان خروجهم في يوم واحد يحملون رسائله إلى البلاد.
- تضمنت الكتب التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك دعوة الناس إلى الإسلام ودين التوحيد، ولم تكن فيها إشارة إلى حرب ولا حديث عن جزية، ولا الاستيلاء على بلدانهم.
- بعد أن انقضى عام على صلح الحديبية، وحان وقت العمرة، قرّر رسول الله ﷺ التوجّه لأداء عمرة القضاء، وأمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، وانضم إليهم آخرون أيضاً.
- ساق النبي ﷺ في عمرته الهدي، وحمل معه السلاح للحماية والدفاع عن المسلمين فقط، لا بهدف القتال والهجوم على قريش. وحين وصل ﷺ إلى مشارف مكة أبقى تلك القوة المسلّحة خارجها، وأفرغت له قريش مكة، فدخلها ثلاثة أيام، وأدى عمرته كاملة، ثم أدخل من كان خارجاً وخرج مكانهم مجموعة أخرى للغاية والغرض نفسيهما.

الدرس الثالث والعشرون

الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيّة معركة مؤتة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف وأهداف معركة مؤتة.
2. يبيّن مجريات المعركة والأحداث التي رافقتها.
3. يحلّل نتائج معركة مؤتة.

تمهيد

قبل الانطلاقة الكبرى إلى خارج الجزيرة العربيّة، وداخل الأراضي الشاميّة التابعة للروم، بعث رسول الله قوّة عسكريّة إلى خارج المحيط الذي كان يعيش فيه المسلمون؛ حيث كانت المواجهة الأولى بين هذه القبائل وبين المسلمين في معركة مؤتة⁽¹⁾، في أوّل صدام مسلّح بين المسلمين والقوآت البيزنطيّة. أظهر فيها المسلمون بطولات في مواجهة جيش دولة تمثّل أعظم دولة في ذلك الزمان. ومع أنّ هذه الغزوة كانت نذير خطر للدولة البيزنطيّة، وكان ينبغي أن يترك عندها انطباعاً حاسماً وقويّاً عن طبيعة هذه القوّة الجديدة القادمة من الصحراء، إلا أنّها غفلت عن ذلك فدفعت ثمناً غالياً.

محاولة التمدّد ناحية الشمال

انقضت السنة الهجريّة السابعة، ودخلت السنة الثامنة، وكان ثمة أمنٌ نسبيٌّ يسود أكثر مناطق الحجاز، ولم يبق من نفوذ اليهود شيء، ولم تعد قريشٌ تهدّد المسلمين من ناحية الجنوب، فتوجّهت أنظار النبي ﷺ إلى الشمال، حيث الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وحماتها من قبائل الشام. كان محور حركة النبي ﷺ في النظر إلى الشمال، وإلى سكان

(1) تقع مؤتة في وسط مكان خصيب في منطقة البلقاء، على بعد أميال قليلة إلى شرق الجزء الجنوبي من البحر الميت، والبلقاء هي أقرب منطقة في الإمبراطوريّة البيزنطيّة إلى المدينة المنورة، كانت تسكنها قبائل عاملة ولخم وجرام، وكانت مؤتة، حسب ياقوت، مركزاً هاماً للحداثة وصناعة السيوف، فيمكن أن تكون هذه النقطة ذات أهميّة خاصّة في البحث عن دوافع أو أهداف السريّة الإسلاميّة إلى جنوبي الأردن وفلسطين، ويمكن بالتالي تفسير محاولة السيطرة على مؤتة كوسيلة للحصول على الأسلحة.

المناطق الحدودية للشام، هو قضية نشر الدعوة إلى الإسلام. فأرسل مبعوثين للإعلان عن الإسلام لدى العديد من الحكام والملوك، من بينهم الإمبراطور البيزنطي، وحاول الاتصال به عبر الحاكم المحلي، فأرسل أول رسول له، وهو الحارث بن عمير الأزدي، وأرسل معه كتاباً إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك «بصرى» الذي كان حاكم الشام يومذاك من قبل القيصر، ليوصله إلى هرقل عظيم الروم بالشام⁽¹⁾.

فلما نزل مبعوث النبي إلى «مؤتة»، عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء قيصر على الشام، وكان حاكم المناطق الحدودية، فأمر به، فأوثق رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه صبراً. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

وفي جمادى الأولى⁽²⁾، بلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتد عليه، وغضب لمقتل رسوله، وندب الناس، وأخبرهم بمقتل الحارث، ومن قتله. وجهز رسول الله جيشاً مبقياً وجهة سيره مخفية عن اليهود والمشركين، ولم يخبر بها إلا الذين انتدبهم للخروج⁽³⁾.

أهداف غزوة مؤتة

كان الغرض الظاهري من هذه الغزوة هو الثأر لمبعوث النبي ﷺ إلى أمير الغساسنة في بصرى. بالإضافة إلى ذلك، كانت الخطة النبوية تدور حول أهداف عدة لحركة واحدة، وهي:

1. رغبة رسول الله ﷺ في الحصول على السيوف المشرفية التي كانت تصنع في مؤتة ونواحيها؛ ليسلح بها رجاله يوم الهجوم العتيد على مكة.

(1) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص165، الحلبي، السيرة الحلبية، ج3، ص66، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج11، ص350.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص829، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص318، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص52، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص275، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص164، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص144.

(3) الواقدي، المغازي، ج2، ص755، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص128، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج1، ص304، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج1، ص342، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج15، ص61، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق، ج2، ص7.

2. توجيه تحذير للروم من تمديد وجودهم العسكري والتدخل من جهة الأردن وفلسطين، في رسالة مفادها «نحن نغزوكم ولا نخاف، فلا تحاولوا التفكير في غزونا». إذ كانت القوّات البيزنطيّة تحاول مدّ سيطرتها⁽¹⁾ بعد أن حقّق هرقل انتصاراً على ملك فارس، والتقى بالفرس قبل شهرين تقريباً من وقوع معركة مؤتة، في تموز 629 ميلاديّة في كبادوشيا للبحث في الشروط النهائيّة للسلم بين الطرفين. وعندها فقط قام الفرس بإجلاء جنودهم عن الأراضي البيزنطيّة المحتلّة. وكان هرقل قد نذر أنّه إن حقّق انتصاراً على ملك فارس، فسوف يمشي إلى بيت المقدس، وكانت الحشود العسكريّة الروميّة ترافقه في مسيره ذاك، وسوف تكون بالتّالي نذير خطر داهم على تخوم الجزيرة العربيّة من جهة الشمال. وقد عرف النبي ﷺ بالأمر، فأرسل إلى العرب ينذرهم بالخطر، ويستنفرهم إلى الشام⁽²⁾.

وهكذا، كانت معركة مؤتة، من جهة، جزءاً من سياسة بيزنطيّة للتغلغل في مناطق لم يعملوا فيها منذ عقدين، ويحاولون إعادة تأسيس سلطتهم فيها من جديد. فكان البيزنطيّون يحاولون الخرق جنوباً، بمساعدة قبائل بلاد الشام العربيّة، الذين لم يكونوا مستقرّين في المنطقة. ولعلّهم كانوا قد انتقلوا بعد الهزيمة الفارسيّة ورسّخوا وجودهم الجديد جنوبي البحر الميّت قرب مؤتة. ومن جهة أخرى، كان المسلمون يتجهون شمالاً في هذه المنطقة، ولذلك كان الصدام حتمياً.

كان الوجود البيزنطيّ حديث العهد في المنطقة، فهو يرقى إلى شهرين أو ثلاثة، بعد زوال الاحتلال الفارسيّ، وكانت سيطرتهم غير كاملة وغير مباشرة، مع أنّ جهوزيّتهم العسكريّة كانت في أعلى مستوياتها، ولذلك كانت القوّة الحقيقيّة في أيدي قبائل بلاد الشام العربيّة مثل عاملة وجذام ولخم. المرشّح الوحيد لإعادة السيطرة على المنطقة، ويقول ثيوافانس: «إنّ قائد المنطقة كان بيزنطياً، لكنّ الجنود في أغلبيّتهم كانوا من

(1) جند الخليفة، ص 111، نقلًا عن: W. Kaegi, Byzantium and Early Islamic Conquests (Cambridge, 1992) 73.

(2) الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 167 و 172.

قبائل بلاد الشام. ولم يكن لدى معظم الجنود البيزنطيين الوقت الكافي للتكيف مع المنطقة واحتياجاتها». وبما أن الوقت ضاق عليهم بشكل مفاجئ عند هجوم المسلمين على مؤتة، فقد اعتمد البيزنطيون على حلفائهم العرب لحماية المواقع التي استعادوها حديثاً من الفرس.

ويبدو أن الغساسنة لم يقطعوا علاقتهم مع بيزنطية، وقاتلوا على الأرجح إلى جانبهم ضد الفرس⁽¹⁾. ولا يوجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى أن بقية قبائل الشام - عاملة وجزام ولخم - شاركت البيزنطيين في القتال ضد الفرس، وربما بقوا في الصحراء بعيداً عن الفرس والبيزنطيين معاً. ولكنهم على أثر انسحاب الجنود الفرس عادوا ووقفوا إلى جانب البيزنطيين، مما يدل على أن هذه القبائل كانت ما زالت ناشطة في المنطقة الجنوبية من فلسطين خلال الاحتلال الفارسي.

3. أن تكون سرية مؤتة حركة عسكرية، لكنها في سياق تحقيق نتائج نفسية ومعنوية على صعيد توسيع الدعوة إلى الإسلام، من أجل قلب موازين القوى، في سياق صلح الحديبية، عبر التلويح بالقوة، للعرب ولقريش وللجميع؛ مما زرع الهيبة في النفوس. وكان هذا في نظر العرب والروم معاً أمراً مذهلاً، فكيف يواجه المسلمون دولة كانت العظمى آنذاك؟

تجهيز الجيش الإسلامي

أسرع المسلمون للاستجابة لنداء النبي ﷺ، فاجتمع له منهم ثلاثة آلاف رجل⁽²⁾، وخرجوا للقتال، وكان خروجهم في السنة الثامنة للهجرة، وخرج النبي ﷺ في إثرهم، فشيّعهم مع جماعة من أصحابه حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله، ثم خطب

(1) جند الخليفة، ص 112، نقلاً عن: Noldeke, the Princes of ghasan from the house of gafna. Tr.B. Jouze & C. Zurayq (Beirut. 1933) 79.

(2) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 736، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 128، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 319، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 829، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 213، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 3، ص 206، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 7، ج 28، ص 124.

في المقاتلين، فقال: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، في سبيل الله، ادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وإلا استعينوا عليهم بالله تبارك وتعالى، وقاتلوا من كفر بالله، عدوّ الله وعدوكم بالشام».

وعسكر الجيش الإسلاميّ قبل خروجه في الجرف، ولم يرض لهم أن يختاروا لأنفسهم، وقال عليه السلام: «جعفر بن أبي طالب أمير الناس⁽¹⁾، فإن قُتل فزيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»⁽²⁾.

مجريات المعركة

1. الاشتباك الأوّل مع الغساسنة:

سمع شرحبيل بن عمرو الغسانيّ حاكم بادية الشام بمسيرهم، فجمعّ الجموع من القبائل المختلفة القاطنة في الأراضي الشاميّة، ووجههم إلى حدود بادية الشام الجنوبيّة لإيقاف تقدّم المسلمين. فاشتبك المسلمون مع هذه الجموع، وقتلوا قائدها، وتقدّموا ولم يكونوا حتّى هذه الساعة على علم سوى بالقدرات العسكريّة التي حشدها شرحبيل، ووصلوا إلى أرض معان، وهي من الثغور الجنوبيّة لبادية الشام، وهناك عرفوا باستعدادات العدوّ وحجم قدراته العسكريّة، وأنّ هرقل قد نزل مآب، فبقوا ليلتين يفكّرون في أمرهم، وعقدوا جلسة مشاورة، فقال بعضهم: «نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنخبره الخبر، فإمّا ردّنا وإمّا يزيدنا رجلاً».

(1) وقعة صفين، ص90، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج14، ص47، ج15، ص77، البلاذري، أنساب الأشراف ص281، جواهر المطالب في مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب ص360، العقد الفريد، ج4، ص336، مناقب عليّ بن أبي طالب، للخوارزمي ص176.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج15 ص61، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج2، ص8، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص144 و145، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص241.

وكاد هذا الرأي أن يلقى قبولاً من المسلمين لولا الموقف المتشدد لعبد الله بن رواحة الذي أصرَّ على المواجهة وخطب الناس وحثَّهم على القتال، فشَدَّت تلك الكلمات معنويات المقاتلين المسلمين، وبثَّت فيهم روح القتال والاستبسال فيه⁽¹⁾.

2. الاشتباك الثاني في مؤتة:

انتقل الجيش الإسلامي من معان، حتَّى إذا دنا من منطقة «مشارف»، حيث قوَّات شرحبيل العريبيَّة، فوجئ بجيش هرقل من الروم. انحاز المسلمون وانسحبوا قليلاً، فغشيتهم ضبابة، ولم يبصروا موقعهم بالنسبة إلى موقع العدو، حتَّى أصبحوا في قرية أخرى من قرى البلقاء يُقال لها مؤتة. والظاهر أنَّ الضباب ساعد العدو على إحكام الطوق على المسلمين، ثمَّ دنا العدو منهم حتَّى التقوا عندها، وأصبحت المعركة، بسرعة حتمية، وفي الموضع الذي استدرجهم العدو إليه، ونشبت معركة غير متكافئة، انقضت فيها الأعداد الكثيفة للروم وقبائل الشام من العرب على المسلمين، الذين تقدَّمت طليعتهم للقتال، فكان على جعفر بن أبي طالب أن يأخذ اللواء بيده، ويوجَّه صفوف المقاتلين المسلمين ويقاثل في الوقت نفسه، وأخذ يقاتل حتَّى استشهد⁽²⁾، ثمَّ استشهد القائد الثاني للسيرية «زيد بن حارثة»، ثمَّ القائد الثالث «عبد الله بن رواحة»⁽³⁾، واستشهد معهم اثنا عشر رجلاً من المسلمين، واختلط المسلمون والمشركون، وإذا باللواء في يد خالد بن الوليد، وانكشف بالناس، فكانت الهزيمة، واتَّبَعهم المشركون⁽⁴⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص129، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج2، ص13، السهيلي، الروض الأنف، ج4، ص132، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6 ص148، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص831، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص319، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج1، ص212، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص458، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص166، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص158.

(2) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج1، ص287، ج3، ص422، المزي، تهذيب الكمال، ج2، ص236، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص539.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص833، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج15، ص69، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص279، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص155.

(4) الواقدي، المغازي، ج2، ص763، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص129، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج49، ص337.

الهزيمة والعودة إلى المدينة

انتهت معركة مؤتة بهزيمة واضحة للمسلمين، وشهادة ثلاثة وجوه إسلامية بارزة من أصحاب رسول الله ﷺ. وأقبل خالد بن الوليد بالناس منهزمين، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، وجعل الناس يحثون في وجوههم التراب، ويقولون: «يا فرار، أفرتم في سبيل الله؟».

لقد كانت ردة فعل المسلمين في المدينة قوية جداً على الانسحاب المنكر الذي قام به خالد ومن معه من المعركة، حتى أن الرجل منهم لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له، يقولون: «ألا تقدمت مع أصحابك؟».

ومن كان كبيراً منهم من أصحاب رسول الله فقد جلس في بيته استحياءً ولا يظهر في الملاء، وهنا تدخل رسول الله، من أجل رفع معنويات المنهزمين، فكان يعلق على كلام الناس قائلاً: «ليسوا بفرار، ولكنهم كرار في سبيل الله إن شاء الله تعالى»، ثم أخذ يشجعهم على الخروج من بيوتهم، فخرجوا⁽¹⁾.

نتائج معركة مؤتة

تمكّن المسلمون من الوصول إلى مؤتة قرب البحر الميت دون أن تقف في وجههم القوة البيزنطية، مما يدل على أن هذه المنطقة من شمال الحجاز أصبحت خارج السيطرة الرسمية الرومانية، وعلى أن الروم يحاولون إعادة انتشار قبائل بلاد الشام العربية فيها. وكانت الخطة النبوية تقضي بالقتال حتى ولو أدى إلى استشهاد القادة، وأن يثبت جيش المسلمين في المعركة قدر المستطاع، فلعل العدو يفقد صبره وثباته ويتضعع، وينزل النصر من عند الله تعالى. فإذا لم يتحقق شيء من ذلك، فإن الانسحاب من ساحة

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص764، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص93، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص323، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص215، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص469، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص836، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق ج4، ص24، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص155، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج19، ص275، ج20، ص7.

المعركة مع الاحتفاظ بكرامة المحارب المسلم يكون في النهاية هو الحل. وبذلك تُحقّق معركة مؤتة، ومن خلال صبر ساعة، إنجازاً كبيراً، على كلّ مستويات الأهداف التي قدّرنا أنّها كانت لرسول الله من وراء حركته العسكريّة.

ولم يتحقّق في معركة مؤتة عامل المفاجأة ومباغته الروم، والذي خطّط له رسول الله ﷺ. كما أنّ خالدًا، بانسحابه، ضيّع ما كان يمكن الحصول عليه رغم فقدان عنصر المفاجأة للعدوّ، وتمكّنت القيادة البيزنطيّة من هزيمة المسلمين.

ويظهر أنّ القوّات البيزنطيّة وقبائل الشام العربيّة التي كانت تحت إمرتها، كانت تنتظر وصول الجيش الإسلاميّ، وقد رصدته، وهذا يوضّح السبب في الخسائر النوعيّة غير الطبيعيّة في هذه المعركة، كما يوضّح سبب الفرار السريع والمفاجئ للمسلمين من المعركة بقيادة خالد بن الوليد، ممّا يشير إلى كمين كبير خطّط له البيزنطيّون. ولا يوجد ذكر لذلك في المصادر العربيّة، بينما نجد لدى ثيوفانس في تاريخه، وهو بيزنطيّ، أنّ تيودورس، نائب الإمبراطور هرقل وأخاه، كان لديه حاجب اسمه قطبة⁽¹⁾ القرشيّ. وقطبة هذا هو الذي زوّد نائب الإمبراطور بتقرير وافٍ عن الحملة، فاستعدّت بيزنطة لتلقّيها.

وقد أخفي هذا الخبر من المصادر الإسلاميّة؛ لأنّ القوافل القرشيّة بقيادة أبي سفيان، كانت لا تزال، بعد صلح الحديبية، تذهب إلى بلاد الشام وتأتي منها، فيمكن لنا اتّهامها بأنّها زوّدت الروم بمعلومات وافية حول هذه الغزوة.

وحتىّ لو انسحب الجيش الإسلاميّ بنحو غير مُرضٍ من المعركة، وخسر فيها المسلمون خسارة لا تُعوّض، إلاّ أنّ حركة الرسول ﷺ العسكريّة الإستراتيجيّة تلك ودعوته الناس إلى الإسلام نجحت نجاحاً باهراً. فقد ازداد إقبال الناس على الدخول في الدين الجديد، وأخذت جموع العرب تزحف إلى المدينة التي تحدّث الروم.

(1) قُتابة، حسب الترجمة الحرفيّة، وقطبة حسب مقالة في المصادر التاريخيّة للدكتور سهيل زكار، أستاذ مادة التاريخ الإسلاميّ في جامعة دمشق.

المفاهيم الرئيسية

- تطلع رسول الله ﷺ إلى الشمال حيث الإمبراطورية البيزنطية ومن معها من قبائل العرب. وكان ﷺ يهدف من ذلك إلى نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، فأرسل مبعوثه إلى الحارث الغساني أحد حكام بلاد الشام من قبل ملك الروم، إلا أنه أمر بقتل رسول النبي ﷺ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فغضب لمقتله، وندب الناس للخروج.
- أهداف الغزوة: رغبة النبي ﷺ في الحصول على السيوف المشرفية، وثانياً: توجيه تحذير للروم من تمديد وجودهم العسكري نحو بلاد الأردن وفلسطين، وثالثاً: تحقيق نتائج نفسية ومعنوية على صعيد توسيع الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة.
- أسرع المسلمون للاستجابة لنداء النبي ﷺ، فاجتمع ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل، وخرج النبي ﷺ في إثرهم وشيئهم، وندبهم للقتال والجهاد والثبات والصمود، وجعل عليهم جعفرًا، ثم زيدًا، ثم عبد الله بن رواحة.
- وصلت الأخبار إلى شرحبيل ملك الغساسنة بتحرك المسلمين، فتحرك لإيقاف زحفهم، فتفاجأ المسلمون بحجم قدرات العدو، إلا أنهم صمدوا وقرروا المواجهة بقيادة ابن رواحة، ثم تراجع الجيش الإسلامي من معان، ودنا من منطقة مشارف، ففوجئوا بقوات جيش هرقل، ثم انسحبوا إلى منطقة أخرى حتى وصلوا إلى مؤتة من قرى البلقاء، وكانت حال الطقس رديئة للغاية؛ ما ساعد قوات العدو في إحكام الطوق على المسلمين، ثم وقع الاشتباك بين الطرفين، واستشهد القادة الثلاثة، فتسلم خالد بن الوليد القيادة وقرّر الرجوع بالناس إلى المدينة.
- كان لمعركة مؤتة العديد من النتائج، منها: أنها مكنت المسلمين من الوصول إلى مؤتة دون أن تقف في وجههم القوة البيزنطية، وهذا يكشف عن فقد البيزنطيين السيطرة على تلك المنطقة، وقد ازداد إقبال الناس على الدين الإسلامي بعد ذلك.

الدرس الرابع والعشرون

قريش تنهي حركة الصراع مع النبي ﷺ (نقض صلح الحديبية)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف قريش من الانقلاب على صلح الحديبية.
2. يشرح سياسة النبي ﷺ في مواجهة قريش.
3. يتعرف إلى الخطوات التي قام بها المسلمون في التحضير لفتح مكة.

تمهيد

مضى عامان على صلح الحديبية، وقريش تكتفي بمراقبة حركة رسول الله المطردة والمتنامية، وبقي عليها أن تُقدم بنفسها على خطوة اتّجاه رسول الله ﷺ، لتعيد لنفسها الهيبة والمكانة، وثبت للعرب جميعاً أنها قادرة على تخطي جميع الاتفاقيات مع رسول الله ﷺ.

وتلك الخطوة من قريش كانت تجيز للنبي أن ينهي هذه الحالة ويوجّه الضربة القاضية إليها. ويبدو أن النكسة الجزئية التي أصابت المسلمين في معركة مؤتة هيأت الفرصة لذلك. فقد فرحت قريش بنتائج معركة مؤتة، وحاولت توجيه ضربة أولية للمسلمين من خلال الاعتداء على حلفاء النبي ﷺ من قبيلة خزاعة، فيؤدّي ذلك إلى نقض صلح الحديبية؛ أي حلّ الاتفاق بينها وبين رسول الله ﷺ، فيؤدّي ذلك إلى إضعاف رسول الله ﷺ بفقد أحد حلفائه بجوار قريش، فتمكّن قريش من التفكير في محاولة توجيه ضربة ثانية له، إلا أن نقض الصلح ارتدّ سلباً على قريش، وأنهى وجودها.

قريش تنقض صلح الحديبية

حاول القرشيون نقض صلح الحديبية، والتخلّص من التزاماتهم مع نبي الإسلام ﷺ؛ وقد تبلور هذا التوجّه في:

1. الإبانة على الحلفاء (خزاعة):

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش، دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ. وكانت خزاعة حليفة عبد المطلب بن هاشم، وكان رسول الله ﷺ بذلك عارفاً.

ولقد جاءته خزاعة يومئذ بكتاب عبد المطلب⁽¹⁾، وقبل رسول الله ﷺ بهذا الحلف؛ إذ كان يدعو إلى نصره الحق، ودفع الظلم⁽²⁾، ومن جهة أخرى، كان بنو بكر قد دخلوا في حلف مع قريش.

وفي الجاهلية، كانت خزاعة وبنو بكر في حالة من العداء والكرامية لوقوع الاقتتال في ما بينهم. ولمَّا دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية، هجا أحد بني كنانة من بني بكر رسول الله ﷺ وهجاه يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة فأنذره، فلم يرتدع، فضربه الخزاعي فشجّه، وثار الشر بين الحيين، مع ما كان بينهما من العداوة. فكلم بنو بكر أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة، وأن خزاعة تستحق العقوبة، لأنها دخلت في عهدة محمد، فكان حقد قريش على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام كافيًا لتحريض قريش على المشاركة. ولكن بعض رؤساء قريش، لم يرضوا بالهجوم على قبيلة خزاعة، وهكذا أعانت قريش بكرًا بالسلاح والكرام والرجال، ودسُّوا ذلك سرًّا لئلا تحذر خزاعة⁽³⁾، وتوصل الأخبار إلى رسول الله ﷺ، فينتقض بذلك الصلح.

2. التراجع والندم:

ندمت قريش على ما صنعت، وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ. فكان عليهم أن يحاولوا إخفاء ما جرى عن رسول الله ﷺ أو التخلص من المسؤولية، حتى يستطيعوا الإبقاء على حالة الهدنة القائمة بينهم وبين المسلمين. وكان على رأسهم أبو سفيان، الذي قال: «والله، والله، ليغزونا محمد إن

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص781، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص200، الحلبي، السيرة الحلبية، ج3، ص70.

(2) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص263، سنن ابن ماجه، ج2، ص895، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص292، عبد الرزاق الصنعاني، المصنّف، ج10، ص99، ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق وتعليق وتخريج وتقديم: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي، 1992م، ط2، ج4، ص26، الطحاوي، أحمد بن محمد، شرح معاني الآثار، تحقيق وتعليق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، 1996م، ط3، ج3، ص193.

(3) فتوح البلدان، ج1، ص41، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص87، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص215، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص260، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج23، ص453، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص205.

صدقني ظني، وهو صادقي، ولا بدّ من أن آتي محمّداً فأكلّمه أن يزيد في الهدنة، ويجدّد العهد».

ولكنّ رؤساء قريش الآخرين ممّن لم يرضوا بهذا العمل، قدّر أنّهم سوف يفشلون في ذلك، وسوف يظهر نكثهم للعهد، وأنّه إذا استمرّت التحوّلات في هذا الاتجاه، فإنّ معركة في الأفق تلوح مع المسلمين، سوف تخسرهما قريش بالتأكيد؛ لأنّها لم تهيئ لها ما يمنحها أملاً بالنصر⁽¹⁾.

3. قريش تطلب تجديد العهد:

انتبعت قريش إلى سوء فعلتها وتملكها الخوف من المسلمين، فاجتمع رأيهم على إيفاد أبي سفيان إلى المدينة ليجدّد الصلح، ويطلب تمديد المدّة من النبي ﷺ في محاولة لإعادة الحياة إلى هذا الصلح. فخرج أبو سفيان إلى المدينة، والتقى ببديل بن ورقاء وصحبه في عسفان، وحاول معرفة سبب خروجهم، وهل أنّهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؟ إلا أنّه لم يفلح بذلك.

ثمّ تابع أبو سفيان سيره حتّى دخل المدينة، فأتى إلى رسول الله ﷺ في المسجد، وطلب منه أن يجدّد العهد، ويزيد في المدّة، فقال: «يا محمّد، إنّي كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد، وزدنا في المدّة». فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك جئت يا أبا سفيان؟»، قال: «نعم». ولكنّ النبي ﷺ لم يصغ إلى طلب أبي سفيان وسأله: «هل كان من قبلكم من أحدث؟»، قال: «معاذ الله». فقال رسول الله ﷺ: «فنحن على مدّتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغيّر ولا نبذل»⁽²⁾.

وكان هذا المبرر الذي ساقه لطلبه هذا هو أنّه لم يكن حاضراً في صلح الحديبية، مع أنّ غيبته عن الحديبية لا توجب أيّ وهن أو ضعف في العهد، وإنّما يحتاج العهد

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص782، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص134، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص554.

(2) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص555، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص101، الواقدي، المغازي، ج2، ص792، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص262، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص217، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج69، ص150، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص321، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص532.

إلى التقوية والتجديد فيما لو تعرّض للنقض، وهذا ما ينكره أبو سفيان. لذلك سأله رسول الله ﷺ إن كان قد حدث في مكة ما يوجب وهن العهد، أو نقضه، فأنكر أبو سفيان أن يكون قد حصل شيء من ذلك، فأسقط رسول الله ﷺ حجّته، ووضعه أمام خيارين كلّ منهما صعب: أحدهما: أن يعترف بما جرى لخزاعة، فيتحمّل جميع تبعات ما جرى. والثاني: أن لا يعترف بما جرى لخزاعة، فيظهر جاهلاً بما يجري من أحداث.

4. خيبة قريش:

بعد عقد اللقاء مع رسول الله ﷺ، رجع أبو سفيان بالخبية إلى قريش، بعد أن واجه ما لم يكن له بالحسبان، ولم يستطع الحصول على تمديد صلح الحديبية، إذ انقلبت الموازين، وحصل التفوق التام للمسلمين، ووفى صلح الحديبية بالذي من أجله قام، وانتهى دوره، وها هي قريش وحدها، وهذا رسول الله قد أصبح جاهزاً لشنّ الهجوم الأخير على معقل الشرك في مكة، يطلبها فاتحاً في عملية إتمام انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، مكتفياً فقط بمظهر القوة والعزة بعدة تزايد وإيمان يترسّخ، وبلا سفك دماء يذكر في مثل هذه القضايا التاريخية، بينما قريش تطلب الأمان والسلامة في دمائها وأموالها، بعد أن سنحت الفرصة بنقض الصلح.

وبعد عودة أبي سفيان إلى مكة، حيث كانت قد طالت غيبته، اتهمته قريش في دينه، وقالوا: «والله، إننا نراه قد صبا، وأتبع محمداً سراً، وكنتم إسلامه». فلما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: «لقد احتبست حتى أتهمك قومك، فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل». ثم دنا منها، فقالت: «ما صنعت؟»، فأخبرها الخبر، فقالت: «قُبِّحت من رسول قوم، فما جئت بخير»⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص795، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17 ص264، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص857، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص327، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص133، ابن حبان، الثقات، ج2، ص40، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص320، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص531، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص184، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج1، ص1147، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص555، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص178، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص218، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص42، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج21، ص11.

خزاعة تستنصر رسول الله ﷺ

بعد الاعتداء على خزاعة، أرسلت بديلاً بن ورفاء سراً إلى رسول الله ﷺ ليخبره بما جرى عليها. ثم جاءت وفود خزاعة في أربعين راكباً، يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظهرت عليهم قريش، ومعاونتها لبني بكر. فلما فرغوا من قصّتهم دمعت عينا رسول الله ﷺ⁽¹⁾، وقال: «لا نصرني الله تعالى إن لم أنصر بني كعب ممّا أنصر منه نفسي، والذي نفسي بيده، لأمنعهم ممّا أمنع منه نفسي، وأهلي، وبيتي»⁽²⁾.
ثمّ حَقَّق رسول الله ﷺ في حجم الجريمة وأشخاص مرتكبيها، وسألهم عن الذين يتهمونهم بما جرى. فنفوا أن يكون كل بني بكر قد شاركوا، وحصروا الجريمة في بطن من بطونهم، وحددوا له رأس القوم المجرمين، ثمّ أمر النبي ﷺ وفود خزاعة بالعودة إلى ديارهم⁽³⁾.

خطة تحرك النبي ﷺ لفتح مكة

1. رسول الله ﷺ يخيّر قريشاً:

بعث رسول الله ﷺ إلى قريش رسولاً يعلمهم بيوار مكرهم، وافتضح أمرهم، فوصل الرسول إلى مكة، وأناخ راحلته بباب المسجد، وأخبرهم برسالة رسول الله ﷺ إليهم، وهي أنه يخيّرهم بين إحدى ثلاث خلال: أن يدفعوا دية قتلى خزاعة، أو يتخلوا عن الحلف مع أولئك المعتدين، أو ينبذ إليهم على سواء. فاختلفت قريش في رأيها، حتى استقرّ على الجحد بما حصل⁽⁴⁾.

(1) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص182، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص527، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج43، ص520، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص234، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج4، ص105.
(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص134، الهيثمي، مجمع الزوائد، ص161، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص258، المصنف للصنعاني، ج5، ص374.
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص855، ابن حبان، الثقات، ج2، ص38، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص325، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص319، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص183، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص555، الصالح الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص206، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص64، الطبري، جامع البيان، ج2، ص84، وابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج1، ص1147.
(4) الواقدي، المغازي، ج2، ص787، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج1، ص261.

2. الاستعداد والتجهّز لفتح مكّة:

أ. التجهيز العسكري:

لَمَّا رَجَعَ مَبْعُوثُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ، أَمَرَ فَوْرًا بِالتَّجْهِزِ لِفَتْحِ مَكَّةَ، وَمَنْ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ الْعَذْرَ مِنْ قَرِيْشٍ، فَقَدْ انْتَهَى الْأَمْرُ وَأَنَّ الْأَوَانَ لِحِصَادِ صَلْحِ الْحَدِيْبِيَّةِ. وَلَمْ يَبَادِرِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى دَعْوَةِ النَّاسِ لِلتَّجْهِزِ لِلْمَسِيرِ بِمَجْرَدِ عَوْدَةِ أَبِي سَفْيَانَ، بَلْ هُوَ قَدْ أَهْمَلَ هَذَا الْأَمْرَ مَدَّةً تَكْفِي إِلَى غِيَابِ مَا جَرَى لِأَبِي سَفْيَانَ عَنْ ذَاكِرَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِيْنَةِ، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ بِالتَّجْهِزِ، وَبَشَحَذِ السَّلَاحِ وَجَمَعَهُ (1).

ب. المحافظة على سرية الخروج:

أَخْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ أَصْحَابِهِ الْوَجْهَ الَّذِي يَرِيدُهُ، وَذَلِكَ حَتَّى يَفُوتَ الْفُرْصَةَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، فَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ إِنْذَارِ قَرِيْشٍ فِي وَقْتٍ مَبَكَّرٍ لِكَيْ تَأْخُذَ حِذْرَهَا وَتَسْتَعِدَّ لِلْقِتَالِ. وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَقْصِدُ مَكَّةَ، فَكَيْفَ يَغْزُوهُمْ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَدَّةٌ وَعَهْدٌ؟!

ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْمُوعَاتٍ مِنَ الْحَرَسِ أَنْ تَقِيْمَ بِالمَسَالِكِ فِي الْجِبَالِ وَالْأَوْدِيَةِ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ، وَوَضَعَ الْحَرَسَ وَالْعِيُونَ عَلَى الْمَدِيْنَةِ يَرِاقِبُونَ كُلَّ خَارِجٍ مِنْهَا وَدَاخِلٍ إِلَيْهَا، وَيَفْتَشُونَ مَنْ يَمُرُّ لَيْلًا وَنَهَارًا. كَانَتْ أَوَامِرُهُ لِهَذِهِ الْقَوَاتِ أَنْ لَا تَضَاقِقَ أَحَدًا مِنْ سَالِكِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، وَلَا تَعْتَرِضَ إِلَّا مِنْ سَلَكِ إِلَى مَكَّةَ، وَإِنَّمَا يُحْتَجِزُ بِمَقْدَارِ مَا يُتَأَكَّدُ مِنْ أَمْرِهِ، فَيَسْأَلُ عَنْهُ، وَيَرِاجِعُ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَمْرِهِ.

وَمَنْ أَجَلَ تَضْلِيلَ عِيُونَ قَرِيْشٍ فِي الْمَدِيْنَةِ وَصَرَفَ أَنْظَارَهُمْ عَنْ أَنَّهُ يَهْدَفُ إِلَى السَّيْرِ إِلَى مَكَّةَ، بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ قُوَّةً عَسْكَرِيَّةً إِلَى بَطْنِ إِضْمٍ، شِمَالِي الْمَدِيْنَةِ، لِيُظَنَّ أَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ (2).

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص796، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص265، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص534، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص322.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص133، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج67، ص149، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص177.

ج. دعوة الناس إلى الخروج:

كتب رسول الله ﷺ إلى جميع الناس في أقطار الحجاز، ودعا رئيس كل قوم، فأمره أن يأتي قومه، فيستنفرهم، وأرسل إلى أهل البادية، ومن حولهم من المسلمين، يقول لهم: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة». فوافته الوفود والقبائل من كل جهة⁽¹⁾، من دون أن يبين لهم سبب هذا الطلب، فكانت الوفود تأتي ولكنها لا تعرف وجهة المسير، وحتى بعد أن ظهر أن القصد هو التجمع للحرب، فإن الأمر بقي غامضاً ومجهولاً لهم، إلى أن سار بهم مسافات طويلة.

د. الدعاء والمدد الإلهي:

بعد أن استنفد النبي ﷺ كل الوسائل العادية وغير العادية، استعان بالقدرة الإلهية على ضبط ومراقبة ما لا تستطيع القدرات الإنسانية ضبطه ومراقبته، فدعا الله عز وجل قائلاً: «اللهم خذ العيون والأخبار على قريش، حتى نبغتها في بلادها». فلم يتأخر المدد الإلهي للمسيرة النبوية، فأخبر النبي بأن خائناً، وهو حاطب بن أبي بلتعة، الذي كان قد أسلم وهاجر إلى المدينة تاركاً أهله في مكة، قد أرسل رسالة إلى قريش، رداً على رسالة وصلته من أهله يسألونه عن خبر محمد، وكان ذلك بتحريض من قريش التي صارت إلى عيال حاطب وسألوه أن يكتبوا إليه يسألونه عن خبر محمد وهل يريد أن يغزو مكة؟

هـ. الحصانة الداخلية والمدد الإلهي:

وعلى الرغم من كامل السرية التي اتخذها النبي ﷺ، إلا أن حاطباً قد حصل على معلومة تفيد بأن رسول الله ﷺ سائر إلى مكة، فأرسل إلى قريش رسالة تشي بالحركة العسكرية لرسول الله ﷺ والمسلمين، وفكر حاطب في إيصال الخبر كثيراً؛ لأنه خاف من تفشي الأسرار، وافتضح أمره، فعمد إلى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، فخرجت

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص218، الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص249، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص359.

بالرسالة، تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس، توهمهم الحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر؛ لتخفي حقيقة مهمتها على الله وعلى الرسول. فتركت الطريق وسارت في القفار والفجاج مقداراً طويلاً، ثمَّ عادت لتسلك الطريق في منطقة «العقيق»⁽¹⁾.

ولم يكن في حساب حاطب أن الله سبحانه وتعالى هو الحامي لهذه المسيرة الإلهية الربانية، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يصدق وعده، فمن ينصر الله، فإنَّ الله ينصره، ولو في أدقِّ التفاصيل، وهنا تحقَّق النصر الإلهي للمسيرة الإلهية. فما إن غادرت المرأة المدينة حتَّى نزل الوحي يخبر النبي ﷺ بالكتاب، وأين موضعه⁽²⁾، وما فعل حاطب، فدهش النبي ﷺ بهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر.

بعد علم رسول الله ﷺ بأمر الخيانة، طلب الإمام علياً عليه السلام⁽³⁾، وقال له: «إنَّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله أن يعمي أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك والحقها، فخذوا الكتاب منها وصر به إليّ، واخلوا سبيلها»⁽⁴⁾.

ثمَّ طلب الزبير بن العوام، وقال له: «امض مع ابن عمّتك، عليّ بن أبي طالب، في هذا الوجه وأعنه على تخفيف مأربه». خرج عليٌّ ومعه الزبير، وأخذوا على غير الطريق، فأدركا المرأة، فسبق إليها الزبير، وتقدّم منها، وسألها عن الكتاب الذي معها فأنكرت عليه التعرّض لها، والسؤال عمّا لا يعنيه.

فجعل إنكار المرأة الزبير يتردّد أولاً، ثمَّ يعود إلى عليّ يُقنعه بأنّه ليس معها شيء،

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص242، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص555، الواقدي، المغازي، ج2، ص799، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص858، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القميّ، ج2، ص361، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص327، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج7، ص400، ابن حبان، الثقات، ج4، ص41، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص323.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القميّ، ج2، ص361، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص328، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص536.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القميّ، ج2، ص361، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص266، الطبري، جامع البيان، ج28، ص76، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص370، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص184.

(4) فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص183، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج18، ص51، الشافعي، محمد بن طلحة، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية، لات، لاط، ص197.

بعدها بكت المرأة لهذا التعرّض والإهانة، ولم يلتفت الزبير إلى لازم قوله هذا الذي يعني تكذيب الوحي، وتكذيب الرسول ﷺ. فقال له عليّ ﷺ: «يخبرني رسول الله ﷺ أنّ معها كتاباً، ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت: إنه لا كتاب معها؟!». ولم يلبث عليّ ﷺ أن اخترط السيف، وتقدّم من المرأة قائلاً لها: «أما والله، لتخرجنّ الكتاب...، ثمّ لأضربنّ عنقك بسيفي هذا». حاولت المرأة أن تراوغ كما راوغت مع الزبير، ولكنها رأت عناداً وإصراراً، ممّا جعلها تتأكد أنّ عليّاً ﷺ قاطع بوجود الكتاب الذي تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها، وقد يكون الموت. فقالت: «إذا كان لا بدّ من ذلك، فأعرض يا ابن أبي طالب بوجهك عني». فكشفت قناعها، وأخرجت الكتاب، ثمّ دفعته إلى الإمام عليّ ﷺ، فأخذ الكتاب وعاد به إلى رسول الله ﷺ وسلّمه إيّاه⁽¹⁾.

رحمة النبي ﷺ وعفوه

عندما أخذ الرسول ﷺ الكتاب، قرّر أن يجمع المسلمين في المسجد ليحدّث من مسألة الخيانة، ويؤكّد ضرورة كبت العواطف مرضاةً لله. فأمر أن ينادى: «الصلاة جامعة»، فنودي في الناس، فاجتمعوا في المسجد حتّى امتلأ بهم. ثمّ صعد النبيّ إلى المنبر، فقال: «كنت سألت الله عزّ وجلّ أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإنّ رجلاً منكم كتب إلى أهل مكّة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلاّ فضحه الوحي». فقام حاطب بن أبي بلتعة، وقام عمر بن الخطاب، وقال: «يا رسول الله مرني بقتله، فإنّه منافق». فقال رسول الله ﷺ: «إنّه من أهل بدر، ولعلّ الله تعالى اطّلع عليهم، فقال لهم: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»⁽²⁾.

(1) النووي، يحيى بن شرف، شرح المهدّب، دار الفكر، لات، لاط، ج7، ص38، للتوسعة حول الموضوع، راجع:

السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج21، ص187.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص266، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج9، ص269،

أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، لات، لاط،

ج1، ص318، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص537.

المفاهيم الرئيسية

- بعد عقد صلح الحديبية، جددت قبيلة خزاعة حلفها القديم، مع عبد المطلب مع حفيده رسول الله ﷺ. ومن جهة أخرى دخلت قبيلة بني بكر في حلف مع قريش، وكان في الجاهلية عداً قد حصل بين خزاعة وبني بكر. وبعد عقد صلح الحديبية هجا رجل من بني بكر رسول الله ﷺ؛ فأذره رجل من بني خزاعة فلم يرتدع، فوقع الخلاف بين الطرفين وامتد إلى القبيلتين، فقامت قريش بنصرة حليفها قبيلة بني بكر، وبذلك نقضت قريش الصلح مع رسول الله ﷺ، فأرسلت خزاعة إلى النبي ﷺ رسولا يعلمه بما جرى، فتأثر رسول الله ﷺ بذلك كثيراً، وأكد له وفاءه بالحلف.
- أدركت قريش سوء ما قامت به؛ لذا، حاولت إخفاء عملها، فأرسلت أبا سفيان موفداً من قبلها إلى النبي ﷺ لكي يطلب منه تمديد الصلح، مخفياً على رسول الله ﷺ ما فعلته قريش، فأكد له رسول الله ﷺ أنه باق على العهد ما لم يحصل خلاف الاتفاق بين الطرفين، فرجع أبو سفيان خائباً وأيقن أن رسول الله ﷺ على علم بما جرى.
- أعد رسول الله ﷺ خطة متكاملة لفتح مكة، تتلخص بالآتي:
 - أ. بعث رسول الله ﷺ إلى قريش من يعلمهم ببوار مكرهم وافتضح أمرهم.
 - ب. الاستعداد والتجهيز العسكري لفتح مكة: عمد رسول الله ﷺ في ذلك إلى الآتي: 1. التجهيز العسكري، 2. المحافظة على سرية الخروج، 3. كتب رسول الله ﷺ إلى جميع الناس في أقطار الحجاز للخروج معه. 4. الدعاء والمدد الإلهيان: استعان رسول الله ﷺ بالقدرة الإلهية لإخفاء الأمر عن قريش، فجاءه الوحي الإلهي بأن خبر خروجه قد سرب عبر حاطب بن أبي بلتعة الذي بعث برسالة إلى أهله في قريش بما يحضر له النبي ﷺ، وأرسل الكتاب مع امرأة، فأرسل رسول الله ﷺ الإمام علياً عليه السلام خلفها، فأوقفها في طريقها إلى مكة، وأخذ منها الكتاب، وأعادها إلى النبي ﷺ، فعفا النبي ﷺ عن حاطب.

الفتح المبين (فتح مكّة)

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى معالم سياسة النبي ﷺ في فتح مكّة.
2. يعرف الخطوات والإجراءات التي اعتمدها المسلمون في فتح مكّة.
3. يشرح نتائج فتح مكّة.

تمهيد

بعد أن أنهى رسول الله ﷺ كل التحضيرات لفتح مكة، كان لا بُدَّ من وضع خطة محكمة ومتكاملة، تحتوي على جميع عناصر النجاح والتوفيق؛ لأن فتح مكة يعتبر آخر ما يمكن للنبي ﷺ أن يقوم به في وجه قريش، وأن تلك فرصة لا يمكن تعويضها، فإن كل الأسباب صارت مؤاتية لإنهاء وجود الشرك والوثنية في مكة المكرمة، وبلاد الحجاز.

السياسة النبوية في فتح مكة

1. كان المعلم الأساس في خطة عمل رسول الله ﷺ أن يفتتح مكة بسرعة وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء، خصوصاً أن مكة محرمة على القتل والقتال وسفك الدماء. وبما أنه كان حريصاً أيضاً على أن لا يفر أحد من المشركين، لذلك فقد أعلن شعارات تفكك عرى معسكر الشرك، وتجعله يكسب الحرب من دون سفك دماء، ولذا كان شعاره الأمن لكل الناس في حال التزامهم بتعاليمه ﷺ.

2. كانت سياسة رسول الله ﷺ في كثير من حروبه مع أعداء الدين هي اعتماد عنصر المباغتة، وقد توفّر هذا العنصر في فتح مكة أيضاً في اختيار شهر رمضان المبارك؛ لأن شهر رمضان لا تقع فيه أعمال عسكرية في العادة بسبب إخلاد الناس للراحة في هذا الشهر، وعكوفهم على العبادة، وعزوفهم عن الأسفار. ثم إن لشهر رمضان أثره الإيحائي في نفوس أهل الإيمان، من حيث إنه يهيئهم للعيش في كنف الله، والشعور بحضوره، ويؤكد علاقتهم به تبارك وتعالى. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن حركتهم هذه إنما هي باتجاه بيت الله، وحرمه؟ ويقودهم أفضل الأنبياء؟!.

3. كانت خطة النبي ﷺ هي أخذ مكة من دون حرب، وذلك بإقناع المشركين بعدم جدوى القتال. ولذلك أراد من أقطاب قريش الذين ألقى القبض عليهم - كما سيأتي - أن يأتوا إليه، ويعلنوا استسلامهم واعتناقهم الإسلام، كمقدمة لانهاية المقاومة القرشية.

4. كانت خطته العسكرية أن يدخل إلى مكة من جميع مداخلها وتطويقها تطويقاً تاماً، فتتفاجأ قريش بشدة الحصار وقسوته وسعته، وترضخ للأمر الواقع، وتفضل الاستسلام على القتال والمواجهة التي كانت تدرك نتيحتها المحتومة مع المسلمين، فهي قد جربت شجاعتهم وقوتهم، وصبرهم.

أحداث فتح مكة

1. الخروج إلى مكة:

كان خروج رسول الله ﷺ إلى مكة في شهر رمضان ليلتين خلتا منه⁽¹⁾، أو لعشر خلون من شهر رمضان، يوم الأربعاء، في عشرة آلاف من المسلمين⁽²⁾.

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل مر الظهران عشاءً، وعميت الأخبار عن قريش، فلم يبلغهم عن مسير رسول الله ﷺ شيء، ولا يدرون ما هو فاعل، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إيّاهم⁽³⁾.

2. قريش تتحسّس الأخبار:

خرج العباس بن عبد المطلب، عم النبي، وأبو سفيان بن حرب وغيرهما يتحسّسون الأخبار، ولم يكونوا يعلمون بقدوم رسول الله ﷺ إلى مكة؛ لأن الجيش الإسلامي القادم

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص2، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص218، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص327، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص541 و542، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص52.

(2) الواقدي، المغازي، ج2، ص801، ص815، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص139، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص231، ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص787، ج4، ص859، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص328، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص324، ص539.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص135، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص859، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص328.

نفسه لم يكن يعلم بحقيقة مقصد رسول الله ﷺ، فأبعدوا عن مكة، وواجهوا الجيش العظيم القادم، وكان رسول الله قد أمر المسلمين أن ينتشروا في الصحراء، ويوقد كلَّ منهم ناراً، فأضاء الليل عن جيش عظيم تضيع أمامه كلَّ قوى قريش، فلما بلغ أقطاب المشركين، والنيران كأنها نيران عرفة، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الإبل، أفزعهم ذلك فزعاً شديداً⁽¹⁾.

علم رسول الله بهم، فأمر رجالاً، كان بعثهم عيوناً له، بإلقاء القبض عليهم، وأنهم إذا لقوا أبا سفيان فلا يقتلوه، فداهموهم حيث هم، وهم لا يشعرون، وأخذوهم⁽²⁾.

3. تفتيت جبهة قريش:

أتى العباس، وطلب أبو سفيان منه أن يتولَّى حمايته، وإيصاله إلى رسول الله ﷺ ليأمن على نفسه، فحمّله على البغلة التي أذن له النبي ﷺ بركوبها لعلمه بالحاجة إليها، خصوصاً في هذا المورد، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ.

دخل أبو سفيان ومن معه على رسول الله، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا⁽³⁾، إلا أن أبا سفيان رفض النطق بالشهادتين، وحاول التسوية في الإقرار بهما، ربما لأنه كان يأمل بتجاوز هذه المرحلة، وهو يريد أن يحتفظ لنفسه بزعامة معسكر الشرك.

وفي اليوم التالي، وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من صلاة الصبح، جاء به العباس، فعاد النبي ليكرّر ذلك الطلب عليه، ويعود أبو سفيان إلى المراوغة مرّة بعد أخرى، حتّى أقرّ بأصل التوحيد، وبقي عليه أن يعلن إسلامه الظاهريّ بالكامل. حاول رسول الله ﷺ أن ينتزع ذلك من أبي سفيان من أجل إكمال عمليّة فتح مكة من دون خسائر بشريّة وسفك

(1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج2، ص42، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص242، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص213، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص220، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج23، ص448، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص333، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج3، ص553، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص5، العيني، عمدة القاري، ج17، ص275.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج5، ص172، الواقدي، المغازي، ج2، ص814، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص135، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص859، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص328، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص268 الطحاوي، شرح معاني الآثار، ج3، ص314، ابن أبي شيبة، المصنّف، ج8، ص532.

(3) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص556، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص104.

دما، وإنما يتم ذلك باعترافه ولو ظاهرياً بنبوّة رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ صارماً حاسماً: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يئن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟». فطلب من النبي ﷺ أن يرجئ طلب الإقرار بالشهادة له بالنبوّة، قائلاً: «أما هذه فوالله إنّ في النفس منها شيئاً حتّى الآن». فوكزه العباس وقال: «ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك»، فقال مرغماً ليحقن بذلك دمه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله»⁽¹⁾.

4. إعطاء الأمان للناس:

تنفيذاً لخطة النبي ﷺ بفتح مكة بسرعة ومن دون إراقة الدماء، أعلن رسول الله ﷺ شعاره بإعطاء الأمان للناس. فقد عقد لأبي رويحة لواءً، وأمره أن ينادي: «من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن، ومن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشهد أنّ محمداً رسول الله، وكفّ يده فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»⁽²⁾.

وبذلك يكون قد قضى على عنصر القوّة والاتّحاد في قريش، أو محاولة أي تحرّك عسكريّ فلا تستطيع قريش الاتّحاد وتجميعها قوّاتها؛ بحيث إنّ دار أبي سفيان بأعلى مكة، ودار حكيم بن حزام بأسفلها، ممّا يثبت أنّ علة هذا الشعار هي تفتيت جبهة قريش، وليست مكرمة لأحد من المشركين.

5. استعراض القوّة الإسلاميّة:

استكمالاً للضغط النفسي على قريش كي تستسلم دون إراقة دماء، أمر النبي ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي إلى رأس العقبة، حتّى تمرّ عليه جنود الله،

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص221، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج4، ص351.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج3، ص329، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج2، ص292، و538، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج5، ص-171 173، السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، 1990م، ط1، ج2، ص38، البيهقي، السنن الكبرى، ج6، ص34، وح9 ص117، الهيثمي، مجمع الزوائد، الهيثمي، ج6 ص167 و170.

فيرونه، لتقوى بذلك عزائمهم في أن رأس الشرك قد أسلم، وأن المعركة في طريقها إلى الحسم سلمياً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يرى أبو سفيان أيضاً جنود الله، فيدخله الذل والهوان، ويستيقن العزيمة، لكي يسرع إلى قريش طالباً الاستسلام والرضوخ لحكم النبي ﷺ.

وفي تلك الخطوة من النبي ﷺ، رأى أبو سفيان كيف أن مختلف قبائل العرب التي علق في حرب الأحزاب آماله على نصرها، تنضوي تحت لواء الإسلام، وتأتي لفتح مكة التي يعتبرها أبو سفيان آخر ما يمكن أن يفكر أحد بجمع الجيوش لدخولها. ولذلك كان كلما مرّت به قبيلة، يعرب عن حيرته في دوافعها لمحاربتة، وكيفيّة دخولها إلى مكة⁽¹⁾. وفي نهاية العرض العسكري، وهو مصرّ على عدم الاعتراف للنبي ﷺ بالنبوة حقيقة وواقعاً، وعلى النظر إلى هذه الجموع على أنها مظهر من مظاهر السلطان والملك، يستنتج أبو سفيان قائلاً للعبّاس: «ما أعظم ملك ابن أخيك»، فقال العباس: «يا أبا سفيان هي النبوة». قال: «نعم»⁽²⁾.

وبعد أن غادر أبو سفيان موقعه ذهب إلى مكة، بعدما عين جنود الله تعالى تمرّ عليه، طالباً من أهله الرضوخ لحكم الإسلام، وتسليم الأمر إلى رسول الله ﷺ.

6. حماية الناس في مكة:

واصل المسلمون سيرهم، حتّى انتهوا إلى ذي طوى، ووقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتّى تلاحق الناس، واكتملت جموع الفاتحين. أصدر رسول الله ﷺ أوامره الحكيمة بتوزيع مداخل القوّات إلى مكة مؤكّداً عدم اللجوء إلى القتال إلّا ردّاً عليه، إلّا أنه ﷺ أهدر دماء عدد من المشركين ولو وُجدوا متعلّقين بأستار الكعبة؛ لعظيم جنايتهم ومعاداتهم للإسلام وللنبي ﷺ.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج2، ص821.

(2) المصدر نفسه، ص118.

الدخول إلى مكة

في شهر رمضان المبارك، يوم الجمعة، دخل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة من جهاتها الأربع. وكان دخول النبي ﷺ من كداء، من أعلى مكة. وأما بقيّة الفرق العسكريّة فدخلت مكة من محاور مختلفة، ودخلها رسول الله ﷺ فاتحاً، منتصراً، ودخل المسلمون معه، وهم يهتفون بصوت عالٍ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾⁽¹⁾، فارتجت مكة من هدير هذه الآية المباركة ومن هتافات المسلمين⁽²⁾.

أقبل خاتم النبيين ﷺ وقد طأطأ رأسه تواضعاً لله تعالى، وشكراً له على ما منحه من الفضل والنعمة، إذ دانت له أمّ القرى بعد طول جهد في سبيل إعلاء كلمة الله. وما إن لاحت بيوتات مكة حتى اغرورقت عينا النبي ﷺ بالدموع⁽³⁾.

النبي يدخل المسجد الحرام

دخل رسول الله ﷺ مكة بغير إحرام⁽⁴⁾، وعليه السلاح، وبعد استراحة قصيرة، مكث في منزله ساعة من النهار حتى اطمأنّ الناس، فاغتسل، وعاد لبس السلاح ثم خرج وقد حفّ الناس به، فركب راحلته، وكبّر، فكبّر المسلمون، ودوّى الصوت في الجبال والوهاد، فلما انتهى إلى الكعبة، تقدّم على راحلته، واستلم الركن بمحجنه، وكبّر، فكبّر المسلمون بتكبيره، ورجّعوا التكبير، حتى ارتجت مكة تكبيراً، فجعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون.

طاف رسول الله ﷺ بالبيت، ثم انصرف إلى زمزم، فشرّب منه وتوضّأ، والمسلمون

(1) سورة الإسراء، الآية 81.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج 21، ص 114.

(3) الشيخ الطوسي، الاستبصار، ج 2، ص 102، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 4، ص 126، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 134 و 137، البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 46، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 52، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 557، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 227، الواقدي، المغازي، ج 2، ص 825، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 227.

(4) دخول مكة بغير إحرام، من مختصات النبي محمد ﷺ، ذكرها العلامة الحلي في تذكرة الفقهاء، ج 2، ص 567، والمحقق الكركي في جامع المقاصد، ج 12، ص 85، والشيخ الجواهري في جواهر الكلام، ج 29، ص 128، وغيرهم.

يبتدرون وضوءه، يصبونه على وجوههم، فلا تسقط قطرة إلا في يد إنسان، إن كان قدر أن يشربها شربها، وإلا مسح بها جلده، والمشركون ينظرون إليهم، ويقولون: «ما رأينا ملكًا قط أبغ من هذا، ولا سمعنا به»⁽¹⁾.

نتائج فتح مكة

1. إنهاء الشرك فيها:

كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب: «يا علي، اصعد على منكبِّي، واهدم الصنم». فصعد على منكبِّي النبي ﷺ، ثم صعد ﷺ إلى سطح الكعبة، فقال له رسول الله ﷺ: «ألق صنمهم الأكبر». ثم ألقى علي ﷺ بقية الأصنام.

ولم يكن رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، فنادى منادي رسول الله ﷺ في مكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره أو حرقه»، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام⁽²⁾.

2. البيعة العامة لخاتم النبيين يوم فتح مكة:

بعد أن أنهى رسول الله ﷺ فتح مكة، كان لا بد من أخذ البيعة من الناس كافة، تأكيدًا على التزامهم بالإسلام وقوانينه، وبطاعة النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ على الصفا، واجتمع الناس في مكة للبيعة. فبايعه الناس على الإسلام، كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساءً، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله⁽³⁾.

(1) الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج3، ص244، الواقدي، المغازي، ج2، ص832، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص235، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج21، ص254، ج22 بأكمله.

(2) القندوزي، ينابيع المودة، ص139، الواقدي، المغازي، ج2، ص870 و871، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص99، الحلبي، السيرة الحلبية، ج3، ص103.

(3) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج3، ص415، الحلبي، السيرة الحلبية، ج3، ص94، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص247.

3. انتشار الإسلام:

كان فتح مكة نقطة تحوّل في تاريخ الإسلام، وفي الأوضاع العامّة في الجزيرة العربيّة بأسرها. فتوسّع التنافس والتسابق على الإقبال على دين الإسلام؛ لأنّ العرب، وخصوصاً قريش، رأوا فيه القوّة والعزّة، وأنّ فرصاً جديدة أكبر وأهمّ وأخطر من تلك التي كانت في الجاهليّة، قد برزت على كلّ المستويات السياسيّة والتجاريّة والموقعيّة، وعلى مستوى الرئاسة والوجاهة والسيطرة. فطمع الجميع في الاستفادة من هذا الدين من أجل اقتناص موقع جديد لهم، أو تعزيز موقع قديم، أو تأكيد وجودهم، ومحاولة صياغة دور لهم في صنع المستقبل، ورسم مسار الأمة بأسرها.

وأصبح أعداء الأوس جزءاً من المجتمع الإسلاميّ. ثمّ أخذوا يزايدون على المهاجرين والأنصار في إظهار المزيد من الحرص على كسر شوكة أعداء دين الله، والاهتمام بحماية هذا الدين ومكاسبه.

4. إدارة شؤون مكة المكرمة (تعيين عتاب والياً على مكة):

عيّن رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد والياً على مكة، وكان قد أسلم يوم الفتح. وكان تعيين رسول الله ﷺ لأول حاكم إسلاميّ على مكة، من البيت الأمويّ، محاولة من النبيّ ﷺ لإدخال قريش في النظام الإسلاميّ الجديد، والشروع في تهديم نظامها القديم. وأبقى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل مع عتاب في مكة لتعليم الناس أحكام دينهم⁽¹⁾، ويدلّ هذا على أنّ عتاباً لم يكن قادراً على القيام بهذه المهمة؛ لأنّه هو بنفسه كان بحاجة إلى أن يتعلّم من معاذ نفس ما كان على أهل مكة أن يتعلّموه منه.

(1) الحلبي، السيرة الحليّة، ج3، ص59، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص422، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج3، ص679، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص270.

المفاهيم الرئيسية

- لقد اتخذ رسول الله ﷺ سياسة متقنة في فتحه لمكة المكرمة تتضح معالمها في الآتي:
 - أ. فتح مكة بسرعة وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء.
 - ب. اعتمد رسول الله ﷺ على عنصر المباغته في سرية العمل ووقته.
 - ج. كانت خطته أن يدخل مكة من جميع الجهات، ويطوقها بشكل كامل.
- لقد جرى العديد من الأحداث والتفاصيل في فتح مكة، وهي:
 - أ. سعت قريش جاهدة لتحسس أخبار النبي ﷺ وخروجه، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى مكة بطريقة مفاجئة، وأحاط بها من جهاتها كلها، وأشعل النار، ولما رأت قريش ذلك دخلها الرعب والخوف.
 - ب. عمل رسول الله ﷺ على تفتيت جبهة قريش من خلال إعلان إسلام أقطابها كأبي سفيان، الذي جاء إلى النبي ﷺ أسيراً، فأعلن إسلامه.
 - ج. إعطاء الأمان للناس.
 - د. حماية الناس في مكة المكرمة، ونهي المسلمين عن قتل أحد إلا بعض الأشخاص فقط.
- دخل رسول الله ﷺ إلى مكة من جهاتها الأربع، فارتجت مكة بصوت: «جاء الحق وزهق الباطل»، ثم دخل النبي ﷺ إلى المسجد الحرام بغير إحرام، ثم جعل يطوف بالبيت.

نتائج فتح مكة: كان لفتح مكة نتائج عدة، هي:

 - أ. إنهاء الشرك فيها، حيث حطم النبي ﷺ كل الأصنام.
 - ب. البيعة العامة للنبي ﷺ، فقد أخذ النبي ﷺ البيعة من الناس كافة.
 - ج. منح فتح مكة للإسلام الفرصة بالتوسع والانتشار بشكل سريع جداً.
 - د. إدارة شؤون مكة؛ فقد أصبحت مكة تحت قيادة الدولة الإسلامية.

معركة حنين (1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أسباب اعتداء خالد على بني جذيمة.
2. يشرح أحداث معركة حنين.
3. يفهم أسباب النصر والهزيمة في حنين.

تمهيد

بعد أن أنهى رسول الله ﷺ القوّة الكبرى والأساسيّة للشرك في المنطقة وهي قريش، كان لا بُدّ من إرسال سرايا تدعو الناس إلى التوحيد بالله وترك الشرك، وكان التحرك نحو تحطيم الأصنام - التي تقوم القبائل بتعظيمها وتقديسها من دون الله - من قبل شخصيات قرشيّة كبرى، كانت تعتبر المدافع الأوّل عن تلك الأصنام، لكي يطمئنّ الناس إلى أن رأس الشرك قد دخل في الإسلام، فلم لا يدخلون هم، فيأمنون على أنفسهم وأموالهم؟ ثمّ بعد أن يهيئ الأرضيّة الكاملة بجوار مكّة المكرّمة يتحرك إلى هزيمة هوازن وتجمّعها الشركي في مواجهة رسول الله ﷺ والإسلام.

سرايا إنهاء مظاهر الشرك

1. سرايا متعدّدة:

أرسل النبيّ ﷺ وهو في مكّة العديد من السرايا، من أجل هدم الأصنام التي كانت مقامة في مناطق من الجزيرة العربيّة، ومن أجل دعوة الناس إلى دين الإسلام. واختار لقيادة هذه السرايا شخصيات قرشيّة، وأشخاصاً يخاف الناس بطشهم. والظاهر أن ذلك حتّى يطمئنّ الناس إلى أن جبابرة الجاهليّة وطغاتها قد اعتنقوا هذا الدين، فلم يعد هناك خطر على الناس في اعتناقهم للإسلام من قبل هؤلاء الجبابرة والطغاة.

فأرسل خالد بن الوليد إلى نخلة اليمانيّة، لهدم صنم العزى فيها، وأرسل معه ثلاثين رجلاً، إلا أن خالدًا خالف أمر النبيّ ﷺ، فلم يقلع العزى ولم يهدمها، بل رجع إلى النبيّ ﷺ وكذب عليه، وأخبره أنّه قد قلعها. فقال له ﷺ: «هل رأيت شيئاً؟!»، قال:

«لا». فقال النبي ﷺ: «ما قلعت! إنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها». فعاد إليها خالد متغيظًا ومعه المعول، فقلعها.

وأرسل رسول الله عمرو بن العاص إلى الصنم سواع، برهاط ليهدمه. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي، وهو من الأوس، إلى صنم مناة بالمشلل، فهدمه، وغيرها من السرايا⁽¹⁾.

2. سرية خالد إلى بني جذيمة:

أ. اعتداء خالد على بني جذيمة:

بنو جذيمة هم بنو جذيمة بن عامر، وجذيمة هو المصطلق. وكان النبي ﷺ قد غزاهم قبل الفتح، وتزوج منهم جويرة، فأعتق المسلمون كل من كان بأيديهم من الأسرى منهم، وقالوا: «أصهار رسول الله ﷺ». فأمنوا، وأخذوا من رسول الله ﷺ كتابًا بإسلامهم.

أرسل إليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس قوة من المسلمين، فلما وطئوا مواطن بني جذيمة، ورآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: «ما أنتم؟»، قالوا: «مسلمون، قد صلينا، وصدقنا، وبنينا المساجد في ساحاتنا، وأدنا فيها». فقال خالد: «ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا».

فقالوا: «يا خالد، إننا لم نأخذ السلاح على الله وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر، فإن كان بعثك رسول الله ﷺ ساعيًا، فهذه إبلنا وغنمنا فاغد عليها». فقال: «ضعوا السلاح». قالوا: «إننا نخاف منك أن تأخذنا بإحنة الجاهلية، وقد أماتها الله ورسوله». وكانوا في الجاهلية أصابوا من بني المغيرة من بني مخزوم نسوة، وقتلوا عم خالد بن الوليد، فلما وضعوا السلاح، أمر خالد عند ذلك، فكتفوا، وباتوا في وثاق، وكانوا يؤدون

(1) الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج10، ص141، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج30، ص144، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص79، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج16، ص232، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص196، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص65، الواقدي، المغازي، ج2، ص870، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص146، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص208، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج1، ص227، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص262، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص73.

الصلاة وهم في وثاقهم، وسلّم الأسرى لرجال اختارهم من أصحابه ممن اتّصف بالقسوة، وعدم الرحمة. ثمّ اختار وقت السحر ليأمرهم بقتل الأسرى، فقتلوهم، وكان عدد القتلى كبيراً⁽¹⁾.

ب. شكوى بني جذيمة إلى رسول الله ﷺ :

انفلت رجل من بني جذيمة، فأتى النبي ﷺ فأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع النبي ﷺ يده إلى السماء، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» مرتين وبكى. ثمّ دعا علياً ﷺ، فقال: «يا عليّ، ائت بني جذيمة من بني المصطلق، فانظر في أمرهم، فأرضهم مما صنع خالد». ثمّ قال: «يا عليّ، اجعل قضاء أهل الجاهليّة تحت قدميك». فخرج عليّ ﷺ حتّى جاءهم، فودّى ﷺ لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، وبقي لهم بقيّة من المال⁽²⁾.

ج. لماذا لم يعاقب رسول الله ﷺ خالدًا؟

لقد كان السبب في إرسال خالد خاصّة لدعوة بني جذيمة إلى الله تعالى هو طمأنة بني جذيمة إلى أنّ أمر الجاهليّة قد انتهى، وأنّ أحدًا لا يؤخذ بإحنة، ولا يلاحق بجريرة، ولولا هذه الخاصّة عند خالد بن الوليد ما رآه رسول الله ﷺ أهلاً للإمارة على المسلمين⁽³⁾. ولم يبادر رسول الله إلى معاقبة خالد تطبيقاً للسياسة العامّة التي يتّبعتها، فإنّ قتله سوف يحبط مسعى النبي ﷺ في نشر الإسلام، والاستفادة من النصر الذي أحرزه بفتح مكّة، واستقطاب مستضعفي المنطقة، إذ ربّما تروّج قريش دعاية مسمومة تثير الشبهات ضدّ رسول الله أنّه يقتل أصحابه إذا أخطؤوا؛ لأنّ خالدًا ادّعى أنّ بني

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص152 و153، الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج2، ص473، الواقدي، المغازي، ج3، ص876، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص147، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص181، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص71، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص66، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص200، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص227، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص75.

(2) ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص72، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص358، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج3، ص592، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص201، البيهقي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص61.

(3) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص139، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص139.

جذيمة كانوا كفاراً حين قتلهم، وخطؤه لا يبرر الاقتصاص لهم منه، بل هو يوجب أن يديهم إمام المسلمين (رسول الله) من بيت المال، وقد بادر ﷺ إلى دفع الدية لهم وتعويضهم عن كل ما فقدوه. والقرائن والدلالات وإن كانت متضاربة على تكذيب هذه المزعمة، ولكنها مزعمة تكفي لدفع غائلة الاقتصاص من خالد⁽¹⁾ فإن الحدود تدرأ بالشبهات.

معركة حنين

هوازن تحشد لقتال المسلمين:

تسكن قبيلة هوازن في الجنوب الشرقي لمكة. وحنين واد من أودية تهامة، وهو قريب من الطائف. كان سوقاً في الجاهلية، وكانت هوازن قد بدأت بالتهيؤ للحرب قبل سنة من المعركة، تريد قتال رسول الله ﷺ عدواناً وظلماً. فأخذت تدعو قبائل العرب، وتحثهم على مشاركتها في حربها مع رسول الله ﷺ، فنشأ تحالف قبلي جديد، هدفه قتل رسول الله ﷺ وإنهاء دعوته.

ومما زاد وتيرة استعدادهم، أن رسول الله ﷺ لما خرج لفتح مكة أظهر أنه يريد هوازن، فبلغهم الخبر، فبادروا إلى جمع الجموع، وتحركوا من أماكن سكناهم باتجاه المسلمين.

وكان جملة من اجتمع من بني سعد وثقيف أربعة آلاف، وانضمت إليهم أعداد من سائر العرب، جموع كثيرة، وجعلوا أمر الجميع إلى مالك بن عوف. واعتمد مالك أسلوب القتال القديم، فأمر الناس، فخرجوا، وسيّر مع المقاتلين نساءهم وأطفالهم وأموالهم كي يستमितوا في القتال، ثم انتهى إلى أوطاس، فعسكر به⁽²⁾.

خطة المسلمين العسكرية:

1. عيون النبي ﷺ تراقب تحركات المشركين:

لما علم رسول الله بأمر هوازن، أرسل العيون لمعرفة نواياهم الحقيقية في أمر

(1) العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج23، ص289.

(2) كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م، ط1، ج1، ص150، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص344، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص310، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص285، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص33، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج17، ص240.

الحرب والسلم من جهة، ثم معرفة الخطة التي سيعتمدها في حربهم، فيما لو كان قرارهم هو إثارة الحرب ضد المسلمين من جهة أخرى. فبعث عبد الله بن أبي حرد، فأقام فيهم يوماً وليلاً، فعلم بما يخططون له للحرب. ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً، إن شاء الله»⁽¹⁾.

2. تحرك النبي ﷺ لمواجهة هوازن:

سار النبي ﷺ إلى حنين في أوائل شهر شوال، بعد أن جمع القبائل التي أتت معه إلى مكة في حملة الفتح، وتلك التي انضوت تحت رايته، ورغبتهم في الجهاد. وحتى يرغبهم في الخروج إلى الحرب، ويكون ذلك من أسباب الربط على قلوبهم، وتأكيد اليقين لديهم بصحة النبوة، وحتى يثقوا برعاية الله تعالى لهم، ولطفه بهم، فقد أخبرهم بنتائج تلك الحرب مسبقاً، وأن الله قد وعده أن يغنمه أموالهم، ونساءهم، وذرايرهم، وخرجوا على راياتهم، وعقد النبي ﷺ اللواء الأكبر، ودفعه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثم أمر رسول الله كل من دخل مكة براية أن يحملها. وخرج مع اثنا عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف قدموا معه من المدينة، وألفان من أهل مكة، فظن أكثرهم أنهم لن يغلبوا، لما شاهدوه من جمعهم، وكثرة عدتهم وسلاحهم، فشق ذلك على رسول الله ﷺ؛ لأنه عليه السلام طلب من المسلمين أن ينظروا إلى الحالة الغيبية للأمور، والمتمثلة بالنصر الإلهي، لا الحالة المادية في كثرة أعداد المسلمين.

كان الجيش الإسلامي يسير نهاراً ويستريح ليلاً؛ لأن المسير في الليل يحمل معه أخطار مواجهة الكمائن في المضائق والشعاب. ولما أمسى رسول الله من وادي حنين على مسيرة بعض ليلة، وكان قد مضى ثلثا الليل، سبقهم إليه مالك بن عوف، فأدخل

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص891، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص346، الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص313، والشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ص120، الواقدي، المغازي، ج3، ص893.

جيشه في ذلك الوادي، وعباً أصحابه وفرّقهم على طرقه ومداخله. وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة واحدة⁽¹⁾.

3. تعبئة الجيش الإسلامي للقتال:

في السحر، عباً رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً، ووضع الألوية والرايات في أهلها، وجعل مقدّمة جيش المسلمين مؤلّفة من مجموعتين قبليّتين هما: بنو سليم، وقريش. وأسند قيادة هذه المقدّمة إلى رجل من قريش، وهو خالد بن الوليد، طمعاً في أن يرفع جعل أبناء القبيلة الواحدة في موقع قتاليّ واحد من مستوى التعاون على دفع العدو، وحتى يطمئن رؤوس قريش إلى أنه ﷺ قد قبلهم كغيرهم، وها هو يمحصهم ثقته، ويسلمهم مقدم جنده، ولا يريد أن ينتقم منهم، ولا محاسبتهم. ثم جعل لجيشه ميمنة وميسرة، وقلباً، وكان هو فيه. ثم ركب بغلته البيضاء، واستقبل الصفوف، وطاف عليها بعضها خلف بعض، فححصهم على القتال، وبشّرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا⁽²⁾.

المعركة والقتال

1. الهزيمة الأولى للمشرّكين:

طلع الفجر، وبعد أداء صلاة الصبح، أمر النبي ﷺ المسلمين بالتحرك، فانحدر الجيش في وادي حنين. واصطف الجيشان، وتواجهوا وجهاً لوجه، فلما نظر المسلمون إلى السواد الذي في مقابلهم، وكان حشد هوازن وحلفائهم مع أنعامهم وخيولهم ونسائهم وذراريهم، حسبوه رجالاً كلهم. وحمل جيش المسلمين على المشرّكين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم المشرّكون، وانكشفوا وجلوا عن الذراري⁽³⁾.

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص100، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص150، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج5، ص197، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص180، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج15، ص106، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج42، ص72، الأربلي، كشف الغمّة، ج1، ص221، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص317، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج1، ص228، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص287.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص150، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص316 و317، الحلبي، السيرة الحلبیة، ج3، ص107،

(3) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص181، والشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص34.

2. انكسار المسلمين:

بعد هزيمة المشركين، نزل المسلمون إلى أرض المعركة يأخذون الغنائم، فالتفت المشركون إلى ذلك، ونادوا بعضهم بعضاً: «يا حماة السوء، اذكروا الفضائح، فتراجعوا وعادوا إلى الهجوم، والمسلمون منشغلون بالغنائم، فشنوا هجوماً معاكساً ورشقوهم بالسهام⁽¹⁾، فانكشف المسلمون وانهزموا. وكان من أحد أسباب التراجع والانكسار أنّ الجبهة التي يحتشد فيها بنو سليم كانت أولى الجبهات انكساراً. فقد كان بين بني سليم وهوازن رحمية وتعاطف من جهة الأمّ، فإنّ أمّ هوازن هي «بكمة»، وهي أمّ سليم، بكمة ابنة مرّة، أخت تميم بن مرّة. فارتكب بنو سليم خيانة وتواطؤاً غير مباشر مع هوازن، وقاموا بدور مشبوّه في إحقاق الهزيمة بالمسلمين، تمثّل في عدم الإقدام على قتل بني أمّهم، فولّوا فارّين لا يلوون على شيء، ف وقعت الهزيمة والفرار الأول من جهتهم، وانهزم من وراءهم، فانتزه الطلقاء من قريش الفرصة السانحة، فولّوا جماعة كفّار قريش وبني سليم فكانوا أوّل من انهزم، وتبعهم في الفرار المسلمون، ثمّ انهزم بقيّة الأصحاب، وانهارت صفوفهم. وهنا ظهر لهوازن وكأنّ المعركة قد حسمت لمصلحتها، فخرج باقي المشركين منهم من شعاب الوادي، وخرجوا إلى النبي ﷺ يريدون قتله، وهو على بغلته البيضاء، ولم يبق معه إلا ثمانية من بني هاشم⁽²⁾.

3. الثبات والقتال طريق النصر:

ثبت رسول الله ﷺ والإمام عليّ بن أبي طالب ﷺ في أرض المعركة، فأنزل الله سكينته عليهما، وتصدياً لهجوم العدو المشرك وقلبا نصره إلى هزيمة، وغاص الإمام عليّ ﷺ في أوساط المشركين يضربهم بسيفه. وكان أبو جرول، فارس هوازن، يتقدّم باللواء أمامهم في أثر المنهزمين من المسلمين، فصمد له عليّ بن أبي طالب ﷺ

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج3، ص233، الترمذي، الجامع الصحيح، ج3، ص117، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص155، ابن أبي شيبة، المصنّف، ج6، ص181، وج8، ص550، الطحاوي، شرح معاني الآثار، ج3، ص271، الفخر

الرازي، التفسير الكبير، ج16، ص21، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج4، ص15.

(2) الواقدي، المغازي، ج3، ص912 و913، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص287، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص149، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص34، للتوسعة حول الموضوع،

راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج24، ص191.

فصرعه، ثم كانت هزيمة المشركين بقتل حامل لوائهم، وسقوط اللواء، مما أدى إلى هزيمتهم هزيمة فعلية. وهنا، طلب خاتم النبيين ﷺ من العباس بن عبد المطلب أن ينادي المهاجرين والأنصار، وقال له: «اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آووا ونصروا»، فنادى العباس بأعلى صوته:

«يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله ﷺ».

ثم نادى رسول الله ﷺ المسلمين: «أين ما عاهدتم الله عليه؟ أيها الناس، هلم إليّ. أيها الناس، هلم إليّ». وكأنه ﷺ يئس من نصر المهاجرين له، فنادى خصوص الأنصار، وقال بأعلى صوته: «يا للأنصار! يا أنصار رسول الله! يا بني الخزرج!!»، ثم رفع يده، فقال: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان». ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد بعد اليوم لا تعبد، اللهم إني أشدك ما وعدتني. اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا، اللهم أنزل نصرك». ولم يستجب المهاجرون للنداء أبدًا، ولم يفوا بعهدهم، وإنما استجاب الأنصار، وتبادروا خاصة، وأخذ الأنصار يعودون بصورة تدريجية، ومضوا أمامه ﷺ يقاتلون، ورسول الله ﷺ سائر معهم، حتى انهزمت هوازن. وأخذ المسلمون يطاردون المشركين الذين تفرّقوا في الشعاب، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم، ونادى بنو سليم بينهم: «ارفعوا عن بني أمكم القتل»، فرفعوا الرماح، وكفّوا عن القتل، وهذا يؤكّد على تواطئهم وتعاطفهم معهم، وعلى دورهم في إلحاق الهزيمة بالمسلمين. وانتهت معركة حنين وانهزمت هوازن وحلفاؤها، وغنم الله تعالى المسلمين نساءهم، وذرايرهم، وأموالهم⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج3، ص904، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص142، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص17 و18، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6، ص180، أبي يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ج6، ص290، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج5، ص167، الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، ج3، ص328، ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج4، ص15، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4، ص18، ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج4، ص17، ابن أبي شيبة، المصنّف، ج6، ص75، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص287، أحمد بن حنبل، مسند أحمد ابن حنبل، ج5، ص152، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج1، ص232، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج24، ص11.

4. خسائر المعركة:

هرب مالك بن عوف، وكان جميع من استشهد من المسلمين أربعة، وقتل عليّ عليه السلام من المشركين، بعد أبي جرول، أربعين رجلاً، وكان مجموع من قتل من المشركين مئة رجل.

ولمّا انهزم المشركون، أمر رسول الله ﷺ بالغنائم والذراري والأموال أن تجمع، وأن تحضر إلى الجعرانة، مجمداً التصرف بها إلى أن يعود من مطاردة العدو الذي لجأ إلى الطائف، ثم وقف بها هناك إلى أن انصرف من حصار الطائف⁽¹⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص906، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص63، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص253، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص142، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص604، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص181، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج5، ص18.

المفاهيم الرئيسية

- أرسل النبي ﷺ بعض سرايا لإنهاء مظاهر الشرك في مناطق مختلفة.
- أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في سرية أخرى إلى بني جذيمة؛ وهم بنو المصطلق، وكان رسول الله ﷺ قد غزاهم قبل الفتح، وأعلنوا إسلامهم، إلا أن خالد بن الوليد لما وصل إليهم لم يأخذ بكلامهم، بل أوثقهم، ثم قتل عدداً منهم.
- لما وصلت أخبار ما فعله خالد إلى النبي ﷺ تبرأ ممّا فعله خالد، ثم أرسل الإمام علياً ﷺ إلى بني جذيمة، فودى (دفع الدية) لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال.
- لم يعاقب النبي محمد ﷺ خالد بن الوليد على ما فعله، تطبيقاً لسياسته العامة في عدم إشاعة أن محمداً يقتل أصحابه، خصوصاً بعد تذرّع خالد بأنه اعتقد أنهم كفار.
- كانت قبيلة هوازن رأس حربية من تحرك لقتال النبي ﷺ، خصوصاً بعدما فتح النبي ﷺ مكة، فجهّزت هوازن الجيش، وخرجت للقتال.
- عمل رسول الله ﷺ على تحديد معالم خطة عسكرية يواجه فيها هوازن، وهي:
 - أ. مراقبة تحركات المشركين.
 - ب. عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وحثه على الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، وبشره بالفتح.
- تحرك الجيش الإسلامي نحو هوازن، فوقع في كمينهم في وادي حنين، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، وهُزمت هوازن في بداية الأمر، وبدأوا بالفرار، فقام المسلمون بجمع الغنائم، فتنادى المشركون، ورجعوا إلى أرض المعركة، فانشكف المسلمون وانهمزوا ولاذوا بالفرار.
- بعد ثبات رسول الله ﷺ والإمام عليّ ﷺ في أرض المعركة، بدأ المسلمون بالرجوع للقتال، وجعل رسول الله ﷺ يناديهم، ويذكرهم بعهودهم وبيعتهم له، فعادت الكرة للمسلمين، وألحقوا الهزيمة بهوازن وحلفائها.

معركة حنين (2) حصار الطائف وثقيف

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف وأهداف حصار الطائف وثقيف.
2. يشرح الخطة العسكرية التي اعتمدها المسلمون في الحصار.
3. يفهم البعد الإنساني والاجتماعي في معالجة قضية السبايا والأسرى.
4. يبين الدروس والعبر من معركة حنين.

تمهيد

لقد فتح انتصار النبي ﷺ في معركة حنين الباب أمامه للولوج في معركة حاسمة ضد أعداء الإسلام والمسلمين. فقد انطلق من تلك المعركة هادفاً إلى جمع كل تلك القبائل العربيّة تحت لواء الإسلام، تمهيداً للقضاء على الشرك والوثنيّة في كامل بلاد الحجاز، واستقطاب أكبر قدر ممكن من العرب حماية للإسلام والمسلمين، وتوسعة لرقعة الإسلام في الأرض.

حصار الطائف

الطائف بلد كبير، يقع على ثلاث مراحل، أو على مرحلتين، من مكة، إلى الجهة الجنوبيّة الشرقيّة، وهو كثير الأعناب والنخيل، على قمة جبل غزوان. ويعتبر أهل الطائف⁽¹⁾ من المحاربين القدماء للإسلام ومن المشاركين في حرب الأحزاب. وكان عروة بن مسعود الثقفيّ وجمع من هوازن وثقيف، قد هربوا من معركة حنين، وتفرّقوا على ثلاث فرق، فرقة فيها رئيسهم مالك بن عوف، لجأت إلى الطائف، وتحصّنت فيه، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم، وتهيّؤوا للقتال، وكان حصنهم لا مثال له في حصون العرب، وأقاموا رماتهم، وهم مئة رام، وأخرى إلى نخيلة، وثالثة إلى أوطاس، وهو وادٍ في ديار هوازن. فبعث النبي ﷺ مجموعات مطاردة في أثرهم، من أجل ملاحقتهم وعدم إتاحة الفرصة لهم لكي يستردّوا فيها قواهم ويعيدوا تنظيم صفوفهم. فأدركت سرايا المطاردة

(1) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص281، العيني، عمدة القاري، ج17، ص302، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص408.

بعض المنهزمين فناوشوهم القتال، وأوقعوا بهم شرَّ هزيمة، ثمَّ سار رسول الله ﷺ بنفسه إلى الطائف، ولم يرجع إلى مكة.

وكان رسول الله ﷺ قد طاردهم محافظاً على التشكيلة العسكرية نفسها التي تحرَّك فيها من مكة إلى حنين، خشية من أن يترك إدخال أيِّ تغيير على التركيبة القبليَّة للجيش أثراً معنوياً سيئاً على المقاتلين.

وكانت خطة المحاصرين المكث في حصنهم، والمراهنة على عدم صبر المسلمين على طول الحصار، وعلى قدرتهم على الصمود في حصنهم، فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمي عليهم، وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصن، حتَّى قتل عدداً من الناس⁽¹⁾.

الخط العسكري في تشديد الحصار على الطائف

1. العامل النفسي: في محاولة من رسول الله ﷺ لتفكيك معسكر المشركين من الداخل، نادى مناديه ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرٌّ»، فبدأ الناس بالاستجابة⁽²⁾.

2. نشر الحسك: نشر المسلمون الحسك حول الحصون، وهي أوتاد من الخشب، زرعوها في ساحة المعركة بكثافة، حتَّى لا تتمكن خيل المشركين من الجولان فيها، إذا ما حاولوا الخروج من الحصن، فكانت بمثابة عراقيل وموانع مؤثرة في ردعهم عن التفكير بالمباغثة السريعة للمسلمين.

3. استخدام وسائل عسكرية جديدة: استفاد رسول الله من وسائل حربيَّة لم يكن المسلمون قد استعملوها من قبل، فأمرهم باستخدام الدبابة - وهي آلة حربيَّة توضع جلود البقر عليها، ويدخل فيها الرجال، فيدبُّون إلى أسوار الحصن لينقبوها - حيث زحف المسلمون بها إلى جدار الحصن ليحفروه، فواجههم عدوهم بسكك

(1) العيني، عمدة القاري، ج17، ص301، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص206، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص123، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص151، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص181، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص902، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص219.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص64.

الحديد المحمّاة بالنار، فاحترقت الدبابة، وخرج المسلمون من تحتها، وقتل منهم رجال⁽¹⁾، وأصيب منهم من أصيب.

4. قطع الأشجار لضرورة: لكي يمنع رسول الله المشركين من التسلل إلى قرب المسلمين ورميهم، وليعطي جيشه قدراً أكبر من حرية الحركة، بادر إلى الأمر بقطع طائفة من الأشجار حول الطائف؛ لأنها كانت في مواضع يشكّل بقاؤها فيها خطراً على جيش المسلمين.

فظنّ أهل الطائف، وكذلك بعض المسلمين، أنّه ﷺ يريد قطع جميع نخيلهم، وأعنابهم وشجرهم، فنادت ثقيف، مناشدة رسول الله أن يترك ذلك: «لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم»، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم»⁽²⁾.

5. الاستفادة من المنجنيق: بعد أن استكمل رسول الله الضغط الخارجي، شرع في الضغط داخل الحصن، فبدأ بالاستفادة من المنجنيق⁽³⁾ الذي يجعل العدو حتّى وهو في حصونه يتربّب الكارثة ويخشأها، ليس على نفسه كمقاتل وحسب، بل على أهله وولده ونسائه. وبذلك لن يعود الحصن قادراً على حمايته، كما سوف تسقط نظريّة القدرة على الدفاع السلبيّ بتحمّل الحصار لمدة طويلة.

6. القتال في أوقات مختلفة: بعد أن حاصر النبيّ ﷺ الطائف أسبوعين أو أكثر⁽⁴⁾، كان يتحرّك في أوقات لم يعتد الناس على التحرك فيها، مثل وقت الهاجرة، كأنّه كان يريد أن يفهم أهل الطائف أنّهم غير متروكين، وأنّ عليهم أن يتوقعوا مفاجأتهم في كل وقت وزمان.

(1) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص385، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري ص123.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص64، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص385، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص123.

(3) المنجنيق آلة حربية تصنع من جلود وخشب وحديد، تقذف الحجارة بها، وكان قد استعمله رسول الله حين حاصر خيبر.

(4) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص354، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص920، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص1، ج153، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج2، ص120، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص388، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج42، ص343، البلاذري، فتوح البلدان، ج1، ص65.

أهل الطائف يعلنون إسلامهم

في هذه المرحلة، عاد الإمام عليّ عليه السلام من ملاحقة الأعداء، وانضمّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو محاصر لأهل الطائف ينتظره، فلما رآه النبيّ صلى الله عليه وآله كبر للفتح، وأخذ بيده، فخلا به، ونجاه طويلاً.

ثمّ أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يستفيد من وجوده في جيشه لمحاولة حسم أمر الحرب عن طريق الضغط المعنويّ والنفسيّ، فأطلق تهديداته بأنّه سوف يرسل لهم الإمام عليّاً عليه السلام ليضرب أعناق مقاتليهم، أو يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة⁽¹⁾.

وكان لخطة النبيّ صلى الله عليه وآله في حصار الطائف الأثر الكبير على استمالتهم للإسلام، ودعوتهم للاستسلام والرضوخ لحكم النبيّ صلى الله عليه وآله. وكان ممّا أثر بهم معنويّاً تلك العوامل النفسية التي استعملها رسول الله صلى الله عليه وآله بدعوتهم للاستسلام، وأنّ من جاءه فهو آمن. ثمّ إنّ استجابة النبيّ صلى الله عليه وآله لهم بعدم حرق وقطع أشجارهم لله والرحم قد تركت أثراً عند أهل الطائف، وكانت محفزاً معنوياً لهم على الاستعداد لتقبّل فكرة ترك الحرب. ثمّ جاء التهديد بتكليف الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بفتح الطائف، فكان السبب الأخير الذي أدّى إلى سرعة استسلامهم، وإرسال وفودهم إليه، ليعلنوا إسلامهم، وذلك بعد أيام يسيرة من هذه الوقائع. ولذا أراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن يحفظ لهم بعض ماء الوجه، فلم يخبر أحداً من الناس بمراسلة أهل الطائف له بالابتعاد عن حصنهم، لكي يأتيه مسلمين مستسلمين، فاكتفى بقوله: «لم يؤذن لنا الآن في قتالهم، وما أظنّ أن نفتحها الآن»⁽²⁾.

فقال لهم صلى الله عليه وآله: «يا أهل الطائف، إنّه لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود. أما والذي نفسي بيده لتقيمّن الصلاة، وتؤتّن الزكاة أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو منّي كنفي،

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص123، المشغري، يوسف بن حاتم، الدرّ النظيم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، إيران، ص185، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص605، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص151، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج7 ص402، ابن الأثير، أسد الغابة، ج4، ص27، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص516.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص401، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص662، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص922، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج4، ص1832، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص387.

يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يقصعكم بالسيف». فلما صار الوفد إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ فأقروا له بالصلاة، وأقروا له بما شرط عليهم⁽¹⁾، ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه⁽²⁾.

قضية السبايا والأسرى

1. أهداف معالجة قضية السبايا والأسرى:

كان السبي يوم حنين ستة آلاف، بين امرأة وغلّام، إضافة إلى ما غنم من الحيوانات. وكانت الغنائم والسبايا حقاً خاصاً برسول الله والإمام عليّ ﷺ؛ لأنّ النصر إنّما تحقق بثبات رسول الله والتأييد الإلهي له بإنزال الملائكة، وبقتال عليّ ﷺ. وكان أمر الغنائم والسبايا بيد رسول الله ﷺ، واستأنى بضع عشرة ليلة، لكي يقدم عليه وفد هوازن. وكان يرغب في إسلام هوازن وسائر القبائل في المنطقة، كما كان راغباً في إطلاق سراح السبي والذرية، فكان لتلك القبائل سبي، وتوزيعها على المسلمين سيكون عاراً وسبّة عليهم. بل لو أنّ النبيّ ﷺ قام بتقسيم السبي، وانتقل إلى أيدي الناس، فلربّما يشكّل ذلك مانعاً لدى الكثيرين منهم عن الدخول في هذا الدين. وقد كان فيما سبي من النساء أخت رسول الله من الرضاع «الشيما»، ابنة حليمة السعدية التي أرضعته، ثمّ كلمته في إطلاق سراح الأسرى والسبايا، وكان له دور بارز في ذلك، بأمر بينه وبين رسول الله ﷺ. وقد أدركت هوازن حراجة الموقف، وأنّ نساءهم وأموالهم ستصبح غنيمة للمسلمين فيما لو أصروا على موقفهم، وبنتيجة التداول فيما بينهم اتّفق رأي أكثرهم على اعتناق الإسلام.

ثمّ طلب رسول الله من الوفد أن يظهروا إسلامهم أمام الناس، ليأنفوا من استرقاق نساء

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص516، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج2، ص414، ابن حمزة الطوسي، الثاقب في المناقب، تحقيق: نبيل رضا علوان، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، إيران، 1412هـ ط2، ص121، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص67.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص157، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج3، ص107، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص388، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص663.

وذرية إخوانهم من المسلمين. ولما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فاستأذنوا رسول الله ﷺ في الكلام، فأذن لهم، فقامت الشيماء فتكلمت، وتكلم خطباؤهم، بما أمرهم به رسول الله ﷺ فأصابوا القول، وأبلغوا فيه، ورجعوا إليهم في ردّ سبيهم، ثم تكلم رسول الله ﷺ، وبادر أولًا إلى هبة سهمه وسهم بني هاشم، تشجيعًا للناس على ذلك، فترك الناس سهامهم، وحلت قضية السبي، وهكذا أطلق سراح الأسرى، واعتنق الآلاف الإسلام في يوم واحد ببركة رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

2. سبايا مالك بن عوف:

كلمت شيماء أختها رسول الله ﷺ في مالك بن عوف، فقال لها: «إن جاءني فهو آمن». وحينما جاءه وفد هوازن قال للوفد: «ما فعل مالك بن عوف؟»، قالوا: «يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف». فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مئة من الإبل». فلما بلغ مالكًا ما فعل رسول الله ﷺ في قومه وما وعده، وأن أهله وماله موفوران، لحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة (أو بمكة)، فردّ عليه النبي ﷺ أهله وماله، وأعطاه مئة من الإبل، وأسلم، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، ومن في تلك البطون من هوازن⁽²⁾.

تقسيم الغنائم والأموال

لما فرغ رسول الله ﷺ من ردّ سبايا هوازن، ركب بعيره وتبعه الناس، يقولون: «يا رسول الله، اقسام علينا فيثنا». وأخذت الأعراب تسأله، وأحاطت به لتوحي له بأنّها

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص63، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص348، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص152، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص219، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص390، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص326، البخاري، صحيح البخاري، ج3، السجستاني، سنن أبي داود، ج1، ص609، البيهقي، السنن الكبرى، ج6، ص360.

(2) 2 ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج56، ص486، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص357، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص269، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص927، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص405، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج1، ص240، قطب الدين الراوندي، قصص الأنبياء، ص348.

مسلمة، ولتحصل على جزء من الغنيمة، حتى أجموه إلى شجرة وأخذوا رداءه، فطمأنهم إلى أن الفيء الذي يحصلون عليه بأسياهم وبجهادهم وتضحياتهم إنما هو لهم، ثم أمر أن يُرد كل ما غنم حتى تكون القسمة عدلاً⁽¹⁾. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وهم الأشراف من قريش وسائر مضر وسائر العرب. ولم يعط رسول الله من الغنائم الأنصار، لأنهم لم يكن لهم، ولا للمهاجرين، ولا لغيرهم أصلاً حقَّ فيها، ولكنَّ النبي ﷺ طيَّب نفوس الأنصار، بعدما نفذ ما أمره الله تعالى به، وعاملهم مغمضاً نظره عن هزيمتهم في أول المعركة، معتبراً كأنَّ شيئاً ممَّا حدث لم يحدث، حفاظاً على معنوياتهم، فغضب قوم من الأنصار، ووجدوا في أنفسهم، حتَّى كثر فيهم القالة، وحتَّى قال قائلهم: يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إنَّ هذا لهو العجب، يعطي قريشاً والطلاق والمهاجرين، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فأخذ النبي ﷺ يشرح لهم حقيقة موقفه، ويحاول أن يعيد، في هذه الساعة الحرجة، المستوى العالي من المعنويات، والحماسة والاندفاع، وأن يستثير عواطفهم الدينيَّة ومحبتهم له، فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه، فقبلوا يديه ورجليه⁽²⁾.

وهكذا، أعاد رسول الله تأليف الأنصار، واستطابة نفوسهم، والثناء عليهم في دينهم، حتَّى رضي أن يكون واحداً منهم لولا ما منعه من الهجرة التي لا يجوز تبديلها. وكانت المدينة دار الأنصار، والهجرة إليها أمراً واجباً، أي لولا أنَّ النسبة الهجريَّة لا يسعني تركها

(1) ابن هشام، السيرة النبويَّة، ج4، ص135، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج4، ص43، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص358، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص242، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص49، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج4، ص84.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص411، السهيلي، الروض الأنف، ج4، ص167، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص145، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص166، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج3، ص105، البخاري، صحيح البخاري، ج5، ص105، الترمذي، سنن الترمذي، ج5، ص41، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص409، البيهقي، السنن الكبرى، ج6، ص337، ج7، ص18، العيني، عمدة القاري، ج17، ص309، عبد الرزاق الصنعاني، المصنَّف ج11، ص60، أبي يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ج6، ص283، الطبراني، سليمان بن أحمد، مسند الشاميين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م، ط2، ج4، ص153.

لانتسبت إلى داركم، وتسميت باسمكم، وانتسبت إليكم، لما كانوا يتناسبون بالحلف، لكن خصوصية الهجرة وترتيبها سبقت فمنعت ما سوى ذلك، وهي أعلى وأشرف، فلا تبدل بغيرها. فبكى القوم حتى أخلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا بالله ورسوله حظًا وقسمًا»⁽¹⁾.

دروس وعبر من معركة حنين

1. إن السبب في هزيمة المسلمين في بداية المعركة هو غرور المسلمين بأنفسهم،

وإعجابهم بكثرتهم وقوتهم. قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾⁽²⁾.

2. إن الذين قاتلوا بشجاعة فائقة إلى جانب النبي ﷺ وعليّ ؓ هم القلة

المؤمنة. فهؤلاء هم الذين حققوا الانتصار في حنين، وهم الذي أنزل الله عليهم السكينة والطمأنينة، وأوجد روح الثبات والاستقامة في نفوسهم وقلوبهم وأيدهم بجنود من الملائكة لم يروها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾⁽³⁾.

3. لقد ترتبت على إعطاء النبي ﷺ الغنائم للمؤلفة قلوبهم في حنين نتائج مهمة

وخطيرة، إذ شعروا أنه ليس من المصلحة لهم العودة إلى الشرك، فانضموا إلى الجهد الإسلامي العام، وعملوا على كسر شوكة أهل الشرك في مناطقهم، وساعدوا على انتشار الإسلام.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص154، ابن حبان، الثقات لابن حبان، ج2، ص81، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص77، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص272، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص411، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص935 ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص221، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج25، ص37.

(2) سورة التوبة، الآية 25.

(3) سورة التوبة، الآية 26.

العودة إلى المدينة

في يوم الخميس، غدا رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، فسلك في وادي الجعرانة، ثم وصل إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة. وكانت مدة غيبته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها، وواقع هوازن، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً⁽¹⁾ بعد انتصارين من أعظم الانتصارات التي حققتها في صراعه مع الوثنية، وهما: فتح مكة، وهزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل في حنين. وبذلك تم القضاء على أكبر معاقل الشرك والوثنية في المنطقة. وبعد فتح مكة والطائف وسقوط عاصمة الوثنية، وعودة النبي ﷺ إلى المدينة، ظن بعض المسلمين أن الجهاد انتهى بدخول الإسلام إلى مكة والحجاز، وسقوط الشرك، فباعوا أسلحتهم دون أن يستشيروا النبي ﷺ ليستجيزوه بذلك، بل قالوا انقطع الجهاد، فعلق النبي ﷺ على ذلك بقوله: «لا ينقطع الجهاد حتى ينزل عيسى ابن مريم»⁽²⁾.

(1) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، مصدر سابق، ج5، ص407.

(2) المصدر نفسه، ج12 ص72.

المفاهيم الرئيسية

- يعتبر أهل الطائف من المحاربين القدماء للإسلام ومن المشاركين في حرب الأحزاب. والطائف بلد كبير يقع في الجهة الجنوبية الشرقية لمكة المكرمة. وبعد أن هربت هوازن وثقيف من معركة حنين انتشروا في مناطق مختلفة، وخرج مالك بن عوف إلى الطائف وتحصن فيها. وكان مالك يطمع في عدم صبر المسلمين على طول الحصار.
- لقد عمل المسلمون على تشكيل خطة متكاملة في محاصرة الطائف، تتشكل من: أ. العامل النفسي. ب. نشر الحسك. ج. استخدام وسائل عسكرية جديدة كالذبابة. د. قطع الأشجار. هـ. الاستفادة من المنجنيق. و. القتال في أوقات مختلفة.
- بعد أن أنهى الإمام علي عليه السلام ملاحقة الفارين، التحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهدد أهل الطائف بأنه سوف يرسل لهم الإمام عليه السلام؛ ما أحدث رعباً وخوفاً في صفوفهم، ومضافاً إلى تنفيذ الخطة السابقة بإتقان فأدى ذلك إلى رضوخ ثقيف لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإعلان إسلامها.
- كان السبي والأسر حقاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان أمر التصرف فيهما بيده، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راغباً في إسلام هوازن، فلو قسم الغنائم بين العرب، لآدى ذلك إلى منع هوازن من الإسلام، فقرّر صلى الله عليه وآله وسلم أن يطلق سراح الأسرى والسبايا. وقد تدخلت الشيماء أخت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرضاعة في شأن مالك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن جاءني فهو آمن، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعلن إسلامه، فرد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أهله وماله.
- قسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الغنائم والأموال على المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، ثم أَرْضاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه سوف يخرج إلى المدينة ويبقى فيها.
- إن لهذه المعركة دوراً وعبراً، منها: أن الغرور والعجب سببان لهزيمة والخسارة، أن الذين قاتلوا بجانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام هم القلة المؤمنة، أن توزيع الغنائم على العرب منعهم من العودة إلى الشرك.

الدرس الثامن والعشرون

غزوة تبوك (سرايا الدعوة والتبليغ والردع)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يفهم أهداف إرسال السرايا والكتب لدعوة القبائل إلى الإسلام.
2. يعرف ظروف وأهداف ونتائج غزوة تبوك.
3. يشرح الخطوات التي اعتمدها النبي ﷺ في الحفاظ على المدينة.

تمهيد

إن من النتائج العظيمة التي ترتبت على فتح مكة بعد القضاء على قريش وجبروتها فسخ المجال أمام النبي ﷺ للبدء بالاتجاه نحو دعوة باقي القبائل العربية إلى الإسلام. وكان من تلك المناطق التي أتجه إليها رسول الله ﷺ بلاد اليمن، وكان من ضمن خطة عمل النبي ﷺ الاتجاه نحو بلاد الشام، ولكن عبر قوة مسلحة تؤدي إلى عرض قوة المسلمين من جهة، ومحاولة إخضاع تلك القبائل العربية وإدخالها في الإسلام. إضافة إلى توجيه رسائل إلى الإمبراطورية الرومانية مفادها أن الإسلام يستطيع أن يمتلك القوة والعتاد الذي يستطيع به أن يحمي نفسه من كل الاعتداء.

سرايا الدعوة والتبليغ والردع

بدأ رسول الله ﷺ بإرسال السرايا في الاتجاهات المختلفة، بهدف الدعوة إلى الإسلام، أو تحطيم صنم هنا أو وثن هناك، أو من أجل جمع الصدقات من أطراف الجزيرة. وأمرهم أن يأخذوا من الناس العفو، ويتوقوا كرائم أموالهم. ومن هذه السرايا سرية أمير المؤمنين ع إلى طيء⁽¹⁾، وسرية إلى ذي الكفين، وبعث سرية بقيادة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح من الشام⁽²⁾، وسرية قبيلة القرطاء بقيادة الضحاك الكلابي⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج3، ص984، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص164، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص271، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج11، ص359، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص218، ص376، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج4، ص329، ابن الأثير، أسد الغابة، ج5، ص474.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص63، ج7، ص503، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج34، ص345، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص272.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص382، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص163.

رسائل النبي ﷺ إلى اليمن

1. الإمام عليّ ﷺ أمير الجيشين إلى اليمن:

كتب النبي ﷺ في سنة تسع كتباً، وأرسل رسلاً إلى جميع أذواء اليمن وأقبالها، وبعث دعائه إلى تلك البلاد ليفقهوا الناس، ويعلموهم معالم الإسلام. فبعث مهاجر بن أبي أمية، والأقرع بن عبد الله الحميريّ إلى ملوك حمير، فأجابوا إلى الإسلام، ووفدت إليه وفودهم، فكتب لكلّ الوافدين كتباً، وأمّنهم على دورهم، وزرعهم وأموالهم وأنفسهم⁽¹⁾. وقدم إليه عمرو بن معدي كرب الزبيديّ فأسلم، ثم ارتدّ عن الإسلام، حين لم يرضَ رسول الله ﷺ بالاختصاص له من قاتل أبيه؛ لأنّه قتله قبل أن يسلم، فانصرف عمرو مرتدّاً، وأغار في طريقه على قوم مسلمين، ثمّ مضى إلى قومه، فأرسل النبيّ ﷺ جيشين، لإخضاعه، ودعوة أهل اليمن إلى الإسلام، جيش من المهاجرين وأمّر عليه عليّ بن أبي طالب ﷺ ووجهه إلى بني زبيد على مشارف اليمن، وجيش من الأعراب أمّر عليه خالد بن الوليد، وجعل عليّاً ﷺ هو أمير الجيشين.

2. خالد بن الوليد وقبيلة جعفي:

أمّا خالد فقصد قبيلة جعفي، فلما سمعت هذه القبيلة بالجيش افتרכת فرقتين، فبلغ ذلك عليّاً ﷺ حيث كتب إلى خالد بن الوليد: «أن قف حيث أدركك رسولي!». فتمردّ خالد على أمر الإمام ﷺ، فعامله عليّ ﷺ بالحزم والحكمة، وأرسل إليه خالد بن سعيد بن العاص الذي لا يستطيع خالد مناوآته لموقعه ومكانته في قريش، وأمره أن يتعرّض له حتّى يحبسّه ويمنعه من الاستمرار في السير.

وبعد أن التقى الجيشان، سار عليّ ﷺ حتّى لقي بني زبيد وعلى رأسهم عمرو بن معدي كرب، فهزمهم. ثمّ انصرف خالد بن سعيد وأمر شخصاً ليقبض صدقاتهم، ويؤمن من عاد إليه من هرابهم مسلماً. ثمّ عاد عليّ ﷺ إلى المدينة، وبقي خالد

(1) ابن الأثير، أسد الغابة ج4، ص422، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص283، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص67، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص279.

في بلاد اليمن لكي يسعى لأسلمة أهلها، فلم يفلح. ثم أرسل النبي ﷺ بعد ستة أشهر علياً ﷺ إلى اليمن، ليدعو أهلها، فلما دنوا من قبيلة همدان خرجت إليهم، فصلّى عليّ ﷺ بالمسلمين، ثم صفهم صفّاً واحداً، وتقدّم بين أيديهم وقرأ على المشركين كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً في ساعة واحدة⁽¹⁾.

3. قضية غنائم اليمن:

كان خالد بن الوليد قد أصاب من المشركين في اليمن غنائم وسبياً، فأرسل إلى النبي ﷺ أن يرسل إليه من يقبضه منه، تجاوزاً منه لأميره عليّ بن أبي طالب ﷺ. ولكن رسول الله ﷺ بعث إلى عليّ ﷺ ليقبض من خالد الخمس، ويقسم الفية. التقى عليّ ﷺ خالداً، وتسلم منه السبي والغنائم، وقسمها على المقاتلين، ثم اصطفى من مجموع السبي سبية، وجعلها له، فاعترض عليه جمع من الناس منهم خالد وبريدة بن الحصيب الأسلمي، ومن شدة بغضهما لعليّ، لم يصبوا حتى يقدموا على رسول الله ﷺ، بل اجتمعا يتآمران على الإيقاع بين عليّ ﷺ ورسول الله ﷺ، فكتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يشي بعليّ ﷺ وينم عليه، فسار بريدة بالكتاب. دخل بريدة على رسول الله ﷺ وناوله الكتاب⁽²⁾. وجعل رسول الله ﷺ يقرأ الكتاب، حتى إذا فرغ رفع بريدة بصره إليه، فإذا وجه النبي ﷺ قد احمرّ، وتغيّر لونه، وغضب غضباً شديداً، ثم قال ﷺ لبريدة: «ويحك يا بريدة، أحدثت نفاقاً؟ إن علياً بن أبي طالب يحلّ له من الفية ما يحلّ لي! إن علياً بن أبي طالب خير الناس لك ولقومك، وخير من أخلف بعدي لكافة أمتي! يا بريدة، احذر أن تبغض علياً فيبغضك الله».

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج7، ص663، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص384، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص427، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص300، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص131، ص132، البيهقي، السنن الكبرى، ج2، ص369، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص129، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص28.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص93، البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص110، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج1، ص156، سنن أبي داود، ج2، ص277، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص386، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج4، ص61، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج8، ص93.

فتحوّل بريدة من النفاق إلى الإيمان، وقام من لقائه ذاك مع رسول الله ﷺ وما من الناس أحد أحب إليه من الإمام عليّ⁽¹⁾.

غزوة تبوك

كانت آخر مغزاي النبي ﷺ، وهي المعروفة بغزوة العسرة، وتُعرف أيضاً بالفاضة لافتضاح المنافقين، وكانت في رجب سنة تسع قبل حجة الوداع⁽²⁾.

1. أهداف غزوة تبوك:

أ. تثبيت إمامة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ:

عمل النبي ﷺ على بناء العوامل التي يحفظ بها الإسلام ويحصّنه من الداخل والخارج، وخصوصاً من الداخل. فإنّ المعركة القادمة سوف تكون مع المنافقين، فكان لا بدّ من مجموعة إجراءات تفضح نواياهم، وتكشف حقيقتهم، وكان من هذه الإجراءات ممارسة مباشرة إظهار شخص الإمام الجديد عليّ ﷺ.

ب. نشر الإسلام في شمالي الجزيرة العربيّة:

بعد الانتهاء من نشر الإسلام في وسط الجزيرة وجنوبها، كان على الدولة الإسلامية، لتثبيت نفوذها خارج تخوم الجزيرة العربيّة، أن تبذل جهوداً لإخضاع هذه القبائل التي ظلّت مستقلة عن الدولة في صحراء بلاد الشام والجزيرة⁽³⁾.

ج. القيام بحملة وقائيّة في مواجهة احتمالات الحرب من الشمال:

كان البيزنطيّون يحاولون إعادة بناء تحالفاتهم مع القبائل العربيّة في الشمال، وكان الهدف هو حماية بلاد الشام من إغارة القبائل العربيّة من جهة، ومن جهة أخرى حمايتها

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص128، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج4، ص202، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص235، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص52، وص53، ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص198 و275، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص160.

(2) العيني، عمدة القاري، ج18، ص259، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص280، وابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج1، ص163، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص479.

(3) F. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, 1981), 98 - 99

من الدولة الإسلاميّة. فإنّ معركة مؤتة وذات السلاسل أثبتت للبيزنطيين أنّ تلك الدولة الإسلاميّة باتت تشكّل تهديداً واضحاً لها على تخوم دولتها، فلا بدّ من التحالف الدفاعي لحراسة بلاد الشام.

إضافة إلى ذلك، إنّ الموضوع التجاري والاقتصاديّ كان حاضراً في الدولة البيزنطيّة والدولة الإسلاميّة، فلا بدّ من تأمين علاقة مع تلك القبائل لحفظ الخط التجاريّ بين بلاد الحجاز وبلاد الشام، فكان لا بدّ من حملة عسكريّة - وإن لم تؤدّ إلى الاقتتال والاشتباك - تظهر فيها الدولة الإسلاميّة حضورها وقوّتها، وأن تعقد اتفاقيّات مع تلك القبائل العربيّة المنتشرة شمالاً⁽¹⁾.

د. حسم مادّة النفاق في المدينة:

كان أكيدر ملك دومة الجندل، أحد زعماء القبائل المرتبطة بالروم في شمال الجزيرة. ويبدو أنّ نصارى العرب كتبوا إلى هرقل يحرضون على قتال النبي ﷺ. فبعث هرقل رجلاً من عظمائهم، أبا عامر الفاسق، وجّه مع أربعة ألقاب، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، وبقي المنافقون يرصدون قدومه⁽²⁾، وجعلوا يتخلّلون أصحاب النبي ﷺ ويخوّفونهم من قوّته، ثمّ قدمت جماعة من التجّار الأنباط من الشام إلى المدينة، فذكروا للمسلمين أنّ الروم جمعوا جموعاً كثيرة بالشام، وجاءت مقدّماتهم إلى البلقاء لحربهم⁽³⁾.

العقبات التي سبقت غزوة تبوك

1. الخوف والرعب من الروم:

المشكلة الأساسيّة التي سبقت الغزوة الخوف والرعب من الروم⁽⁴⁾، فلم يكن

(1) F. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, 1981), 102.

(2) الطبري، جامع البيان، ج11، ص33، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص470 و471.

(3) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص338، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج3، ص381، ابن الأثير، أسد الغابة، ج4، ص271، العيني، عمدة القاري، ج18، ص45، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص165، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج2، ص34.

(4) البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص33، الواقدي، المغازي، ج2، ص992.

المسلمون يتوقَّعون من تلك الغزوة غنائم ولا سبايا، ولا فتح بلاد؛ لأنَّهم كانوا يعرفون أنَّ الحرب ستكون مع الروم، ومع الروم لا يسهل الحصول على شيء من ذلك.

2. المنافقون:

بلغ رسول الله ﷺ أنَّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبِّطون الناس عن رسول الله ﷺ. فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق⁽¹⁾ عليهم بيت سويلم اليهودي. ففعل طلحة، واقتحم الضحَّك بن خليفة من ظهر البيت هارباً⁽²⁾.

خطوات النبي في الحفاظ على المدينة

1. استخلاف الإمام عليّ عليه السلام :

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة علياً بن أبي طالب، فإنَّ حركة النفاق أخذت تنمو بعد اندحار المشركين داخل الدولة الإسلاميَّة بعد فتح مكة، وهذا يشكِّل خطراً كبيراً جدًّا على الإسلام، ويتطلَّب أن يبقى في المدينة شخصٌ قادرٌ على مواجهة هذا الخطر في حال حصول أيِّ حادثة قد تودِّي إلى زعزعة الاستقرار في مركز الدولة الإسلاميَّة، فإنَّما أن يبقى رسول الله ﷺ، وإنَّما أن يبقى الإمام عليّ عليه السلام كما جاء الأمر الإلهي، فقد أوحى الله تعالى إليه: «يا محمد، إنَّما أن تخرج أنت وقيم علي، وإنَّما أن يخرج علي وتقيم أنت». فقال عليّ عليه السلام للنبي ﷺ: «أخرج معك؟»، فقال له النبي ﷺ: «لا! إنَّه لا بدَّ من أن تقيم أو أقيم، يا علي، إنَّ المدينة لا تصلح إلَّا بي أو بك»⁽³⁾.

وبذلك فوَّت رسول الله ﷺ على المنافقين فرصة ثمينة باستخلاف الإمام عليّ عليه السلام. ولذا لمَّا خرج رسول الله ﷺ خاض المنافقون في ذلك، وقالوا إنَّ رسول الله ﷺ لم يستخلفه إجلالاً ومودَّة، وإنَّما خلفه استثقلاً له، أو كرهه وقربه وساء فيه رأيه، فلمَّا بلغ

(1) لقد عالج العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، قضية قطع الأشجار وإحراقها، وإحراق البيوت بشكل مسهب ومفصَّل، راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ، ج29، ص203.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص7، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص6، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص437.

(3) المصنف للصنعاني، ج5، ص406، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص442، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص115، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص94.

أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، أراد تكذيبهم، وإظهار فضيحتهم، فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما جاء بك يا علي؟!»، فقال عليه السلام: يا رسول الله، إني سمعت ناساً يزعمون أنك خلفتني لشيء كرهته مني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ارجع يا أخي إلى مكانك، فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك. فأنت خليفتي في أهل بيتي، ودار هجرتي وقومي، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟! إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي». فقال علي عليه السلام: «رضيت، رضيت»⁽¹⁾.

2. كشف زيف المنافقين:

ضرب صلى الله عليه وسلم عسكره فوق ثنية الوداع بمن تبعه من المسلمين⁽²⁾، وعسكر عبد الله بن أبي سلول، في الجرف. فلما تحرك النبي صلى الله عليه وسلم تخلف المنافقون بقيادة ابن أبي، وقفلوا راجعين إلى المدينة، فقال خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: «حسبي الله، هو الذي أيدي بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم»⁽³⁾.

خطوات النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله في تبوك

أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وعرفه ما اجتمع عليه المنافقون وغيرهم، وأمره بالمسير إلى تبوك، وأن يستنفر الناس للخروج معه، وأعلمه أنه لا يحتاج فيها إلى حرب، وأن الأمور تنقاد له بغير سيف، فأمر المسلمين جميعاً بالجهاز والاستنفار استعداداً لحرب الروم.

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، مصدر سابق، ج1، ص156، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج42، ص151، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص24.

(2) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج4، ص2120 - 2128، الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص473، العيني، عمدة القاري، ج18، ص45.

(3) الواقدي، المغازي، ج3، ص990، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج1، ص243، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص58، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص182.

الحرّ، فتخلّف عنه كثيرون، متعلّلين بعزل شتّى، وفي طريقه مرّ بالحجر، وهي أطلال قوم صالح، فتقنع بردائه وهو على الرحل، راكباً على ناقته، ثمّ أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن لا يحملوا من مائها شيئاً ثمّ ارتحل. بعدها نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام وصلّى ركعتين، ثمّ دعا، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة، فأمرت عليهم حتّى استقوا منها⁽¹⁾.

وقد أقام رسول الله ﷺ في تبوك عشرين ليلة يقصّر الصلاة⁽²⁾، وقيل بضع عشرة ليلة، وقام بأعمال تأسيسية عدّة لزرع بذور الإسلام في تلك المنطقة، وهي:

1. بناء مسجد تبوك:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، خطب بالمسلمين ووعظهم⁽³⁾، ثمّ قام ببناء المسجد والصلاة فيه، وتعيين قبلته بواسطة وضع حجر فيها، ليعرف الناس موضع صلاتهم، ويكون المسجد هو نقطة الارتكاز في تحرّكهم في تلك المنطقة.

2. عقد الاتفاقيات والمعاهدات:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب أعداء الإسلام، وأرسل ﷺ للقبائل رسله وكتبه لدعوتهم إلى الإسلام، فبادروا إلى إعلان إسلامهم أو استسلامهم. وقد تمّ ذلك عبر عقد معاهدات مختلفة مع القبائل الكبرى المستوطنة جنوبيّ بادية الشام، فوفد إليه كثيرٌ من أهلها. وكذلك أسلم بعض العرب ممّن كتب لهم

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص154، الواقي، المغازي، ج3، ص1009، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص370، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص279، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص13، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص949، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص448.

(2) ابن حزم، علي بن أحمد، المحلى، دار الفكر، لات، لاط، ج5، ص25، السجستاني، سنن أبي داود، ج1، ص276، البيهقي، السنن الكبرى، ج3، ص15، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج2، ص532، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص953، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص373.

(3) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص37، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج2، ص67، البيهقي، السنن الكبرى، ج9، ص160، ابن أبي شيبة، المصنف، ج4، ص592، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص23، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص437، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج9، ص273، ج5، ص452.

رسول الله ﷺ⁽¹⁾، وكان اليهود قد ارتكبوا تجاوزات واعتداءات على المسلمين، فغفر لهم ذلك رسول الله ﷺ وأحسن إليهم وأجارهم، وأجرى فيهم حكم التوراة. ثم صدر آله حربهم وما يتقوون به على العدوان، وشرط لهم أن لا أمير عليهم إلا من أنفسهم، أو من أهل رسول الله ﷺ.

3. رسالة النبي ﷺ إلى هرقل:

أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى هرقل يدعو فيه إلى الإسلام أو دفع الجزية⁽²⁾. ويبدو أن هرقل وصلته أخبار الحملة النبوية، وأن أبا عامر مات في الشام الذي كان قد جهّزه⁽³⁾، فهاب محاربة رسول الله ﷺ، ولم يلق النبي كيداً، وأتته رسل هرقل، فكساهم وردّهم⁽⁴⁾.

النتائج العامّة لغزوة تبوك

1. شكّلت معركة تبوك نصراً حاسماً للمسلمين على الإمبراطورية الرومانية.
2. استطاع رسول الله ﷺ بحكمته في العمل السياسي أن يجعل القبائل العربية المناهضة للإسلام، تعلن إسلامها، أو تعقد معاهدات واتفاقيات مع المسلمين⁽⁵⁾.
3. برز المسلمون في هذه الغزوة كقوة منظمة تملك العقيدة القويّة والعتاد القويّ، فكان هذا إنذاراً حقيقياً لكلّ القوى خارج دار الإسلام، وتحذيراً لها من التعرّض للمسلمين.

محاولة اغتيال النبي ﷺ

حين رجوع الجيش الإسلاميّ من تبوك، ولما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق،

(1) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج3، ص338، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج3، ص381، ابن الأثير، أسد الغابة، ج4، ص271.

(2) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، حقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، لا، ط2، ج12، ص442، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج5، ص306، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص457.

(3) ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج1، ص55، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص471، ج12، ص72.

(4) البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص368.

(5) البلاذري، فتوح البلدان، ج71، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص146.

مكر به ناس من قريش ومن المنافقين، وكانوا قد أجمعوا أن يقتلوه، ولمَّا سلك رسول الله ﷺ العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، وقالوا: «إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي»، فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فأمر مناديه فنادى: «ألا لا يسبقن رسول الله أحد على العقبة ولا يطؤها حتى يجاوزها رسول الله، وأن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع».

وهكذا، سلك الناس بطن الوادي، إلا المتآمرين الذين مكروا برسول الله ﷺ، فإنهم لمَّا سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا، وسبقوا رسول الله إلى العقبة، فرأهم حذيفة، ثم وصل رسول الله ﷺ وسلك العقبة، وأمر عمَّار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه. وبينما رسول الله ﷺ يسير من العقبة، إذ سمع حسَّ المتآمرين قد غشوه، ودحرجوا الدباب المليئة بالحصى، فنفروا ناقة رسول الله حتى سقط بعض متاعه، ولكنَّ الله تعالى قد حفظ نبيّه، ولم يتم لهم ما أرادوا، وجاز العقبة غاضبًا، وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم⁽¹⁾، فعلم المتآمرون أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس⁽²⁾، وقد أعلم الله تعالى النبي ﷺ بأسماء أولئك المجرمين، فأعلم بها حذيفة⁽³⁾.

تهديم مسجد الضرار

ابتنى سعد بن أبي خيثمة وبنو عمرو بن عوف مسجدًا في قباء، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يأتهم فيصلي فيه. أتاهم فصلّى فيه، فحسداهم إخوانهم بنو غنم بن عوف⁽⁴⁾، وقاموا ببناء مسجد، وكان هدفهم هو الإضرار بأهل الإسلام، وأن يتستروا على مكائدهم ومؤامراتهم، والاستغناء عن الحضور في مسجد النبي ﷺ. ولمَّا فرغوا من بناء مسجدهم،

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص64، ص116 - 132.

(2) الواقدي، المغازي، ج3، ص1043، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص245، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص466.

(3) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص128، الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص499.

(4) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج16، ص195، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص403، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص373، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص956.

كان رسول الله ﷺ قد عزم على الرحلة إلى تبوك، فطلبوا منه أن يصلي فيه ليأخذوا شرعية لأعمالهم بذلك، إلا أن رسول الله ﷺ أخبرهم بأنه يريد الخروج إلى تبوك⁽¹⁾. فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾⁽²⁾، فدعا رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وآخرين، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فهدموا، وحرقوه»⁽³⁾، فخرجوا حتى أتوا المسجد بين المغرب والعشاء، وهدموا حتى وضعوه بالأرض، وتفرق عنه أهله، وأمر أن يتخذ كناسة تلقى فيه الجيف⁽⁴⁾.

(1) الطبري، جامع البيان، ج 11، ص 32، الثعلبي، يحيى بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2002م، ط 1، ج 5، ص 92، البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 2، ص 326.

(2) سورة التوبة، الآية 107.

(3) الشيخ الصدوق، الخصال ص 562، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 318، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 298، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 126.

(4) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 126، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 258، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 29، ص 59، ج 30 بأكمله.

المفاهيم الرئيسية

- بدأ رسول الله ﷺ بإرسال سرايا الدعوة والتبليغ، وأرسل إلى اليمن رسائل عدّة:
 - أ. أرسل النبي ﷺ رسله إلى أدواء اليمن وأقيالها لدعوتهم إلى الإسلام.
 - ب. عين النبي ﷺ الإمام علياً ﷺ على رأس سراياه إلى اليمن لمقاتلة عمرو بن معدي كرب، الذي اعتدى على المسلمين بعد ارتداده، فخرج الإمام علي ﷺ إلى بني زبيد، وخرج خالد بن الوليد إلى قبيلة جعفي، فافتقت فرقتين، فبلغ الإمام علياً ﷺ ذلك، فأرسل إلى خالد بالتوقف عن السير، فتمرد خالد فأرسل له خالد بن سعيد، فمنعه من السير، ثم قاتل عمراً وهزمه.
 - ج. كان خالد بن الوليد قد أصاب غنائم من مشركي اليمن، فأرسل إلى النبي ﷺ من يقبض منه ذلك، فأرسل له الإمام علياً ﷺ، فقسّم الغنائم.
- لقد كانت لغزوة تبوك أهداف عدّة، منها: تثبيت إمامة أمير المؤمنين ﷺ، نشر الإسلام في شمال الجزيرة العربية، مواجهة احتمالات الحرب من الشمال، حسم مادة النفاق في المدينة.
- لقد واجهت غزوة تبوك عقبات عدّة، وهي: الخوف والرعب من الروم، وأعمال المنافقين وتحركاتهم.
- خطوات الحفاظ على المدينة: أ. استخلاف الإمام علي ﷺ. ب. كشف زيف المنافقين.
- لما وصل النبي ﷺ إلى تبوك قام بأعمال عدّة، هي: بناء مسجد تبوك، عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع قبائل العرب، إرساله ﷺ رسالته إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام.
- كان لمعركة تبوك نتائج عدّة: شكلت نصراً على الإمبراطورية الرومانية، إسلام الكثير من القبائل العربية، بروز الإسلام كقوة منظمة في المنطقة.
- حاول المنافقون اغتيال النبي ﷺ في طريق العودة من غزوة تبوك إلا أن إرادة الله حالت دون ذلك وتمّ افتضاح أمرهم.

الدرس التاسع والعشرون

عام الوفود وتصفية الوجود الوثنيّ داخل الجزيرة

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف كليات السياسة العامّة لرسول الله ﷺ مع الوفود الوافدة.
2. يفهم فلسفة إعلان البراءة من المشركين وآثارها.
3. يشرح دور الإمام عليّ ؑ في اليمن.

تمهيد

ما إن استقرَّ النبي ﷺ قليلاً، حتّى بدأت الوفود تتقاطر عليه، معلنة استسلامها أو إسلامها على يديه، أو متظاهرة بذلك. وخلال هذه الفترة، كان النبي يتفقّد ما بقي من جيوب الشرك، ويرسل سراياه وبعوثه ورسله لتطهيرها وهداية أهلها. وارتاحت نفسه الشريفة وهو يرى أن بلاد العرب قد توحدت حول دين التوحيد، ولأول مرة في التاريخ، وبكلفة بشريّة لا تتجاوز أربعمئة قتيل، وبمدّة زمنيّة لم تتجاوز تسع سنين، واطمأن قلبه الطاهر وهو يرى دين الإسلام قد أصبح ديناً لكلّ سكّان بلاد العرب. وصرّح النبي علناً بأنّ الشيطان قد يئس من أن يُعبد في بلاد العرب، وكان فتح مكّة بأيدي المسلمين، ثمّ هزيمة التحالف الوثنيّ في حنين آخر ضربتين حاسمتين للوجود الوثنيّ في الجزيرة، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بسرعة إلى كل مكان. وأدركت القبائل العربيّة أن لا مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته المنفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلّها، فراحت تتسابق هذه القبائل في إرسال وفودها إلى قاعدة الإسلام، مدينة الرسول ﷺ لمبايعته على الإسلام أو مصالحته، وكانت كلّ هذه الوفود تأتي إلى المدينة بعنوان أنّها تتعهّد بإسلام قومها الذين لم يحضروا. ولكثرة هذه الوفود في العام التالي لفتح مكّة ومطلع العام الذي يليه سمّاه المؤرخون «عام الوفود».

السياسة العامّة لرسول الله ﷺ مع الوفود

خصّص النبي ﷺ داراً لنزول الوفود فيها، وهي دار رملة بنت الحارث. وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن يلتقوا برسول الله ﷺ. وحين كان يلتقي بهم كان يسألهم

عن أحوال بلادهم وشؤونهم، وكان غالباً ما يساعدهم بالدعاء لهم، وبالاستعانة بالقدرة الإلهية. وكان ﷺ يجيبهم عن مختلف تساؤلاتهم ويبدد شكوكهم وأوهامهم، وكان يغيّر أسماءهم الشخصية إذا كانت من مخلفات الجاهلية. ثم كان في النهاية يجيز لتلك الوفود بأواقٍ من الفضة، هديةً منه وعطاءً نبويّاً ترغيباً بالإسلام وتحبيباً بالنبي ﷺ، وحتى يُظهر لهم الكرامة الإلهية لكي يلمسوها بأنفسهم، ليسهل عليهم أمر الإيمان بالغيب، وبالرعاية الإلهية.

وربّما أعطى رسول الله ﷺ من هذه الهبات والهدايا زعيم القبيلة منهم أكثر من غيره من أفراد القبيلة، ولكن ذلك لم يكن تكريماً للزعامات الجاهلية، بل كان لا بدّ من الاعتراف به كواقع موضوعي قائم، ويسعى في الوقت نفسه إلى استصلاح تلك الزعامات، وإعطائها الفرصة لتغيير أوضاعها بما ينسجم مع دين الإسلام وثقافته الجديدة، وبما يخدم الأهداف العليا البعيدة المدى، إذ إنّ إسقاط تلك الزعامات دفعة واحدة لن ينتج إلا هرجاً ومرجاً، ودفح تلك الزعامات إلى العتب بأمن الناس وبراحتهم، وربّما السعي إلى تضليلهم، وإخراجهم من الإسلام في النهاية.

كذلك كان هناك محذور خطير من تجاوز الزعامات التقليدية للقبائل العربية، فإذا ظهر لقبائل العرب أنّ السياسة النبوية هي إسقاط الزعامات واستبدالها بأخرى، فسوف يصبح من الصعوبة بمكان اتّخاذ قرار بدخول القبائل في هذا الدين، خصوصاً إذا سعت تلك الزعامات إلى إبعاد أفراد قبيلتهم عن كلّ ما من شأنه أن يزعزع أركان زعامتهم، وسوف يتوسّلون من أجل ذلك إلى إثارة العصبية، وشحن النفوس، ممّا سوف يؤدي إلى أن يصبح دخول القبائل في الإسلام من أصعب الصعاب، وسوف يصبح السيف هو الوسيلة الوحيدة إلى ذلك، ولن يكون من السهل أن تقبل القلوب عليه، وهذا يتنافى مع المبدأ الإسلامي: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾⁽¹⁾.

كذلك كان النبي ﷺ يكتب لهم إقطاعاً ومراعيّاً لأنعامهم، ربّما لأن أهلها تركوها، أو

(1) سورة البقرة، الآية 256.

ليس لها من يهتمّ بها، أو ربّما كان هؤلاء هم الأقرب أو الأقدّر على إحيائها من غيرهم، فلم يعط أحدٌ حقاً لمسلم، كما أنّ هذا الإقطاع كان دائماً مشروطاً بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة، فمتى لم يقوموا بهذه الشروط سقطت مالكيّتهم.

وكان النبيّ ﷺ يشترط على وفود قبائل العرب ضيافة جيوش المسلمين في الكتب التي كان يكتبها لهم، حتّى يخفف عن تلك الجيوش، فلا تكلف بحمل زادها، وحتّى يضمن لها الدعم اللوجستيّ في كلّ مكان تصل إليه. كما كان ذلك يؤتي ثماره على مستوى تلك القبائل، فيصبح لها نحو مشاركة في الجهاد الإسلاميّ العام، ونصيب من التضحية في سبيل الله، وتترسّخ محبّتها للمجاهدين، ممّا سوف يرسخ الأخوة الإسلاميّة في المجتمع الجديد، ويزيل من القلوب روح العصبية الجاهليّة، والشحناء والحقد.

وفي النهاية، كان رسول الله ﷺ يؤمّر عليهم واحداً منهم، يكون نقيباً ومسؤولاً من قبله ﷺ عن أحوالهم وشؤونهم، وداعياً إلى الله تعالى في قبيلته، فإنّ الدعوة حين تأتي من خارج القبيلة تبقى هناك حالة من التراخي في مناصرتها، ولا تحظى بالحرص والاندفاع الذي تحظى به لو كان لها في داخل القبيلة مؤيد ونصير ومحسوب عليها. وكانت الوفود قد بدأت تردّ على رسول الله بعد عام الخندق، زرافات ووحداً، بعضهم يمثلون أنفسهم، وبعضهم يمثلون قبيلتهم، فقدمت قبيلة أشجع وقدم أبو صفرة على رسول الله ﷺ وبايعه، ثمّ وفد رفاعة بن زيد الجذامي، ثمّ وفد بني عامر وغيرهم⁽¹⁾.

بعثة الإمام عليّ عليه السلام إلى اليمن

بعد مرجع النبيّ ﷺ من تبوك في سنة تسع، كان أهل اليمن قد شعروا بحاجتهم إلى من يفقههم في الدين، فجاء وفد همدان إلى رسول الله ﷺ مع وفود وملوك حمير، وكان الواقد من كلّ بطن من همدان سيدهم. وكان مجموع وفد همدان مئة وعشرين نفساً، وطلبوا منه ذلك، فقالوا: «ابعث فينا من يفقهنا في الدين، ويعلمنا السنن، ويحكم

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص557، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص398، ابن هشام، السيرة النبويّة، ج4، ص992، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج7، ص185، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العامليّ، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج27، ص75، ج28 بأكمله.

فينا بكتاب الله»، فقال النبي ﷺ لعليّ ﷺ: «انطلق يا عليّ إلى أهل اليمن، ففقههم في الدين وعلمهم السنن، واحكم فيهم بكتاب الله». فقال عليّ ﷺ: «إن أهل اليمن قوم طعام، يأتوني من القضاء بما لا علم لي به».

فوضع يده على صدره وقال: «اذهب، فإن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك. يا عليّ، إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر»⁽¹⁾. فما شك عليّ ﷺ في قضاء بين اثنين⁽²⁾.

فكان الإمام عليّ ﷺ أول قاض بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، وليخمس ركازهم، ويعلمهم الأحكام، ويبيّن لهم الحلال والحرام، وإلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيّتهم.

مصالحة أهل نجران

تقع منطقة نجران على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن. وكل أهل نجران نصارى، صالحهم رسول الله ﷺ، وكتب إليهم قبل أن ينزل عليه: ﴿طَسَّ﴾⁽³⁾، و﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾⁽⁴⁾، ما يلي: «بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي إلى أسقف نجران وأهل نجران، إن أسلمتم فإنني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أما بعد، فإنني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام»⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص83، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص337، البيهقي، السنن الكبرى، ج10، ص140، النسائي، خصائص أمير المؤمنين ﷺ، ص12، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص236، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص259، ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار ص256، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص52، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص124.

(2) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج1 ص86.

(3) سورة النمل، الآية 1.

(4) سورة النمل، الآية 30.

(5) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص415، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص53، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص65، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج3، ص39، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص50.

فاجتمع زعماء نصارى نجران وحكماؤهم يتدارسون أمر كتاب النبي ﷺ الذي يدعوهم فيه إلى الإسلام، فأجمع أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وجماعة، فيأتينهم بخبر رسول الله ﷺ.

فاستقبلهم النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن، فامتنعوا وكثر الحجاج معهم. فلما أصبحوا عادوا إليه، فقرأ عليهم الآيات، فأبوا أن يقرؤوا. فأمر تعالى نبيه الكريم ﷺ بمباهلتهم، فأقبل رسول الله ﷺ مشتملاً على الحسن والحسين ﷺ في خميلة له، وفاطمة الزهراء ﷺ تمشي خلفه، وعلي بن أبي طالب ﷺ خلفها، فقال النبي ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»، «إن أنا دعوت فأمنوا أنتم»⁽¹⁾.

وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي ﷺ أقبل بمن معه، سأل عنهم فقيل له: «هؤلاء أعز الناس عليه، وأقربهم إلى قلبه»، فقال له أهل نجران: «لم لا تباهلنا بأهل الكرامة والكبر، وأهل الشارة ممن آمن بك واتبعك؟!»، فقال ﷺ: «أجل، أباهلكم بهؤلاء خير أهل الأرض، وأفضل الخلق». ولم يصحب النبي ﷺ أحداً من المسلمين سوى أهل بيته ﷺ هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقال أسقفهم: «إنني لأرى وجوهاً لو سألو الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا»⁽²⁾. وبعد امتناع وفد نصارى نجران عن الدخول في الملائنة، وتقرر ضرب الجزية عليهم، انصرفوا. وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً أقرهم فيه على دينهم، ولم يتدخل في شؤونهم،

(1) ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص132، ص188، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص45، ص129، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6 ص419، ص64.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص104، العياشي، تفسير العياشي، ج1، ص176، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص166، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج7، ص120، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص54، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج3، ص368، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، دلائل النبوة، لات، لاط، ص298، الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج1، ص123، الخوارزمي، المناقب، ص59، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص14، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص150، ابن الأثير، أسد الغابة، ج4، ص26، البيهقي، السنن الكبرى، ج7، ص63، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج2، ص485، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص392.

فأعطاهم ذمته في أمور كثيرة كلها لمصلحتهم، وكان الكاتب لهذا الكتاب هو علي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قبض النجرانيون كتابهم انصرفوا إلى نجران⁽¹⁾.

إعلان البراءة من المشركين

1. فلسفة إعلان البراءة من المشركين:

فُتحت مكة في سنة ثمان، وانتشرت العقيدة الإسلامية في الجزيرة العربية، وكان لا بد من إعلان صريح حازم يلغي كل مظاهر الشرك والوثنية في مناسك أكبر تجمع عبادي سياسي، فقد كان المشركون يحجون مع المسلمين ويعارضونهم برفع أصواتهم ليغلطوهم بذلك، وكان العهد بين رسول الله ﷺ والمشركين عاماً وخاصاً؛ فالعام أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم، فانتقض ذلك بسورة براءة. والخاص بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب إلى آجال مسمّاة⁽²⁾.

ثم جاء الحكم الإلهي الصريح بشأن البراءة من الشرك والمشركين، حين نزول سورة براءة، فلم ينقض رسول الله ﷺ عهداً مع أحد، عاماً كان أو خاصاً، بل أعلن، تبعاً لآيات سورة براءة، أن كل من كان بين النبي وبينه عهد فعهدته باقٍ إلى انتهاء مدته، ولكن مع المنع من تجديد العهد معه. وأما من لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر من أجل إعطاء المشركين مهلة لكي يحسموا خياراتهم بروية وهدوء، بعيداً عن أي ضغط أو إكراه. وفي السنة التاسعة للهجرة في ذي الحجة، اختار النبي ﷺ يوم النحر في منى مكاناً لإعلان البراءة.

2. رسول الله ﷺ يكرّس خلافة الإمام علي عليه السلام :

لم يكن تبليغ سورة «براءة» تبليغاً عادياً؛ لأن النبي ﷺ أرسل مئات الرسائل مع

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج2، ص82، البلاذري، فتوح البلدان، ج1، ص78، الحموي، معجم البلدان، ج5، ص269، ابن أبي شيبة، المصنف، ج14، ص550.

(2) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص275.

مختلف الأشخاص إلى الملوك، وإلى القبائل، والبلاذ، والفئات والجماعات، وقد كان هذا تبليغاً عنه، ولم يكن هو شخصياً المبلِّغ ولا رجل منه. بينما كان المقصود من تبليغ سورة «براءة»، التبليغ عنه في ما هو من شأنه كمبلِّغ عن الله، وهذا يرتبط بالشريعة والكتاب، وليس ما كان رسول الله ﷺ يبعث الرسل فيه من هذا القبيل.

فإن الذين كان يرسلهم إلى الملوك والجماعات برسائله لم يكونوا هم الذين يبلِّغون عنه، بل كانت الرسالة هي التي توصل مراد رسول الله ﷺ إلى الأشخاص أو الجماعات. وأمّا في تبليغ سورة «براءة»، فقد كان المطلوب من حامل الآيات أن يتولّى هو مهمّة التبليغ عن رسول الله ﷺ، وأن يعلن الحرب على من يصرّ على انتهاك حرمة المسجد الحرام بعد ذلك العام، وأن يبلِّغ أحكاماً وقرارات حازمة وحاسمة، ترتبط بمستقبل الدولة الإسلاميّة، وتقطع أمل كل أهل الشرك من أن يجدوا في الإمام الخليفة بعد النبي ﷺ أدنى ضعف أو خور أو تعاطف معهم بعد وفاته، وأن تقطع قريش أملها بمجيء خليفة خاضع لها، وأن الخليفة بعد النبي هو هذا الخشن في ذات الله، والذي لم يشرك بالله طرفة عين، والذي هو نفس الرسول ﷺ بنص القرآن، وهو أخوه، وهو منه بمنزلة هارون من موسى.

فإذا كان عليّ بن أبي طالب هو المبلِّغ عن رسول الله ﷺ فإنه سوف يكون هو الأعمق أثراً، وهو الأولى بإعلان براءة الله ورسوله من الشرك والمشركين.

فقد نزل جبريل على رسول الله ﷺ وقال له عن «براءة»: «يا محمد، إن الله تعالى يأمرك أن تبعث عليّاً بن أبي طالب، وإنه لا يؤديها عنك غيره».

فولّى رسول الله عليّاً بن أبي طالب الموسم، وانطلق عليّ بن أبي طالب ﷺ يرافقه عمّار بن ياسر. ودخل الإمام مكة، وأخذ الصحيفة، وأتى الموسم، وكان يطوف على الناس، وأبلغ الناس سورة «براءة».

ولمّا أذن عليّ بن أبي طالب بـ«براءة» في مكة أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك

العام، جزعت قريش جزءاً شديداً. وبعد أن انتهى عليّ عليه السلام من تبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله انصرف إلى المدينة يقصد في السير، وخرج أبو ذر يستقبل علياً عليه السلام فلقيه ببعض الطريق، فالتزمه وقبّله، وسبقه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وبشّره بقدومه، فقال النبي لأبي ذر: «لك بذلك الجنة».

ثم ركب النبي صلى الله عليه وآله وركب معه الناس، فلما رآه أناخ ناقته، ونزل رسول الله، فتلقاه، والتزمه وعانقه، ووضع خده على منكب عليّ عليه السلام، وبكى النبي صلى الله عليه وآله فرحاً بقدومه. وبكى عليّ عليه السلام معه. ثم سأله عما صنع، فأخبره قائلاً: «كان الله عزّ وجلّ أعلم بك منّي حين أمرني بإرسالك»⁽¹⁾.

(1) السيد ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القويمي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هـ ط 1، ج 2، ص 39، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 5، ص 9، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 169، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 51، الحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل، ج 1، ص 318، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 35، ص 288، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 30، ص 233.

المفاهيم الرئيسية

- بدأت الوفود تتقاطر على النبي ﷺ في المدينة، فخصّص لها داراً لنزلها، وكان النبي ﷺ يجيب أفرادها عن مختلف تساؤلاتهم ويبدد شكوكهم، وكان قد كتب لهم إقطاعاً ومراعياً لأنعامهم، وكان يشترط عليهم ضيافة جيوش المسلمين، وكان يجعل عليهم نقيباً له فيهم.
- كان أهل نجران من النصارى، فكتب لهم النبي ﷺ كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، فتدارسوا كتاب النبي ﷺ، وأرسلوا له وفداً، فاستقبلهم ﷺ وعرض عليهم الإسلام، وجرت الأيام إلى زمن حصول المباهلة، فقبلوا بها، فخرج النبي ﷺ وأخرج معه الإمام علياً ؑ والسيدة فاطمة والإمامين الحسنين ؑ، فلما رأى نصارى نجران ذلك، امتنعوا عن المباهلة، وقبلوا بدفع الجزية.
- بعد استقرار الإسلام، نزلت على النبي ﷺ سورة براءة، فقرر ﷺ أن يعلن البراءة من الشرك والمشركين، على أن من كان له عهد يستمرّ عهده حتى تنتهي مدته، ومن ليس له عهد فلا عهد له. فلم ينقض النبي ﷺ عهداً مع أحد من الناس، وقد كان وقت إعلان البراءة في موسم الحجّ، حتى يعلم بذلك كلّ الناس.
- لم يكن تبليغ براءة أمراً عادياً، بل كان يمثل حدثاً مهماً وحساساً على المستوى الإسلام، فلا بد أن من يبلغ عن النبي ﷺ من يكون من شأنه أن يبلغ عن الله تعالى.
- إن في تبليغ سورة براءة تكريساً لخلافة الإمام علي ؑ، فسوف تعلم قريش أنّ علياً ؑ هو الممثل الرئيس للنبي ﷺ في هكذا مواقف تحتاج إلى أن يكون النبي ﷺ حاضراً بنفسه فيها.
- بأمر من النبي ﷺ تولى الإمام علي ؑ موسم الحجّ، وأخذ سورة براءة وبلغها للناس كافة، فجزعت قريش من ذلك جزعاً شديداً. ولما قدم الإمام علي ؑ إلى المدينة فرح النبي ﷺ بقدومه حتى خرج من المدينة واستقبله خارجها.

الدرس الثالثون

رسول الله ﷺ ومستقبل الدولة الإسلامية (حجة الوداع وإعلان خلافة الإمام

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

(عليّ)

1. يشرح أهداف ونتائج ما قام به النبي ﷺ في حجة الوداع.
2. يعرف مجريات يوم الغدير.
3. يحفظ خطبة الغدير للنبي ﷺ.

تمهيد

بعد أن أنهى النبي ﷺ وجود قريش السياسي بفتح مكة، كانت الأمة بحاجة إلى تجمّع جماهيري كبير وحاشد، يستطيع فيه رسول الله ﷺ أن يبلغ أكبر قدر ممكن من أبناء الإسلام تعاليم دينهم، وأن يتعرفوا بأجمعهم تلك المعالم، وأن يروا رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ يرغب في أن يستفيد من هذا التجمّع الكبير في شأن مستقبل الأمة الإسلامية، فيحفظ بذلك الأمة من الضياع من بعده من خلال الحفاظ على مستقبلها السياسي والديني بإبلاغها أمر الولاية، وتعريفها بالإمام عليّ ﷺ، وأنه خليفة الأمة، ولا يمكن أن يتحقّق ذلك من خلال إرسال رسائل للأمة عبر الرسل، بل لا بدّ أن ترى الأمة، كلّ الأمة، شخص عليّ ﷺ وتبايعه، وكلّ ذلك إنّما يمكن أن يحصل من خلال البيعة العامة في ظلّ الحشد الجماهيريّ في موسم العبادة.

حجّة الوداع: الأسباب الدينيّة والهدف التاريخي

كان رسول الله ﷺ قد اعتمر ثلاث عمر متفرّقات، هي: الحديبية، والقضاء، والجعرانة، بعد رجوعه من الطائف من غزوة حنين⁽¹⁾، حتّى كان في ذي القعدة سنة عشر فأجمع الخروج إلى الحجّ، فأذن في الناس أنّه حاجّ في هذه السنّة حجّة الوداع، وقد سمّي هذا الحجّ بحجّة الوداع؛ لأنّه ﷺ ودّع المسلمين في هذه الحجّة التي أشاعوا فيها دنو وفاته، كما سمّيت بحجة البلاغ؛ لأنّه ﷺ بلغ فيها ما أنزل إليه من ربّه في شأن الخلافة من بعده، ومنهم من سماها بحجّة الإسلام لأنها الحجّة الأولى للنبي ﷺ، والتي

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص152، الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص235.

بين فيها أحكام مناسك الحجّ، والكثير من تعاليم الدين الإسلاميّ وأحكامه، خاصّة وأنّ معظم الناس كانوا قد أعلنوا إسلامهم بعد فتح مكة، وكان إسلام الأكثرين منهم سطحياً، حيث لم يكونوا يعرفون عن هذا الدين الشيء الكثير؛ لأنّهم كانوا يعيشون في بواديهم، ووفق تقاليدهم الجاهليّة، وعاداتهم القبليّة. وكان هناك طامعون وطامحون قد أدكى طموحهم هذا التوسّع السريع والهائل للإسلام. ولهذه الحجّة الكثير من الأهداف والنتائج من أهمّها إظهار عظمة الإسلام، وتولية خليفة للمسلمين.

فقد أراد رسول الله أن يُظهر العظمة التي وصل إليها الإسلام لكلّ الناس، وخصوصاً أولئك المتمردين منهم، والمنافقين، والذين يحملون بالارتداد على الإسلام عند أوّل فرصة تسنح لهم، وأن يظهر أيضاً أنّ موازين القوى قد انقلبت لمصلحة الإسلام إلى غير رجعة، ثمّ أراد، أخيراً لا آخراً، تعليم أمة الإسلام مناسك الحجّ المحمديّ الأصيل؛ لأنّ الحجّ عبادة أمميّة جماعيّة عامّة، وهو عنوان وحدة الأمة، وأعظم شعار عليّ للتوحيد عبر العصور.

وإلى جانب كلّ تلك الأمور، كان هناك السبب الرئيس، ألا وهو إعلان الولاية الكبرى والإمامة الإلهيّة على الناس، وتعيين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إمام هدىّ للأمة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله. فقد أراد النبيّ صلى الله عليه وآله الاستفادة من الحضور الكثيف في الحجّ، والذي يعدّ أعظم حشد جماهيريّ لأمة موحّدة لله منذ آدم، فتضمّنت هذه الحجّة التأكيد على أمور أساسيّة وحساسة جدّاً، ومصيريّة، أهمّها التأكيد على إمامة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وإعلانها رسمياً في أعظم تجمّع بشريّ يمكن أن يحصل في تاريخ جزيرة العرب وفي تاريخ الدعوة الإسلاميّة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد كتب إلى من بلغه كتابه، ممّن دخل الإسلام: «إنّ رسول الله يريد الحجّ في تلك السنة»⁽¹⁾، حتّى بلغت دعوته إلى أقاصي بلاد الإسلام، فأقبل الناس،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص245، ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة، ج1، ص649.

وتجهّزوا للخروج معه، فخرج بهم، وأخرج معه نساءه كلهنّ في الهوداج، وسار معه أهل بيته، والمهاجرون والأنصار عامّة⁽¹⁾.

وجعل رسول الله ﷺ على المدينة أبا دجاجة، سماك بن خرشة الساعديّ، وخرج نهاراً لأربع بقين من ذي القعدة. فلما انتهى إلى ذي الحليفة زالت الشمس، فاغتسل، ثمّ صلى الظهر في مسجد الشجرة، وأحرم، وأهلّ بالحجّ، فلبّى بالحجّ قارناً، ومضى ﷺ يسير المنازل، ويؤمّ أصحابه في الصلوات. وكان الصحابة يبنون مساجد في المواضع التي كان يصليّ فيها يتبرّكون ويتأسّون به، بمرأى وبمسمع من النبيّ نفسه⁽²⁾.

رسول الله ﷺ في مكة

1. تعليم الناس مناسك الحجّ:

دخل رسول الله ﷺ ومعه المسلمون إلى مكة لأربع مضيّن من ذي الحجّة. فلما انتهى إلى باب المسجد الحرام، وهو الذي تسمّيه الناس «باب بني شيبية»، استقبل الكعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وأدى ﷺ بعض مناسك الحجّ، وفي كلّ موقف كان يعلمّ المسلمين أحكام الحجّ. وكان ﷺ يقول للناس حين وصوله إلى مكة، وشروعه بالأعمال، بل قبل ذلك: «خذوا عني مناسككم، فإنّي لا أدري لعليّ لا أحجّ بعد حجّتي هذه»⁽³⁾.

2. خطبة النبيّ ﷺ في عرفات:

في عرفات، نزلت على النبيّ ﷺ سورة المائدة، فقرأها النبيّ ﷺ على الناس، وجاءه جبريل يأمره عن الله بإعلان ولاية أمير المؤمنين على الناس، وكان رسول الله ﷺ يخشى

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص171، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص80، ص396، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج3، ص225.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص233، الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج2، ص412، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج5، ص454، ابن إدريس الحلبي، محمد بن أحمد، مستطرفات السرائر، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1411هـ، ط2، ص591، العياشي، تفسير العياشي، ج1، ص89، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج8، ص459.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص245، الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق ونشر: دار الحرمين، 1995م، لا، ط، ج3، ص238.

قومه من قريش، ويهابهم، ويخاف أهل النفاق والشقاق أن يتهموه، ويكذبوه، فقال: «إن قومي قريبو عهد بالجاهلية، وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليهم، وإنني أخاف متى أخبرتهم بهذا في ابن عمي أن يقول قائل: حابي ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك...»⁽¹⁾.

ثم قام النبي ﷺ قبل زوال الشمس، وهو على راحلته القصواء، وخطب في الناس خطبة عظيمة، بين فيها معالم الدين وفضل أهل البيت ﷺ. ثم بدأ رسول الله ﷺ يتعرض لموضوع الإمام، وهنا ضج الناس وصرخوا، وكبروا ثم أخفي صوت النبي ﷺ، ثم لغط القوم وتكلموا، فجعل الناس يقومون ويقعدون، ولم يفهم قول رسول الله ﷺ بعد (كلمة)؛ فقد تكلم بكلمة لم يفهمها، ولم يسمع ما قال. فقال جابر بن سمرة لأبيه، وكان أقرب إلى راحلة رسول الله ﷺ منه: «ما قال رسول الله؟ ما بعد كلهم؟»، فقال له: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من قريش كلهم من بني هاشم»⁽²⁾.

3. خطبة رسول الله ﷺ في منى:

بعد أن رمى النبي ﷺ الحجرات، رجع إلى منى، ثم خطب في الناس، وبعد أن علمهم الكثير من معالم الدين ومناسك الحج، وبين شأن الولاية قال: «أيها الناس، إن الله عز وجل أمرني أن أنصب لكم إمامكم، والقائم فيكم بعدي، ووصيي، وخليفتي، والذي فرض الله عز وجل على المؤمنين في كتابه طاعته، فقرب بطاعته طاعتي، وأمركم بولايته، وإنني راجعت ربي خشية طعن أهل النفاق وتكذيبهم، فأوعدني لأبلغها، أو

(1) راجع: الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص67، ابن طاووس، علي بن موسى، اليقين، الأنصاري، مؤسسة دار الكتاب، 1413هـ، ط1، ص343، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج2، ص15، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج46، ص318، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج2، ص15، الطبري، جامع البيان، ج6، ص54، وص106، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج3، ص223.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص384، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ج1، ص272، ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405هـ، لا، ط، ج12، ص343، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج6، ص4، السجستاني، سنن أبي داود، ج4، ص106، الشيخ الطوسي، الغيبة، ص88، وص129.

ليعذبني»⁽¹⁾. ولكن ما جرى في عرفات جرى أيضاً في منى، فقد تجرّوا على الله تعالى وعلى النبي ﷺ، وحاولوا أن يمنعوا الناس من الاستماع والإنصات إليه ﷺ. وفور انتهاء مراسم الحجّ مباشرة، ومن دون إبطاء، نفر النبي ﷺ والمسلمون في اليوم الثالث عشر من منى بعد الزوال. ولم يطف بالبيت، ولا زاره، بل هو لم يدخل إلى المسجد الحرام أصلاً، ولو لإلقاء نظرة الوداع على بيت الله تبارك وتعالى⁽²⁾.

غدير خمّ والبيعة للإمام عليّ ﷺ

1. مشروع قريش:

حينما انضمت قريش إلى العائلة الإسلاميّة العامّة أخذت تنفّذ مشروعها الكبير والخطير، وبدأت تعارض المشروع الإلهي، وتحاول إعاقته ومنعه من التنفيذ، تارة باتهام شخص النبي ﷺ عبر الطعن والتشكيك في نزاهته، وأخرى في خلوص عمله وثيئته، وثالثة بأنه يتأثر في كلامه بالرضا والغضب. وقد ظهر ذلك جلياً حينما اضطرّ ﷺ لتأخير إبلاغ ما أنزل إليه في شأن الإمامة والولاية، بسبب المعارضة الكبيرة التي وجدها لدى قريش، والتي لم تتورّع عن مواجهته بالضجيج والصخب، ووقفت في وجهه مباشرة، وسعت لعرقلة حركته، ومنعه من بيان أمر الإمامة، وإقامة الحجّة فيها. وجاء التخطيط النبويّ الحكيم ليقضي بأن يخرج ﷺ من مكة فور انتهاء مراسم الحجّ مباشرة كما تقدّم؛ لأنّ أيّ تأخير سوف يكون معناه أن يخرج أشتات من الناس إلى بلادهم، ولا يتمكن النبي ﷺ من إيصال ما يريد إيصاله إليهم.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص214، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص277، ابن طاووس، علي بن موسى، التحصين، تحقيق: الأنصاري، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، مؤسسة دار الكتاب، قم، إيران، 1413، ط1، ص634.

(2) البيهقي، السنن الكبرى ج3، ص149، الشيخ الكليني، الكافي، ج4، ص248، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج5، ص457، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبيّ الأعظم، ج30، ص235، ج31، ص7.

2. الأمر الإلهي بضرورة تبليغ ولاية الإمام عليّ عليه السلام :

خرج رسول الله ﷺ من مكة آملاً أن يتمكن من إبلاغ أمر الولاية للناس، مع خوفه الشديد أن تعيد قريش الكرة من جديد. وفي طريق العودة إلى المدينة وجموع المسلمين تحفه من كل جانب، كان النبي ﷺ يحتاج إلى ما يطمئنه إلى عدم إثارة قريش للشبهات التي تضيّع جهده، فاحتاج إلى طلب العصمة من الله سبحانه، فسأل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس. فلما بلغ مسجد الخيف، جاءه جبرئيل، وأمره بضرورة إبلاغ شأن الولاية، ولم يأت به بالعصمة، ثم جاء مرة أخرى في كراع الغميم، موضع بين مكة والمدينة، وأمره بذلك، ولكنه لم يأت به بالعصمة⁽¹⁾.

ويظهر أن قريشاً قد أحسّت بأن رسول الله ﷺ يخطط لأمر مهم خارج مكة. وقبل افتراق الناس وبعد أن اتّم المسلمون حجهم الأكبر، وحينما بلغ الكديد، جعل ناس من أصحابه يستأذنون، في محاولة منهم لفرط الجمع الذي ينوي رسول الله الاستفادة منه، أو للفرار من مسؤوليّة الاستماع لتبليغ الإمامة. فجعل ﷺ يأذن لهم، وقال متضامياً من تصرفهم: «ما بال شقّ الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشقّ الآخر؟». فجعل المخلصون منهم، ولعلهم الذين كانوا يعلمون بخطته من مقربي أصحابه يبكون تأثراً⁽²⁾.

ومع ذلك، فقد أصرّ النبي ﷺ على خطته، وقطع المسافة ما بين مكة والجحفة، حيث غدير خم، بسرعة قياسية، من أجل الابتعاد عن مركز الثقل النفاقي في مكة قدر الإمكان، وللحاق بأعداد المسلمين الراجعة إلى مدنها وقراها. ولما بلغ موكب الحجيج العظيم «رابغ» قرب «غدير خم»، قريباً من الجحفة، التي تتشعب فيها طرق المدنيين

(1) ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص 107، الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 73، السيد ابن طاووس، اليقين، ص 349.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج 4، ص 16، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 1، ص 20، ج 10، ص 408، الضحاك، عمرو بن أبي عاصم، الأحاد والمثاني، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الدراية، 1991م، ط 1، ج 5، ص 24، الأمير علاء الدين علي بن بلبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، 1993م، ط 2، ج 1، ص 444، الطبراني، المعجم الكبير، ج 5، ص 51.

والمصريين والعراقيين، وقبل أن يتفرقوا إلى بلدانهم من هذه المنطقة، وذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجة، جاءه جبرائيل بالعصمة في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾⁽¹⁾، وأمره أن يقيم علياً عليه السلام علماً للناس، ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية، وفرض الطاعة على كل أحد.

أزال الله بهذه الآية الشريفة ذلك الخوف وتلك الهيبة التي كانت في صدر النبي ﷺ من قريش والمنافقين ومخططاتهم، وكانت هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه⁽²⁾. وهذه الآية، وإن كان الخطاب فيها للنبي ﷺ، فإن المقصود منها أولئك الذين كان يخشاهم رسول الله ﷺ كما صرح به هو نفسه ﷺ، فلم يكن النبي ﷺ ممتنعاً عن الإبلاغ، ولكنه كان ممنوعاً منه.

3. رسول الله ﷺ وإعلان الولاية:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى الجحفة، كان أوائل القوم قريباً من الجحفة. أمر رسول الله ﷺ أن يردّ من تقدّم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، وكان ذلك داعياً إلى إثارة فضولهم واهتمامهم لمعرفة ما الغاية من فعل النبي ﷺ، وكان في المكان بضع شجرات، نهى رسول الله ﷺ المسلمين من النزول تحتها، ثم أزيل الشوك من تحت تلك الأشجار، وتمّ تمهيد المكان، ونودي بالصلاة، فعمد رسول الله ﷺ إلى الشجرات، فصلّى بالناس تحتها، وكان موقفه وموقعه ظاهراً للناس؛ بحيث إنه ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينه، وسمعه بأذنيه⁽³⁾.

(1) سورة المائدة، الآية 67.

(2) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج3، ص223، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص69، والشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج3، ص588.

(3) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج12، ص226، النسائي، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، ص21، البيهقي، السنن الكبرى، ج5، ص130، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص235، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج9، ص164، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص416، الخوارزمي، المناقب، ص154، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص228، البلاذري، أنساب الأشراف، ص111.

وفوجئ النبي ﷺ هناك أيضاً بأن حركة النفاق أدركت سرَّ حركته السريعة، وأنها ارتبكت في تنظيم حركتها، فارتكبت خطأ كشف حقيقتها حين نزل بخم، ونزل معه علي بن أبي طالب، فقد تنحى الناس عنه، وشقَّ على النبي تأخر الناس، فأمر علياً، فجمعهم. ولما اجتمعوا قام فيهم متوسداً يد علي بن أبي طالب ﷺ، وخطب في الناس إلى أن قال: «...، فاعلموا معاشر الناس، فإن الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً، وفرض طاعته على كلِّ أحد، ماض حكمه، جاز قومه، ملعون من خالفه، مرحوم من صدقه، اسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم، وعلي إمامكم، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة، لا حلال إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حرام إلا ما حرم الله ورسوله وهم».

ثم أخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب ﷺ، فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: «أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟»، قالوا: «الله ورسوله أعلم». قال: «إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن كنت مولاه فعلي مولاه فليبلغ الشاهد الغائب»⁽¹⁾.

ثم قال: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، والعن من أنكره، واغضب على من جحد حقه، فهو أفضل الناس بعدي، ما نزل الرزق، وبقي الخلق، ملعون من خالفه، قولي عن جبرئيل عن الله، فلتنظر نفس ما قدمت لعد»⁽²⁾.

فعند ذلك، بادر الناس بقولهم: «نعم، سمعنا وأطعنا لما أمرنا الله ورسوله، بقلوبنا، وأنفسنا، وألسنتنا، وجميع جوارحنا».

ثم انكبوا على رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب ﷺ، وكان أول من صافق

(1) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة، ج1، ص238، ابن شاذان، شاذان بن جبرئيل القمي، الروضة في فضائل أمير المؤمنين، تحقيق: علي الشكرجي، ل.د، 1423هـ ط1، ص118، السيد ابن طاووس، سعد السعود ص71، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص34.

(2) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص133، السيد ابن طاووس، التحصين، ص579، الفتال النيسابوري، محمد بن الفتال، روضة الواعظين، منشورات الشريف الرضي، قم، ل.ت، ل.ط، ص100.

رسول الله أبو بكر وعمر، وطلحة والزبير، ثم باقي المهاجرين والأنصار وباقي الناس على طبقاتهم، ومقدار منازلهم، إلى أن صلوا الظهر والعصر في وقت واحد، والمغرب والعشاء الآخرة في وقت واحد، ولم يزلوا يتواصلون البيعة والمصافحة ثلاثاً، ورسول الله كلما بايعه فوج بعد فوج، يقول: «الحمد لله الذي فضلنا على جميع العالمين»⁽¹⁾.

ثم قال الشاعر حسان بن ثابت، يريد تسجيل حادثة الغدير في سجل الأدب والتاريخ: «أذن لي يا رسول الله أن أقول في عليّ أبياتاً تسمعهنّ». فقال: «قل على بركة الله». فقام حسان، وقال: «يا معشر مشيخة قريش، أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية». ثم قال:

«يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم فأسمع بالرسول مناديا»
يقول: «فمن مولاكم ووليكم»؟ فقالوا ولم يُبدوا هناك التعاميا
«إلهك مولانا وأنت ولينا ولم تر منا في الولاية عاصيا»
فقال له: «قم يا عليّ فأني رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاة فهذا وليه فكونوا له أنصار صدق مواليا»
هناك دعا: «اللهم وال وليه وكن للذي عادا علياً معاديا»

ثم تفرقت جموع الحجيج من غدير خم نحو العراق والشام واليمن، ويمّم النبي ﷺ بأصحابه صوب المدينة⁽²⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج1، ص84، واليقين لابن طاووس، ص360.
(2) الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، تقديم: السيد أحمد الحسيني، إعداد: السيد مهدي الرجائي، دار القرآن الكريم، قم، إيران، 1405 هـ لاط، ج4، ص131، السيد ابن طاووس، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الجمل، مكتبة الداوري، قم، إيران، لات، لاط، ص117، الخوارزمي، المناقب، ص136، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص670، القتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص103، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص177، وأقسام المولى، ص35، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص230، الكراچي، كنز الفوائد، ص123، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، مسار الشيعة، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص39، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج1، ص262، المشغري، الدرّ النظيم، ص253 و396، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج31، ص119، ج32، ص7.

المفاهيم الرئيسية

- قرر النبي ﷺ أن يذهب إلى بيت الله الحرام حاجاً بعد تبليغ سورة براءة، فخرج حاجاً، وقد سميت هذه الحجة «حجة الوداع»؛ لأن النبي ﷺ ودّع المسلمين في هذه الحجة، وسمّيت «البلاغ»، لأنه ﷺ بلغ فيها ما أنزل عليه في شأن خلافة الإمام عليّ ﷺ، وسمّيت «بحجة الإسلام»؛ لأن النبي ﷺ بلغ فيها الكثير من أحكام الدين الإسلامي.
- لقد كان لهذه الحجة العديد من الأهداف والنتائج، والتي كان من أهمها إظهار عظمة الإسلام، وتولية خليفة المسلمين الخلافة قبل وفاة النبي ﷺ؛ فلقد كان إعلان الولاية الكبرى على الناس وتعيين الإمام عليّ ﷺ خليفة أمام جميع الناس بمثابة تأكيد على أهمية هذه البيعة وعظمتها، حيث كان النبي ﷺ قد كتب بهذه الحجة إلى كل من بلغه كتابه وكان قد دخل في الإسلام.
- رسول الله ﷺ في مكة المكرمة: لما وصل النبي ﷺ إلى مكة المكرمة قام بأعمال عدة، منها:
 - أ. تعليم الناس مناسك الحج.
 - ب. خطب في الناس في عرفات، وأبلغ الناس أن الأئمة من قريش من بني هاشم.
 - ج. خطب النبي ﷺ في منى وعلمهم الكثير من تعاليم الدين، وبيّن أهمية شأن الولاية.
- غدِير خَمِّ والبيعة للإمام عليّ ﷺ:
 - أ. مشروع قريش: عملت قريش على معارضة المشروع الإلهي بتعيين الإمام عليّ ﷺ خليفة على المسلمين.
 - ب. كان الأمر الإلهي للنبي ﷺ حاسماً بضرورة التبليغ، وأن الله سيعصمه من الناس؛ ولذا حاولت قريش التهرب من التبليغ والخروج بسرعة من موسم الحج، فقطع النبي ﷺ المسافة بسرعة حتى وصل إلى غدِير خَمِّ، فأمر باجتماع الناس، وصنع له منبر، فوقف هو والإمام عليّ ﷺ عليه، وبيّن للناس ولايته عليهم، ثم بيّن لهم أنّ ولاية الإمام عليّ ﷺ هي فرع ولايته عليهم، فقبل الناس بذلك، وبايعوا الإمام علياً ﷺ.

الدرس الواحد والثلاثون

رحيل المصطفى ﷺ

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أسباب تجهيز جيش أسامة.
2. يشرح ملابس كتابه وصية رسول الله ﷺ.
3. يوضح مجريات تغسيل رسول الله ﷺ ودفنه.

تمهيد

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة في العشرة الأخيرة من شهر ذي الحجة؛ حيث مكث حتى انتقاله إلى المأ الأعلى. وكان رسول الله ﷺ، بعد أن انبسط سلطان الدين الإلهي في ربوع الجزيرة العربية، يعمل جاهداً لأن يهيئ الظروف لتلقي الأمة فاجعة الرحيل عنها، وكذلك عمل على تهيئة الظروف المناسبة لإبعاد شبح قريش عن المدينة المنورة لإتمام عملية انتقال الخلافة بطريقة سلمية وسلسلة منه إلى الإمام عليّ ؑ؛ لأنه كان يعلم جيداً أن قريشاً سوف تسعى جاهدة لمنع تسلّم الإمام عليّ ؑ الخلافة من بعده.

جيش أسامة وخلافة الإمام عليّ ؑ

1. التخطيط النبوي لانتقال الخلافة:

كان النبي ﷺ يخطط لتهيئة الجو السياسي في المدينة لتولي الإمام عليّ ؑ الخلافة من بعده خوفاً من وجود أشخاص، وحصول أحداث، سوف تعيق تسلّم وصيه عليّ ؑ زمام الدولة من بعده. واعتبر رسول الله ﷺ أن المدينة لو خلت من المنافسين والمناوئين للإمام عليّ ؑ، فسوف تتم له البيعة بطريقة سلمية وسريعة، فلا يتهيأ لأحد فسخها، ومنازعة الإمام عليّ ؑ فيها. وكان الحل المناسب لتنفيذ ذلك هو تشكيل حملة عسكريّة، يأمر رسول الله ﷺ الذين يريد أن يكونوا خارج المدينة عند موته بالسير فيها.

2. تأمير أسامة وإخراج كبار الصحابة:

تنفيذاً للتخطيط النبوي لانتقال الخلافة للإمام عليّ عليه السلام، أمر رسول الله بالتهيؤ لغزو الروم، وأهل أبني خاصة؛ لأنهم كانوا معلنين الحرب على الإسلام وأهله، وقد كان لهم دورٌ بارزٌ في مؤتة، فدعا أسامة بن زيد، وقال له: «يا أسامة، سر على اسم الله وبركته، حتى تنتهي إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فاغزُ صباحاً أهل أبني⁽¹⁾، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن أظفرك الله، فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع أمامك».

ثم عقد له لواءً بيده، فخرج أسامة بلوائه معقوداً، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدبه رسول الله ﷺ في تلك الغزوة، منهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم⁽²⁾.

وكان تأمير أسامة وهو شابٌ ابن سبع عشرة سنة⁽³⁾ لم يخض حرباً، ولم يتسلم قبل ذلك قيادة، على جيش يضم كبار الصحابة، من شيوخ الأنصار والمهاجرين، والزعماء، والقادة، صعباً وثقيلاً على قلوبهم، وفيه إشارة بليغة إلى أهمية الكفاءة في القيادة، ودليلاً عملياً على أن النبي ﷺ أراد أن ينسف قاعدة الشهرة، وكبر السن، والانتماء إلى عشيرة معينة، في استحقاق الإمارة والولاية، وحتى لا يستطيع أن يحتج من يريد أن يحتج على تولية عليّ بن أبي طالب عليه السلام الإمامة بأنه صغير السن.

3. الإمام عليه السلام يبقى في المدينة:

من جملة تخطيط رسول الله ﷺ أنه لم يجعل علياً عليه السلام في ذلك الجيش؛ لأن

(1) أبني: ناحية بالبقاء بين عسقلان والرملة، وهي قرب مؤتة.

(2) العيني، عمدة القاري، ج18، ص76، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج2، ص352، الواقدي، المغازي، ج3، ص1117، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص190، السجستاني، سنن أبي داود، ج3، ص38، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج5، ص205، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج2، ص54، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص248.

(3) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج1، ص34، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص46، يعقوبي، تاريخ يعقوبي، ج2، ص113، ابن الأثير، أسد الغابة، ج1، ص64.

عليّاً عليه السلام لم يكن في جيش إلا وهو أميره، ولو كان في هذا الجيش لكانت الإمارة له لا لسواه⁽¹⁾، ولأنه هو المقصود أولاً بالإبقاء في المدينة لتسنم منصب الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأبقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً في المدينة شيعة عليّ عليه السلام ومحبيه، ولم ينتدبهم في هذه الحملة، فلم يذكر المؤرخون مثلاً سلمان الفارسي، ولا المقداد، ولا أبا ذر، ولا أحداً من بني هاشم، ولا أبا الهيثم بن التيهان، في جملة من فرض عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخروج في ذلك الجيش.

4. صلاحية أسامة لقيادة الجيش:

بعد أن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتهيئة الجيش، خشي أن يتقاعس الناس، فخرج عاصباً رأسه، وكانت الحمى قد اشتدت به، فقال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة». ثم دخل إلى بيته، معتمداً على أن يبادر أسامة إلى التحرك بجيشه والخروج، فكثرت المقالة في أوساط الجيش، وطعنوا في تأمير أسامة، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغضب غضباً شديداً، وقال: «لئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله، كان للإمارة لخليفاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة»⁽²⁾.

5. التأكيد على إنفاذ جيش أسامة:

مضى الناس إلى المعسكر، وثقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه، ولكن لم يشغله ثقل المرض عن الاهتمام الكبير منه لخروج الجيش، فجعل يقول لكل من يعود من أصحابه: «جهّزوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة، أرسلوا بعث أسامة»، يكرّر ذلك، ويزيد إصراراً بقوله: «لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»⁽³⁾.

ومنذ الساعة التي حمّ فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قرّر بعث أسامة بن زيد، وصولاً إلى يوم وفاته ما

(1) السيد ابن طاووس، علي بن موسى، كشف المحجة لثمرة المهجة، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1950، لاط، ص 176.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 2، ص 190، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 248، الواقي، المغازي، ج 3، ص 119، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 159، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 55، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 352.

(3) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، لا، لاط، ج 1، ص 23، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 6، ص 52، الجوهرى، أحمد بن عبد العزيز، السقيفة وفدك، تقديم وجمع وتحقيق: الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، شركة الكتبي، بيروت، لبنان، 1993، ط 2، ص 77.

يقارب خمسة عشر يوماً، كان رسول الله يصرُّ على أسامة بالمبادرة والخروج، فيتحرَّك أسامة متباطئاً متثاقلاً، ثمَّ لا يكاد يمضي اليوم حتَّى يصل خبر حسَّاس مثير من بيت النبي ﷺ إلى المعسكرين خارج المدينة أن رسول الله يموت، فتتعثَّر مسيرة الجيش، ويقف، ويعود أسامة إلى المدينة، يدخل إلى بيت رسول الله ﷺ فيفتح رسول الله ﷺ عينيه ليجد أسامة واقفاً فوق رأسه، وعيناه تهملان بالدموع، فيفاجأ النبيُّ بعودته، وهو ثقيل مغمور، وعنده الناس والنساء حوله، فيطأطئ عليه أسامة فيقبله، والنبيُّ لا يتكلَّم، ثمَّ يرفع يديه إلى السماء ثمَّ يضعها على أسامة، كأنه يدعو له، يحثُّه على المضيِّ نحو هدفه الذي رسمه له قائلاً له: «اغز بسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله»، فيرجع أسامة إلى معسكره، ولكنَّه يبقى ولا يتحرَّك بالجيش. وهكذا، كان هذا المشهد يتكرَّر يومياً.

ولكنَّ أسامة لم يتحرَّك، وظهر كأن قريشاً وحلفاءها يسيطرون على ساحة الفعل السياسيِّ في المدينة عشيةً خلَّو قيادة الدولة الإسلاميَّة من خاتم النبيين.

ملابسات كتابة وصية رسول الله ﷺ

في يوم الخميس الذي سبق وفاة النبيِّ ﷺ بأربعة أيام، أراد رسول الله أن يوجِّه ضربة نحو مطامع قريش ومكائدها السياسيَّة، وكان أن وقعت الرزية، وحيل بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب الذي كان يريد أن يضمن فيه حفظ الأمة الإسلاميَّة من الانحراف والضياع من بعده. وفي ذلك اليوم، وفي البيت نساء ورجال قد ضرب بينهم حجاب، وقد اجتمع الصحابة في داره، ولحق بهم من تخلف عن جيش أسامة الذي كان قد تثاقل ولم ينفذ أمر رسول الله بالتحرُّك، وفي الرجال عمر بن الخطاب، وكان قد اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعه، وأدرك أنَّ المتأمِّرين قد أحبطوا خطته، وها هم قد مكثوا في المدينة وحضروا داخل بيته، فحاول أن يعرقل المؤامرة السياسيَّة التي كان يتوقَّعها من بعد وفاته، فقال للحاضرين عنده: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلُّوا بعده»، «أكتب لكم كتاباً لن تضلُّوا بعده». وهنا انتبه عمر بن الخطاب إلى أن رسول

الله ﷺ يريد أن يكتب كتاباً ينصّ فيه على ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام⁽¹⁾، فحاول تعطيل الحركة النبويّة، وأن يلقي شبهة أن رسول الله لن يموت، فلا داعي لهذا الكتاب. فقال: «من لمدائن الروم؟ إن رسول الله ليس بميت حتّى يفتحها، ولو مات لانتظرناه كما انتظر بنو إسرائيل موسى!»، فقالت زينب بنت جحش والنسوة: «ألا تسمعون النبيّ ﷺ يعهد إليكم؟ اتتوا رسول الله بحاجته».

وأمام إصرار النساء، رفع عمر مستوى ردّة فعله على محاولة النبيّ كتابة هذا الكتاب، وخطب نساء رسول الله بتصرّف يعدّ تجاوزاً للأداب كافّة في محضر رسول الله ﷺ، فقال لهنّ: «اسكنن فإنكن صواحبه إذا مرض عصرتن أعينكن وإذا صحّ أخذتن بعنقه!»، فقال رسول الله ﷺ: «هنّ خير منكم». ولعلّ كفة الموافقين على طلب رسول الله قد رجحت بعد أن قال النبيّ للرجال هنّ خير منكم، وهنا قال عمر: «إن النبيّ يهجر، وعندنا كتاب الله»، فتنازعا، واختصموا، واختلفوا، أو كثر اللغط، ثمّ قيل به بعد ذلك: «ألا نأتيك بما طلبت؟»، فقال: «أوبعد ماذا؟ قوموا عني، دعوني، ولا ينبغي عند نبيّ تنازع»⁽²⁾. ومع أنّ كتابة الكتاب كانت ضروريّة، لأنها كانت هي التي سوف تحفظ الأمة من الضلال، فقد صرف النبيّ ﷺ النظر عن كتابته، ولم يصرّ على ذلك، مع أنّ نفع الكتاب الذي سوف يكتبه لا يقتصر على أهل ذلك الزمان، بل سيكون شاملاً للأمة بأسرها إلى يوم

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج1، ص186، ج8، ص101، العيني، عمدة القاري، ج2، ص171، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج12، ص20، السيد ابن طاووس، كشف اليقين، ص472، يحيى بن الحسين، التحفة العسجدية، الناشر: أبو أيمن للطباعة، الجمهورية اليمنية، 1343 هـ، ش. لاط، ص144، و ص147.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص244، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص325، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج5، ص76، الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص22، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص562، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، ص193، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج5، ص439، الأمير علاء الدين علي بن بلبان، صحيح ابن حبان، ج14، ص562، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج2، ص55، وج6، ص51، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص248، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج3، ص171، ابن كثير، السيرة النبويّة، ج4، ص451، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص203، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الأمالي، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص37، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص433، السيد ابن طاووس، اليقين، ص521، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص297، السيد ابن طاووس، كشف المحجّة، ص65، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج12، ص247.

القيامة، وذلك خوفاً من تماديهم في الإساءة ونكرانهم لما هو أكبر، فقد علم ﷺ بما في نفوسهم، فقال لهم حين راجعوه ثانية بشأن الكتاب: «أبعد الذي قلتم؟!»⁽¹⁾.

رسول الله ﷺ في جوار الله

دخل يوم الاثنين، وثقل رسول الله ﷺ، فبادرت عائشة وحفصة إلى تعيين أبايهم. والظاهر أن عائشة هي التي غلبت فأمرت بلالاً أن يأمر أبا بكر فليصل بالناس، وكانت صلاة الصبح. فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رمق يتهدى بين عليّ والفضل بن العباس، واستدركها بخروجه، حتى قام في المحراب، وصرف أبا بكر عنه، وعزله عن نفس تلك الصلاة، وصلى هو إماماً في الناس⁽²⁾.

وفي اليوم نفسه الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، وهو يوم الإثنين، انتقل رسول الله ﷺ من دار عائشة إلى دار ابنته فاطمة عليها السلام⁽³⁾. فقد خرج في ذلك اليوم، حين صلاة الفجر، من بيت عائشة، فصلى بالناس، وخفف الصلاة، ثم قال: «ادعوا لي علياً بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، انطلقا بي إلى فاطمة».

وفي اللحظات الأخيرة، قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي أخي»، وكان ﷺ قد بعثه في حاجة، فجاءه عليّ عليه السلام فقال له ﷺ: «أدن مني»، فدنا عليّ عليه السلام، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلمه حتى بدت عليه علامات الاحتضار، فأخذ عليّ عليه السلام رأسه، ووضعها في حجره، فأغمي عليه، وكان واضعاً رأسه في حجر عليّ عليه السلام على صدره. وكان آخر ما قاله: «الصلاة، الصلاة»⁽⁴⁾، فأخذ عليّ عليه السلام رأسه، ووضعها في حجره،

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج2، ص469.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج9، ص197، يحيى بن الحسين، تثبيت الإمامة، دار الإمام السجاد، بيروت، لبنان، 1419م، ط2، ص23، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص182، الشيخ المفيد محمد بن محمد، الإفصاح، تحقيق: مؤسسة البعثة، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص206، الفضل بن شاذان الأزدي، الإيضاح، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مؤسسة انتشارات وچاپ دانشگاه تهران، إيران، 1363 هـ ش، ط1، ص346، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج2، ص241، والفصول المختارة، ص124، والجمل لابن شدقم، ص40.

(3) التستري، قاموس الرجال، ج11، ص36.

(4) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج2، ص172، الشيخ المفيد، الأمالي، ج23، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج10، ص179، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، ج3، ص436، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص263، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص107، العيني، عمدة القاري، ج18، ص66، الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص168، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج1، ص293.

فقبض ملك الموت روح رسول الله ﷺ ويد أمير المؤمنين تحت حنكه، وفاضت نفسه بين نحر عليّ ﷺ وصدره⁽¹⁾، ففاضت نفسه ﷺ في يد أمير المؤمنين اليمنى، رفعها إلى وجهه، ومسحه بها. ثمَّ وجَّهَهُ، وأغمضه، ومدَّ عليه إزاره، واشتغل بالنظر في أمره⁽²⁾. وكان ذلك يوم الاثنين⁽³⁾ ليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة⁽⁴⁾.

الإمام عليّ ﷺ واستكمال إجراءات الدفن

تغسيل رسول الله ﷺ وتكفينه:

بعد أن قبض رسول الله ﷺ ستره عليّ ﷺ بثوب، وغسله ﷺ وحده وهو في قميصه، لم يجردده⁽⁵⁾، فغسله⁽⁶⁾ من وراء الثياب. وكانت الملائكة تساعد عليًّا ﷺ على تغسيله⁽⁷⁾. وبعد أن فرغ عليّ ﷺ من تغسيل رسول الله ﷺ، تولَّى عليّ ﷺ

- (1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص200، الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج11، ص260، ج12، ص303، الحاكم النيسابورى، المستدرک على الصحيحين، ج3، ص58، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج1، ص381، أبي يعلى الموصلى، مسند أبي يعلى، ج9، ص132، الهيثمى، مجمع الزوائد، ج9، ص34، الطبرانى، المعجم الكبير، ج10، ص109، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص247، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص449، البلاذرى، أنساب الأشراف، ج1، ص576، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج3، ص175، قطب الدين الراوندى، الخرائج والجرائح، ج1، ص241، الشيخ الطوسى، تهذيب الأحكام، ج6، ص1، الفتال النيسابورى، روضة الواعظين، ص71.
- (2) الشريف الرضى، نهج البلاغة، خطبة 197، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص94، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج1، ص267، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص203، قطب الدين الراوندى، قصص الأنبياء، ص357، المشغرى، الدرّ النظيم، ص194.
- (3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص441، المسعودى، التنبيه والإشراف، ص244، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص292، الشيخ الطبرسى، الحسن بن الفضل، تاج المواليد، الناشر: مكتب آية الله العظمى المرعشى النجفى - قم، 1406 هـ لاط، ص7.
- (4) الشيخ الطبرسى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج2، ص214، الشيخ الطوسى، تهذيب الأحكام، ج6، ص2، الفتال النيسابورى، روضة الواعظين، ص71.
- (5) السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص44، القاضي النعمان المغربى، شرح الأخبار، ج2، ص418.
- (6) ابن عقدة الكوفى، أحمد بن محمد، كتاب الولاية، تحقيق: عبد الرزاق حرز الدين، لاد، 1421 هـ لاط، ص165، الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج12، ص322، الحاكم النيسابورى، المستدرک على الصحيحين، ج1، ص362، البيهقى، السنن الكبرى، ج3، ص387، ابن كثير، البداية والنهاية، ج5، ص280، ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص517.
- (7) الشيخ الطوسى، الأمالى، ج2، ص660، الشيخ الصدوق، الخصال، ج2، ص573 و 574.

وحده تكفين رسول الله ﷺ أيضاً، وكفنه في ثلاثة أثواب: ثوبين صحاريين، وبردة حبرة يمينية⁽¹⁾.

الصلوة على رسول الله:

بعد أن فرغ عليّ ﷺ من تغسيل النبي ﷺ، كفنه وسجّاه، ونقذ ما أمره به رسول الله ﷺ، فخرج ساعة من الحجرة، ثمّ تقدّم فصلّى عليه وحده، ولم يشرك معه أحداً في الصلاة عليه. ثمّ أدخل فاطمة الزهراء والحسن والحسين ﷺ، وسلمان وأبا ذر والمقداد، فتقدّم عليّ ﷺ وصفوا خلفه وصلّى عليه. ثمّ أمر الناس أن يدخل عليه فوج بعد فوج منهم، فيصلون عليه بغير إمام، وينصرفون.

الدفن:

قيل لأبي طلحة زيد بن سهل: «احفر لرسول الله ﷺ»، فحفر له لحدًا، ودخل أمير المؤمنين ﷺ والعبّاس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس وأسامة بن زيد ليتولّوا دفن رسول الله ﷺ. فطلب بعض الأنصار وبعض المهاجرين من الإمام عليّ ﷺ أن ينالوا شرف المشاركة في مراسم دفن رسول الله ﷺ ليدخل أوس بن خولي، ونزل عليّ ﷺ القبر فكشف عن وجه رسول الله ﷺ، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثمّ وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب⁽²⁾، وأخذ يسويّ قبر رسول الله ﷺ بمسحاة في يده، اتكأ على مسحاته. ورفع عليّ ﷺ قبر رسول الله ﷺ من الأرض قدر شبر وأربعة أصابع ورشّ عليه الماء، وجعل عليه لبنًا.

قال رسول الله ﷺ: «إني أدفن في البقعة التي أقبض فيها»، وقد دلّنا على موضع

(1) وصحار: قرية باليمن، علي بن بابويه، فقه الرضا، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث - قم المشرفة، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا ﷺ - مشهد المقدسة، 1406 هـ ط 1، ص 20، الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 400، القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، 1963 م، لاط، ج 1، ص 231، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 1، ص 291، ص 291، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 12، ص 326، عبد الرزاق الصنعاني، المصنّف، ج 3، ص 421، ص 474.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 188، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 270، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 152، المشغري، الدرّ النظيم، ص 196، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 12، ص 334، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 328.

قبره في الحديث المشهور: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»⁽¹⁾، وأنه قريب من المنبر⁽²⁾. وقد تقدّم معنا أنه انتقل في اليوم الأخير إلى بيت ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فيكون مكان قبره في بيتها عليها السلام⁽³⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفاء، ج2، ص427، ص428، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج11، ص228، الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص267، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج2، ص568، البيهقي، السنن الكبرى، ج5، ص246، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج3، ص55، الهيتمي، مجمع الزوائد، ج4، ص6.
(2) أبي يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى، ج1، ص109، عبد الرزاق الصنعاني، المصنّف، ج3، ص182، الطبراني، المعجم الكبير، ج23، ص255، البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص399، ج2، ص667، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج3، ص179، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج2، ص469.
(3) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص569، للتوسعة حول الموضوع، راجع: السيّد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج32، ص129، ج33، ص7.

المفاهيم الرئيسية

- جيش أسامة وخلافة الإمام عليّ عليه السلام :
 - أ. كان النبيّ صلى الله عليه وآله يعمل على تهيئة كل الظروف السياسية لتولي الإمام عليّ عليه السلام الخلافة من بعده، ولذا جهز جيش أسامة، وأخرج معه كبار من كان له طمع في الخلافة من بعده.
 - ب. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بالتهيؤ والخروج لغزو أهل أبنى؛ لأنهم كانوا معلنين الحرب على الإسلام وأهله، وأمر عليهم أسامة بن زيد. وقد كان تأمير هذا الشاب أمراً حساساً وخطيراً وثقيلاً على عدد كبير من المهاجرين والأنصار.
 - ج. أبقى رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام علياً عليه السلام في المدينة المنورة لتسلم الخلافة من بعده.
 - د. أمر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بالخروج مع جيش أسامة عندما رأى منهم الامتناع والهروب، فبين أنه أحق بإمارة الجيش وخليق بها.
 - هـ. أكد النبيّ صلى الله عليه وآله على ضرورة إنفاذ جيش أسامة، بل لعن من تخلف عن الالتحاق بهذا الجيش، إلا أن أسامة بن زيد لم يتحرك بهذا الجيش نظراً إلى ضغوط قريش بمنعه من الخروج.
- واجهت الوصية التي أراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن يكتبها العديد من العراقيين، خصوصاً من قبل قريش، فقد منع صلى الله عليه وآله من كتابة الوصية؛ لعلم قريش بأن النبيّ صلى الله عليه وآله أراد أن يوصي للإمام عليه السلام بالخلافة والولاية.
- ثقل مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وأوشك على الرحيل، وكان ذلك يوم الإثنين، فانتقل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى دار السيدة فاطمة عليها السلام، ثم دعا صلى الله عليه وآله الإمام علياً عليه السلام، فجلس إلى جانبه، ووضع الإمام عليه السلام رأس النبيّ صلى الله عليه وآله في حجره، حتى فاضت روحه يوم الإثنين ليلتين بقيتا من شهر صفر.

- قام الإمام عليّ عليه السلام باستكمال إجراءات الدفن من خلال:
- أ. تغسيل النبي ﷺ وتكفينه.
 - ب. الصلاة على النبي ﷺ، فقد صلى عليه وحده، ثم دخل عليه الناس فوجاً فوجاً، يصلون عليه بغير إمام.
 - ج. قام الإمام عليّ عليه السلام بحفر قبر النبي ﷺ، ثمّ دفنه في المكان الذي قبض فيه ﷺ.

مركز المعارف للثقافة والتأليف

من مؤسسات جمعية المعارف الإسلامية
الثقافية، متخصص بالتحقيق العلمي وتأليف
المتون التعليمية والثقافية، وفق المنهجية
العلمية والرؤية الإسلامية الأصيلة.

ISBN: 978-614-467-046-0



9 786144 670460



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

لبنان - بيروت - العمورة - الشارع العام

تلفون: +961 1 471070 • فاكس: +961 1 476142

www.almaaref.org.lb

Email: info@almaaref.org.lb